فريق متميزون

E-BOOK

الوردة البيضاء.. والغابة السوداء

إوين ديمبسي

ترجمة: محمد عثمان خليفة

روايات مترجمة

العربي للنشر والتوزيع

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الوردة البيضاء..

والغابة السوداء

"نتخيل أن الزمن يمر، بينما تبقى الأماكن
المُحيطة بنا كما هي دائمًا"

رواية مترجمة..

إوين ديمبسي

ترجمة: محمد عثمان خليفة

إهداء..

إهداء إلى ابني "روبي"

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

«استلهمت هذه الرواية أحداثًا حقيقية، ولكنني رأيت تغيير
عناصر تتعلق بالشخصيات والتواريخ لدواعٍ أدبية»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

جبال الغابة السوداء، جنوب غرب ألمانيا – ديسمبر ١٩٤٣

هذا أنسب مكان للموت..

ذات يوم، كانت تعرف كل حقل وكل شجرة في هذا المكان، كانت تعرف كل وادٍ. قديمًا.. كان لكل حجر هنا اسم، وكان العشاق يصفون أعشاش اللقاء فيه بمسميات غامضة تستعصي على عقول الكبار. قديمًا.. كانت مياه الجداول الجبلية تتدفق في سخاء، مثل الصلب الناعم تحت شمس الصيف. قديمًا.. كانت تلوذ آمنة بهذا المكان. أما اليوم، فهي تجده بقعة أصابها السم فخربت، واختنق فيها كل نقاء وجمال.

يجثم غطاء الثلج كثيفًا في كل مكان من حولها، ويمتد بلا هوادة في الاتجاهات الأربعة. أغمضت عينيها، تتلمس السكينة ولو لثوانٍ، تستحضر في مخيلتها عواء الريح، حفيف أغصان ثلجية، دفقات أنفاسها، ونبضات قلبها. تلوح في الأفق سماء الليل، واصلت المسير، تلاحقها أصوات خطواتها التي تطحن ندف الثلج أسفلها.. ترى أين هو أنسب مكان للانتحار؟ من سيجد جثتها؟ تخيلت بعض الأطفال وهم يلهون في الثلج فيصادفون جثتها.. لا، هذا خيال أصعب من أن يتحمله بشر، ربما يكون من الأفضل لها أن تعود أدراجها، لتصبر ليوم آخر على الأقل. تشكلت دمعة في إحدى عينيها، وسالت على بشرة خدرها البرد. واصلت المسير.

يزداد انهمار الثلوج كثافةً بينما تثبت الوشاح الذي يغطي وجهها. ربما يتحلل جسدها سريعًا في الأرض. بالفعل، هذه هي النهاية التي تليق بها. إنها العودة الأبدية إلى الطبيعة التي شغفت بها حبًّا، ولكن لماذا تستمر في المشي من الأساس؟ ما الذي تستفيده من المضي وسط الثلج لأبعد وأبعد؟ لقد حان الوقت بكل تأكيد لإنهاء هذا العذاب.. وهكذا دست يدها في جيبها وشعرت من خلال قفازها بنعومة المعدن الأملس لمسدس أبيها القديم.

لا، ليس بعد. استمرت تمضي أمامها، لن ترى الكوخ مرة أخرى، أو أي شيء أو أي شخص، لن تعرف أبدًا مآل الحرب، ولن تشهد سقوط النازي أو مثول ذلك المجنون أمام عدالة محكمة وحسابه على جرائمه. تذكرت "هانز".. وسامة وجهه، الصدق في عينيه، وذلك القدر المستحيل من الشجاعة في قلبه. لم تسنح لها الفرصة كي تحتضنه لمرة أخيرة، وأن تخبره أنه من جعلها تؤمن بأن الحب لا يزال موجودًا في عالم فقد عقله.. لقد قطعوا رقبته، وألقوا بها إلى جوار جثته، قبل أن يتركوه إلى جوار أخته وأعز أصدقائه.

لم يتوقف تساقط الثلوج، ولم تتوقف هي. أشجار الغابة على يسارها وهي تصعد تلًّا، تكيفت عيناها مع الظلام، ولفت انتباهها شيء ما أمامها، متكوم في الثلج على بعد حوالي مائتي ياردة منها.. جسد جاثم مثل حفنة من الخرق البالية في كل هذا البياض البكر، لا توجد آثار أقدام تؤدي إليه. لم يكن يتحرك، لكن المظلة الجوية التي ما زالت معلقة في جسده تلاعبها الريح، وتلامس الثلوج بين حين وآخر مثل حيوان عطشان يدور حول المياه. نأت بناظريها عنه بشكل غريزي، رغم أنها لم ترَ

روحًا حية منذ أيام. تقدمت نحوه بحذر وكلها توجس وريبة، فهي من اعتادت أن ترى في كل ظل وكل هبة ريح تهديدًا مميتًا. لكنها لم تجد حوله شيئًا، ولم تجد حوله أحدًا.

يتراكم الثلج فوق جسده الساكن، فلا تلمح الكثير منه أسفل هذا الغلاف الأبيض؛ عيناه مغمضتان. مسحت الثلج عن وجهه، وتحسست نبضه، شعرت بنبض قلبه في عروق رقبته. تخرج من بين شفتيه أنفاس بيضاء واهنة، ولكنه لم يفتح عينيه. تراجعت عنه خطوات، وهي تتلفت حولها بحثًا عن نجدة، ولكنها تدرك أنها وحدها. أقرب منزل هو منزلها، ذلك الكوخ الذي تركه لها والدها، وهي الآن على بعد يتجاوز الميلين.. أما أقرب قرية فهي على مسافة تتجاوز الخمسة أميال، وهي مسافة يستحيل عليها قطعها في هذه الظروف، حتى لو كان هذا الرجل في وعيه. أزالت الثلج عن صدره، فعرفت من زيه أنه نقيب في سلاح الطيران الألماني.. "اللوفتفافه". بالطبع، كان أحدهم؛ أحد هؤلاء الوحوش التي دمرت هذا البلد وحرمتها هي من كل مَن أحبته. هل سيعرف أحد لو تركته ليموت؟ يجب أن تتركه لحاله. سرعان ما سيموت كلاهما، ولن يعرف أحد؛ مجرد جثتين أخريين وسط الثلوج. ابتعدت بضع خطوات، ولكنها توقفت عن الحركة. وقبل أن تدرك أنها اتخذت القرار، انحنت عليه مرة أخرى.

ربتت على خده وهي تحاول إيقاظه. حاولت فتح عينيه، ولكنها لم تجد أي رد فعل سوى أنه واهن. يستند جذعه إلى حقيبة ظهره، بينما يتدلى رأسه إلى الوراء، وتنفرد ذراعاه على جانبيه. طويل بشكل لافت، لا بد أن وزنه ضعف وزنها. اعتراها القلق وهي تفكر في استحالة أن تحمله عائدة إلى الكوخ.. هذا محال! وبرغم ذلك حاولت أن تحمله، ولكنها لم تنجح سوى في رفعه بضعة سنتيمترات قبل أن تخونها ساقاها وتزل قدماها، ليسقط منها نحو الثلج مرة أخرى. لا شك في أن حقيبة ظهره تزن خمسين رطلًا على الأقل والمظلة الجوية عشرة أرطال أخرى. يمكن أن تبقى المظلة كما هي في الوقت الحالي، ولكن عليها أن تخلصه من حقيبة الظهر. وبعد بضع ثوانٍ من التجربة والخطأ، نجحت في فك أربطة حقيبته وسحبتها من تحته. فسقط جسده مرة أخرى على الثلج في ارتطام خفيف مكتوم.

نحت الحقيبة جانبًا ونظرت إلى السماء، يزداد الثلج المتساقط غزارة. ليس أمامهما وقت طويل. تفحصت نبضه مرة أخرى، لا يزال قويًّا، ولكن إلى متى؟ قادها حدسها إلى أن تدس يدها في جيب سترته. أخرجت أوراق هويته، اسمه "فيرنر جراف"، من برلين. وفي محفظته صورة لامرأة افترضت أنها زوجته، وهي تقف مع ابنتين باسمتين.. في الثالثة والخامسة من عمرهما. في حين كان يبلغ هو 29 عامًا.. أي أكبر منها بثلاث سنوات. خرجت أنفاسها عميقة وهي تقف لتحدق في "فيرنر جراف". لقد تدربت وعملت لمساعدة الآخرين.. تلك هي مهنتها، وهذا ما ينبغي أن تعود للقيام به، ولو لبضع ساعات فقط. أعادت الأوراق إلى جيبه قبل أن تتحرك خلفه مرة أخرى. وضعت ذراعيها تحت إبطيه وجذبت بكل ما فيها من قوة.. تحرك الجزء العلوي من جسده، لكن ساقيه عالقتان في الثلج. وأطلق صرخة ألم عالية وهي تحرر ساقيه من أسر الثلوج. عيناه لا تزالان مغمضتين. وضعته أرضًا

وتحركت لتفحص ساقيه، كان سرواله ممزقًا، جفلت عندما شعرت بعظام مكسورة تضغط على جلده، كلتا الساقان مكسورتان من تحت الركبة.. ربما كان الكسر في عظمة الشظية المجاورة لقصبة الساق، ولكن التأثير الأكبر بالتأكيد في القصبة. سوف تتعافيان في الوقت المناسب إن هي جبرتهما بشكل صحيح، ولكن المشي مستحيل في الوقت الحالي.

ربما كان من الأفضل له أن تتركه يموت في هدوء خلال نومه هنا وسط الثلوج. فتحت حقيبته، لتجد بعض الملابس والمزيد من الأوراق. وضعت كل هذا جانبًا، قبل أن تجد في قاع الحقيبة علب ثقاب وطعامًا وماءً وبساط نوم ومسدسين. تعجبت من أن يحمل طيار حربي أشياء من هذا القبيل.. ومسدسان؟ ربما كان سيسقط خلف خطوط العدو في إيطاليا، ولكنها تبعد مئات الأميال من هنا. ليس هناك الكثير من الوقت، وتضييعها الوقت في أسئلة افتراضية ربما يكلف "فيرنر جراف" حياته. فكرت في زوجته وابنتيه، الأبرياء من الجرائم التي قد يكون ارتكبها باسم "الرايخ".

لم يكن معها أي شيء سوى مسدس أبيها، الشيء الوحيد الذي ظنت أنها لن تكون بحاجة لغيره هذه الليلة.

تذكرت فصول الشتاء الثلجية في شبابها، والأوقات التي قضتها في هذا الحقل بالذات.. كان صف الأشجار الذي كانت تسير بمحاذاته على بعد بضع مئات من الياردات فحسب، تلك المسافة هي التي تفصل بين حياة "فيرنر جراف" وموته. لم تكن لتعثر عليه أبدًا لو أنه هبط هناك.. حتى لو كان نجا من الهبوط. أخرجت بساط النوم من حقيبته وفتحته وفردته عليه، قبل أن تميل على وجهه، همست له:

- أتمنى أن حياتك تستحق. أنقذك لأجل زوجتك وابنتيك.

الحقل الذي كانا فيه على تل، وتقود الأشجار إلى أسفل حيث وادٍ. أشجار الصنوبر مغطاة بالثلوج حتى عمق عشرة أقدام أو أكثر. استغرق الأمر دقيقة أو دقيقتين للوصول إلى حيث الأشجار. سحبته فوق الثلج، الذي كان ناعمًا وساعدها في إحراز تقدم سريع. ما من أحد قادم. سوف يكون هذا الكهف الثلجي فرصتهما الوحيدة للنجاة خلال الليل. يمكن للانتحار أن ينتظر حتى تنقذه.

تفقدته.. لا يزال حيًّا. شعَّ وميض أمل واهن بداخلها، مثل شمعة بعيدة في جوف مظلم. شقت طريقها إلى الحفرة، ولم تفكر في كيفية إدخاله فيها، ركزت فقط على الحفر، حفنة في كل مرة. وبعد عشرين دقيقة أخرى، صار الكهف الثلجي كبيرًا بما يكفي. نزلت إلى الداخل، وهي تستخدم جسدها في تنعيم الثلج. صنعت ما يشبه الرف بيديها حيث ستضعه قبل أن تفتح فتحة تهوية في الأعلى بعصا طويلة جلبتها من الخارج.

عادت إلى حيث يرقد "فيرنر"، وحملت الحقيبة وبساط النوم، لتضعهما داخل الكهف. سوف يرقد فيه ممددًا من دون صعوبة، كما أن المساحة تكفي للجلوس براحة.

عادت إليه. لا بد أن الوقت تجاوز منتصف الليل. لا يزال نور الصباح وأمانه على بعد دهر. لن يتسنى لها أن تنقله إلى مكان آخر حتى تنحسر العاصفة الثلجية. قبضت على قماش المظلة، التي لا تزال مربوطة بالأحزمة إلى كتفيه، وسحبت. ارتسمت على وجهه تعبيرات المعاناة من ألم رهيب، بينما انزلق جسده على الثلج. قبضت على المظلة مرة أخرى، وسحبتها بأقصى ما تستطيع.. تخاذلت ساقاها، لكنها سحبته ستة أقدام أخرى.. هذا ممكن. اشتعل الأمل بداخلها، مرسلًا دفقات الأدرينالين عبر جسدها المنهك. سحبته مرة أخرى، ومرة أخرى. استغرق الأمر عشرين دقيقة. كانت تتصبب عرقًا أسفل وشاحها السميك ومعطفها، لكنهما وصلا إلى حافة الكهف. هذه هي أول مرة يراودها فيها شعور مثل الانتصار، منذ ما بدا وكأنه عمر آخر. ربما منذ منشورات الوردة البيضاء الأولى، وقت أن غمرتها حماسة الدفاع عن الحق، وقت أن بدا الوعد بمستقبل أفضل للشعب الألماني.. وكأنه حقيقة واقعة، لأول مرة منذ جيل.

لا يزال "فيرنر جراف" فاقدًا للوعي. لا شيء يمكن أن يوقظه، ليس الليلة. دفعها أمل أن يتمكن من فتح عينيه مرة أخرى إلى الاستمرار. لم يعد يهمها من هو، يكفيها فقط أنه إنسان وأنه لا يزال على قيد الحياة. استغرقت بضع ثوانٍ لترتاح قبل أن تدفعه إلى أسفل المنحدر الذي صنعته ومن ثم إلى الكهف. تأوه من جديد، وأصدرت عظام ساقيه صوتًا حادًّا مقززًا وهي تدفعه إلى أسفل.

لم يتوقف انهمار الثلج من سماء سوداء، بينما الرياح تعوي مثل ذئب شره. أضاء الكهف عندما أشعلت عود ثقاب أخذته من حقيبته. لم تكن قد نظرت إلى وجهه بتمعن من قبل؛ كان بالنسبة لها مجرد جسد مصاب. وجدته وسيمًا، غير حليق الذقن، وبشعر بني قصير. أطفأت عود الثقاب وأخذت تحمي جسده ببساط النوم. تمددت إلى جواره، فسمعت أنفاسه المتهدجة تتوالى قصيرة واهنة، لتواكب نبض قلبه الرتيب الذي يرتفع بصدره. عليها أن تدفئ جسده وأن تستدفئ هي بدورها بجسده، إلى أن ينقضي الليل. أحاطت جسده بذراعها. لم تلمس رجلًا على هذا النحو منذ أن مات "هانز"، قبل عشرة أشهر. وسرعان ما ألقى بها التعب في غياهب نوم ثقيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتبهت فزعة على صوت صراخ. واستغرقت ثوانٍ قبل أن تتذكر أين هي ولماذا هي هنا. خدَّر ظلام الكهف حواسها، إلى أن حدقت بعينيها في نور الفتحة فوقها.. نور القمر ظاهر الآن، ورأسه مائل إلى جانب جسده، الذي لا يزال دافئًا. لا بد أنه يحلم. عادت تنام إلى جواره، وقد توسدت ذراعه. كادت تغمض عينيها لحظة أن صرخ مجددًا:

- كلا.. أرجوك.. كلا! أرجوك، توقف!

لحظتها، تجمد الدم في عروقها. كانت كلماته التي نطق بها واضحة من دون لبس..

كلمات بالإنجليزية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني

قبعت في مكانها بلا حراك؛ وكأن الصدمة أصابتها بالشلل.

تعجز عن الكلام. عيناه مغمضتان. ولا يزال الوقت ليلًا. ولا تزال هي راقدة إلى جوار هذا الرجل، الذي لم تعد تعرف هويته. صارت أنفاسه أقوى الآن. لقد أنقذت حياته بالفعل، ولكنها لم تعد تعرف المصير الذي ينتظرهما. حاولت أن تجد منطقًا يدفعها إلى الاقتناع أنه "فيرنر جراف" بالفعل.. ولكن كيف يكون هو؟ هل وصلت البراعة بطياري سلاح الجو النازي إلى حد أن يصرخوا بالإنجليزية في أحلامهم؟ هي لا تجيد الإنجليزية إلى ذاك الحد، ولكنها قادرة على التمييز بين من يتحدث بها كلغته الأم ومن هو خلاف ذلك.. هذا أمر لا يصعب تمييزه. فمَن هو هذا الرجل؟ وما الذي قد يحدث له إن هي سلمته إلى الشرطة؟ لم تشأ أن تفكر في مصيره وهو بين أيدي "الجيستابو". ملابسه ملابس طيار في سلاح النازي، ولكن لو أنه في الحقيقة بريطاني أو أمريكي فلا ريب في أنهم سيعذبونه ويقتلونه بتهمة التجسس. وهي تفضل الموت على أن تساعد "الجيستابو" في مواصلة فظائعهم. فما الذي عليها أن تفعله؟

رفعت نفسها عن جسده وخرجت من الكهف الثلجي. نهش الهواء الجليدي وجهها المكشوف وشعرت بأنه مثل سائل وهي تسحبه إلى رئتيها. توقف هطول الثلج. وانزاحت الغيوم مثل مفرش طاولة متسخ، وكشفت عن النجوم التي تحترق فوق صفحة سماء سوداء. هدأت الرياح واستحالت دغدغة لطيفة تهدهد أغصان الشجر. كل شيء ساكن عدا ذلك. ماذا سيحدث لو أنها تركته؟ هل سيقدر له أن يستيقظ من نومه؟ هل سيتمكن حتى من إخراج نفسه من الكهف بمجرد أن يسترد وعيه؟ وجدت سطح الحقل الذي سحبته عبره متجانسًا مهندمًا.. جميلًا الآن. يمكن لأي شخص أن يمر به ولن يعرف أبدًا أنهما كانا هنا، ولكن الصباح مقبل، وهما منعزلان؛ الناس في هذه المنطقة قلة، وبعيدون. قدرت أن أمامها ثلاث ساعات على الأقل قبل أن تبزغ شمس الشتاء على استحياء في الأفق لتنير الغابة؛ ثلاث ساعات فقط قبل أن يراهما أحد، أيًّا من كان. قد يصادفها متزلج بينما يكافحان مرة أخرى لعبور الثلج، وعندئذ لن يكون مصيرهما بيديها. هذا الرجل سوف يستسلم لـ"الجيستابو" من دون أي شك في موقف كهذا، فأهالي المنطقة يجدون أن من الأسهل عليهم دائمًا الوقوف في صف "الجيستابو"؛ يكافئون المواطنين على قيامهم بذلك، ويُلقون بمن يرفض في غياهب السجن، وعلى من يعتزم أن يقف في وجههم أن يتحلى بقوة خارقة للطبيعة. كانت هذه عبقرية نظامهم؛ أن تجد استحالةً في القيام بالصواب، وأن تدرك أن عدم الإبلاغ عن جيرانك يماثل في خطورته عليك القيام بأنشطة معادية للمجتمع، وهي التهمة التي يلهو بها "الجيستابو" كيفما شاء. وهو ما يعني أن لديهم جواسيس في كل مكان. وقد أجاد الجميع "النظرة الألمانية"؛ نظرة سريعة خاطفة خفية تتأكد بها من أن أحدًا لا يراقبك.. إنها اليوم جزء من محاولات التشبث بالحياة.

عاودتها أشباح خططها السابقة. كانت تتوقع العثور على جثتها في اليوم التالي، بل أرادت أن يجري ذلك بهذه الطريقة. كان من الممكن أن تصل إلى قلب الغابة، حيث

لم يكن لأحد أن يجدها لأشهر، وإلى أن يتلاشى لحمها عن عظامها، ولا يتبقى سوى بياض هيكلها العظمي، في انتظار من يجده. يبدو أن ليس لديها من خيار سوى التخلي عن تلك الخطط ومساعدة هذا الرجل.. لو تركته في الحفرة سيموت، وإذا سلمته إلى السلطات سيموت، وسوف يكون عليها حينذاك أن تعيش مع ذنب مساعدتها رجال "الجيستابو" المنحرفين والنظام المجنون الذي يمثلونه. وإن هي انتظرت حتى الفجر، فقد تصادف من يجبرها على أن تتركه له فيموت، بل ربما تموت هي أيضًا معه.. لا يبدو أن هناك أي خيار على الإطلاق.

كانت الثلوج قد وارت آثار قدميها التي صنعتها حتى وصلت إلى هنا، لكنها تعرف هذه التلال والمروج، سواءً أكانت مغطاة بالثلج أم لا. بدأت تشق طريقها عائدة إلى الكوخ، سيستغرق الوصول إلى هناك أكثر من ساعة، المدة نفسها للعودة إلى ذلك الرجل.. هل كان جاسوسًا أم هو أسير حرب هارب؟ ولكن، إذا كان أسير حرب، فلماذا قفز من طائرة إلى أرض ألمانية؟ ربما تكون طائرته قد أسقطت أو تعرضت لبعض المشكلات الفنية وأجبر على القفز منها. وإلا.. ما الذي أتى به إلى هنا وسط الجبال؟ "فرايبورج" على بعد نحو عشرة أميال فحسب. ربما خرجت الطائرة عن مسارها، ولكنها لم تسمع صوت أي طائرة ولم ترَ أي وهج في السماء في أثناء خروجها. برغم أن غارات القصف متكررة. حتى في هذه المنطقة. ومع صورة سقوط القنبلة في خيالها، تذكرت والدها، وذلك الألم الذي دفعها إلى الخروج حتى هنا ومسدسه في جيبها، ولكنها سرعان ما تذكرت الرجل في الحفرة الثلجية فعادت إلى اللحظة، وعادت تجر قدميها وسط الثلوج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

اتخذت طريقها نزولًا في التل الذي وجدته فيه، تعود من حيث خرجت في البداية. وسرعان ما غابت الحفرة عن ناظريها، وكذلك الشجرة التي حفرت تحتها. قالت لنفسها بصوت عالٍ: "لا تنشغلي بما ليس لكِ يد فيه".

ارتاحت وهي تسمع أفكارها، كأن هناك من يرافقها وكأنها ليست وحدها في محاولة إنقاذ حياته، لذا عادت تسأل نفسها: "ما الذي تفعلينه؟ لماذا تتورطين مع رجل لا تعرفينه؟".

كاد الإنهاك ينال منها عندما ظهر الكوخ أمامها. دفعت الباب الموارب، لم تكن تتوقع أن تأتي إلى هنا مرة أخرى، وبرغم هذا.. حرصت على أن تترك الكوخ نظيفًا مرتبًا؛ هدية لمن يجده. خلعت حذاءها تاركة إياه عند الباب وهي تدخل. خلعت قفازها قبل أن تبحث عن أعواد الثقاب الموجودة على طاولة قريبة. توهجت الغرفة بنور الشمعة التي أضاءتها، ولمحت نفسها في المرآة قبل أن تشيح عينيها بعيدًا. ليس لديها رغبة في مواجهة انعكاسها على المرآة. كان جمر نار الليلة الماضية قد خمد في المدفأة. الحطب هناك بالخلف، هذا عمل لوقت لاحق. تحركت في غرفة المعيشة وتناولت زجاجة براندي لتضعها في جيب معطفها. وضعت يديها على رأسها وهي تفكر في أي شيء آخر قد تحتاجه معها في طريق العودة إلى هنا.

رحلتها وحدها شاقة بما فيه الكفاية. وبدأت تتساءل عما إذا كان من الممكن أن تعود به إلى هنا، وفكرت في أن تجلس لبرهة وتغمض عينيها، لترتاح ولو قليلًا.

صبت كوبًا من الماء وشربته في ثوانٍ. وضعت الكوب، ثم تناولت سكين مطبخ وضعتها في جيبها. كان باب غرفة النوم مفتوحًا، والفراش مهندمًا، بعد أن رتبته ووضعت الأغطية فوق بعضها بشكل أنيق. يمثل لها الفراش الآن رفاهية مستحيلة، برغم أنه كل ما تريده من الدنيا في تلك اللحظة. تعرف ما يعنيه أخذ قسط من الراحة بالنسبة لمصير الرجل القابع في الثلج. أغلقت باب غرفة النوم وخرجت لتستقبل الليل من جديد. الحطب الذي جمعته هذا الأسبوع في مكانه لم يمس، وهو يلتمع بغلاف ثلجي رقيق يغطيه. تأملت الزلاجة التي تستخدمها في جلب الحطب من الغابة.. إنها متينة وسوف تتحمل وزنه. سحبته إلى مقدمة الكوخ، قبل أن تدلف إلى الداخل مرة أخرى.

أعلنت ساعة الحائط الخامسة صباحًا. خرج منها تمثال رجل خشبي طريف ليدق الجرس بمطرقته، خمس مرات. أحب "فريدي" أخوها هذه الساعة، فكانت البهجة التي تمنحها له هذه الساعة الغبية السبب الوحيد الذي يمنعها من تحطيمها. واليوم، صار كل ما أحبه أخوها، بل كل ما لمسته يداه، بمنزلة أغلى كنوز الدنيا بالنسبة لها. خاطبت الساعة، بينما يختفي رجلها القزم في قلبها:

- "فريدي"، أنت تراقب ما أفعل.. أليس كذلك؟ أحتاجك معي. أحتاج أن أشعر بأنك جانبي. أعجز عن فعل هذا من دونك.

لم تنطق اسمه بصوت مسموع منذ شهور، بل لم تسمح لنفسها بذلك. هذا كثير عليها حتى تتحمله.. الأفضل أن تنسى، أن تتجاهل الماضي حتى تروض عذاباته.. ولكنها في حاجة إليه الآن، تحتاج إلى شعور الحب مجددًا. حاولت أن تتذكر الحب الذي شعرت به من قبل، وحاولت أن تجذبه من أعماقها مثل مياه ثمينة تسحبها من بئر في قلب الصحراء. كوَّرت يدها قبضةً، وكأنها تشد خيوط أعصابها، وأخذت نفسًا عميقًا، ثم فتحت الباب.

لم تعد هناك رياح، والهواء ساكن مثل الموت. أمسكت بالحبل المتصل بمقدمة الزلاجة وانطلقت عبر الثلج. لا تزال آثار أقدامها ظاهرة وستبقى على هذا النحو حتى تأتي موجة الثلج التالية. وهكذا يمكن لأي شخص أن يتبعها. سوف يستر الليل عليهما لساعتين أخريين، ولكن بعد ذلك ستكون الآثار ظاهرة لأي شخص يخرج في الصباح. كيف تفسر لهم سحبها طيار "لوفتفافه" عبر الثلج فوق زلاجة؟ سوف تفكر في كذبة إن احتاجت إليها. أما الآن، فالشيء الوحيد المهم هو أن تستمر في المضي نحوه.

ظل الخوف من أن يكون قد مات يطاردها طوال رحلة العودة إليه. ماذا لو كان "الجيستابو" يتعقبه؟ ماذا لو رؤوا مظلته ولم تتح لهم الفرصة للقبض عليه في أثناء العاصفة؟ بالتأكيد سيكونون في طريقهم إليه الآن. راودتها ذكريات الاستجوابات الوحشية، الزنازين، وعينا رجل "الجيستابو" الذي استجوبها.. رمادية باردة. لم

يهدأ بالها إلا حينما شاهدت الحقل. واستغرقت أفكارها في البحث عن سبيل تعود به إلى الكوخ من دون أن يتعقبهما أحد.

كان الحقل فارغًا كما تركته. أصغت فلم تجد صوتًا. لصمت الليل قصة يرويها.. الأشجار ساكنة، والثلج كثيف ثقيل. انتظرت دقيقتين لكنها أدركت أنها تضيع الوقت. لم يره أحد بعد، لكن شخصًا ما سيفعل ما لم تبادر بالتصرف. نظرت حول الشجرة التي كانت تختبئ خلفها وشقت طريقها عبر الحقل باتجاه الحفرة. لاحظت أن المدخل قد ضاق الآن ولم يعد سوى بضع بوصات فقط، فأخذت توسعه مجددًا. لا يزال راقدًا فوق بساط النوم الذي أخرجته من حقيبته، ولا يزال صدره يتحرك بتنفسه، لا يزال فاقدًا للوعي.

- مرحبًا؟ أنت مستيقظ سيدي؟ أتسمعني؟

تردد صوتها عبر فراغ الليل. لم يحرك الرجل ساكنًا. لكزته في كتفه، من دون رد فعل. سوف تشرق الشمس قريبًا، وعليها أن تتحرك الآن. لملمت أربطة المظلة وشدتها وهو مربوط إليها، وثبتت قدميها في الثلج وسحبت. ارتفع جسد الرجل ببطء وهو يخرج من الحفرة الثلجية. انهارت قواها، وأخذت تلهث بجانبه، وقلبها ينبض بشدة. لقد خرج من الحفرة. والآن، كل ما عليها فعله هو حمله على الزلاجة وسحبه لمسافة ميلين إلى الكوخ.. هذا كل شيء.

ويا لها من مهمة!

استلقت على الثلج، تحدق في النجوم المتلألئة. ينال منها الإرهاق، والرغبة في النوم طاغية. لا شيء أروع الآن من أن تغمض عينيها وتستسلم له! جسدها يؤلمها، تشعر بحريق في عضلات كتفيها وذراعيها من سحب الرجل خارج الحفرة. لكن عليها أن تستمر؛ فالتوقف يعني الفشل، وهي لن تقبل بذلك. طول الزلاجة أربعة أقدام، وطوله هو نحو ستة أقدام، ولولا ساقيه المكسورتين لكانت قد سحبته خلفها، وتركت أطرافه تتدلى على الثلج في أثناء سيرها. هل يمكنها أن تترك رأسه يتدلى فوق طرف الزلاجة؟ أحضرت الزلاجة إلى جواره.. هذه فرصته الوحيدة. وإذا كان لا بد من سحب ساقيه، فليكن. ربما كانت هناك طريقة تجعله بها أكثر راحة.

لا تزال حقيبة ظهره في الحفرة، فكان عليها أن تعود لاستعادتها. بداخلها حبل، أخرجته. وجدت أن الحبل طويل للغاية، لكنها كانت تحمل السكين التي أخذتها من المنزل. قطعته إلى ستة أطوال، طول كل منها حوالي ثمانية عشر بوصة. سوف يستغرق هذا بضع دقائق، لذا أخرجت زجاجة البراندي من جيبها وفتحت شفتيَّ الرجل لتسكب الشراب في فمه. عجز عن ابتلاعه في البداية، ولكنها رفعت رأسه فبدأ يبتلع بعضًا منه. تناولت بدورها بعض الشراب، وشعرت بحرارته تنساب بداخلها حتى استقرت في معدتها.

استغرقت حوالي دقيقتين أو ثلاث لتجمع عدة أغصان متينة يبلغ قطر كل منها حوالي ثلاث أو أربع بوصات. أسقطتها بجانب جسد الطيار استعدادًا للجزء

الصعب. خلعت قفازها. هاجم البرد يديها بشدة، ولكنها تجاهلت الألم، وركزت على ما سوف تقوم به.

وضعت يدًا على كاحل الرجل الأيسر ودست يدها الأخرى في داخل سرواله، تتحسس العظم. الكسر أسفل الركبة ببضع بوصات. كان من الأفضل لو أنها جبَّرته ما إن وجدته، لكن كان لديها أمور أكثر أهمية في ذلك الحين. تألم الرجل من لمسات يدها، لكنها ضغطت، وردت العظم تحت جلده وهي تقوم بشد بطيء وقوي لأسفل ساقه. عاد العظم إلى مكانه، وأخذت فرعين وربطت أحدهما في كل جانب من ساقه بالحبل الذي قطعته. ثبتت الساق بإحكام. متانة الحبل جيدة على النحو الذي توقعته. الآن عليها أن تفعل الشيء نفسه مع ساقه اليمنى. ولما تحسست العظم، وجدت أن الكسر غير شديد. ثبتت العظم في مكانه وربطت فرعي الشجرة على جانبي ساقه. جلست تتأمل وجهه لثوانٍ، وهمست تخاطبه:

- من تكون؟

انتظرت لحظة، وكأنه سيجلس ويجيب على سؤالها، لكن لا صوت من بين شفتيه، وحده أنين الريح التي بدأت تهيج حولهما مرة أخرى. لا بد أنها السابعة الآن. ما من وقت لتضيعه. حملت حقيبته على كتفيها وخلصته من أحبال المظلة، بعد أن انتقى الغرض منها. لا يمكن أن تتركها عالقة به، فقد تعلق في الأرض. كما أنها ثقيلة. وقد أعدموا أناسًا لمجرد أنهم وجدوا معهم أشياء أقل أهمية من مظلة طيار كهذه. وحتى لو لم يكن "الجيستابو" يبحث عنه، فإن من يعثر على مظلة هنا سوف يثير أسئلة سرعان ما تؤدي إليه. يمكنها المجازفة بجلبها، لأنه إذا قُبِض عليهما، فلن يكون هناك من تفسير أو تبرير بالمظلة أو بدونها. وهكذا، طوتها قدر استطاعتها، قبل أن تضعها فوقه. تناولت طول الحبل المتبقي، حوالي عشرين قدمًا، ولفته حول الزلاجة لتثبته إليها، والمظلة على صدره. شدَّت الحبل بإحكام لكن بقدر يسمح للرجل أن يتنفس. الآن أصبحا مستعدين.

تناولت عقدة الحبل في مقدمة الزلاجة وسحبت. تحركت الزلاجة على امتداد السطح الأملس للثلج. كانت أول بضع مئات من الياردات سهلة نسبيًّا، حيث شقا طريقهما عبر المرج المغطى بالثلوج، لكن أسرع درب للعودة إلى الكوخ يتضمن التنقل عبر بعض الأشجار وعبر جدول متجمد. ولم يكن ذلك ممكنًا وهي تسحب الرجل خلفها. عليها أن تلتزم بالمسارات، وهو ما يزيد من فرص أن تصادف أي شخص. فكرت بمن ستلتقي، وفكرت في الثقة التي سلبها النازيون من الشعب الألماني. لا يزال المسدس ثقيلًا في جيبها. فقد نسيت أن تتركه في الكوخ.

ومع كل منحدر سهل، كان هناك مرتفع صعب، ولا يزال في انتظارها مرتفع حاد إلى الكوخ في نهاية هذه الرحلة. ستكون قواها قد خارت حينذاك، ولكنها استمرت رغم أن عضلاتها بدأت تخونها. تشعر بالقوة تتسرب منها، وصارت أنفاسها أعمق وأكثر قوة. يتجمد العرق على جلدها المكشوف، تعرف مدى خطورة ذلك، وأنها قد تصاب بـ "قضمة الصقيع"، لكنها لم تتوقف؛ لا يمكن أن تتوقف. استمرت بينما

كانت الشمس تبزغ في الأفق. لم تجد بهجة لظهورها ولا عزاء في طلوع الفجر. كانت على بعد ميل تقريبًا من الكوخ، بينما تخلع السماء عباءة الليل.

أتاها صوت خطى من الأمام. صعب عليها في البداية أن تعرف من أين تحديدًا. وقفت في مكانها صامتة، ونبضها يتسارع. اعتادت أذناها الصمت، لذا يمكنها أن تسمع بوضوح صوت خطوات تقترب على الدرب. رمقت الرجل على الزلاجة. لا تعرف قدر الوقت المتاح لهما، لكنه لن يكون أكثر من دقيقة. ينعطف الدرب أمامها، مما يعني أن الشخص الذي يقترب سيكون بعيدًا عن أنظارها ولن تراه قبل فوات الأوان. سحبت الزلاجة بعيدًا عن الدرب ولأسفل، خلف صف من الأشجار. بذلت قصارى جهدها لإخفائه، وغطته ببعض الأغصان العريضة. مسار الزلاجة لا يزال ظاهرًا. ويمكن لأي شخص أن يلاحظ المكان الذي توقفا فيه. ضغطت بيدها على فمها لتحبس صوت أنفاسها.

مرت دقيقة، والصوت يعلو. ظهر أمامها شخص، تعرفت على الرجل وكادت تضحك وهي تهز رأسها.. كان "بيركل"، والد رفيقها السابق. عرفت دون تردد أنه سيبلغ عنها؛ كان "دانيال" في "الجيستابو"، ولا شيء يسعد "بيركل" أكثر من أن يشي بها. هو على بعد حوالي ستين قدمًا منها الآن، يمشي بتمهل على طول الطريق، مستندًا إلى عصا. مرت سنوات منذ آخر مرة تحدثت إليه، عندما كانت هي و"دانيال" معًا. رجل خشن فظ، يفتقر إلى أي ذوق أو جاذبية. يعيش في الجوار، وربما اعتاد هذا الخروج الصباحي. ضخم الجثة، تجاوز الستين عامًا. تحسست المسدس في جيبها.. ما الذي هي على استعداد لأن تفعله في سبيل حماية رجل قابلته قبل ساعات فقط، رجل لم تتحدث معه مطلقًا؟ ربما لا تعرف حتى اسمه الحقيقي.. عادت تنظر إلى "بيركل" وهي تستحضر صورًا واضحة للشرور التي ابتلعت بلادها. وعادت تنظر إلى الرجل على الزلاجة لتستجمع كل ذرة أمل بداخلها؛ لقد أنقذ حياتها بالفعل، تمامًا كما أنقذت حياته.

توقف "بيركل" على بعد نحو عشرين قدمًا عن المكان الذي كانا يختبئان فيه. انحنى إلى الخلف، ليمط ظهره، ثم اعتدل وأخرج سيجارة من جيبه، دسها بين شفتيه وأشعلها بعود ثقاب قبل أن يستنشق الدخان في تلذذ. بإمكانها رؤية وجهه من حيث كانت مختبئة، عيناه يقظتان، عاود المشي مرة أخرى، وإن كان ببطء أكثر هذه المرة، بينما يحدق في الطريق. نظر إلى اليمين ثم اليسار، على بعد بضعة أقدام من المخبأ الذي كانا فيه. توقف، وتوقف قلبها معه. إصبعها على الزناد، مستعدة لتصويب مسدسها تجاه رجل عرفته طيلة حياتها لتحمي رجلًا لم تصادفه إلا قبل ساعات. أين تخفيه؟ كان عليها أن تفعل كل شيء حتى لا يراه. هز "بيركل" رأسه واستأنف السير على الطريق. تجاوز المخبأ واستمر في دربه، غير مدرك لوجودهما.

انتظرت خمس دقائق، ثم أخرجت رأسها تراقب الطريق. احتبست الدموع في عينيها من فرط التوتر. قبضت على حبل مقدمة الزلاجة وأجبرت ذراعيها المنهارتين على سحب الرجل مرة أخرى. كانت الشمس مشرقة في السماء الزرقاء الصافية، لتضيء المشهد الجميل الذي صنعته الثلوج في الليلة السابقة. لم تتأثر

الطبقة البيضاء باستثناء المسار الذي تركته خطوات "بيركل". واصلت سحب الرجل، وركزت تفكيرها على الوصول به إلى الكوخ حيًّا.

لم تصادف آخرين في ذلك الصباح. أبعدت يدها عن المسدس في جيبها لتسحب الزلاجة باليدين. اختفت كل فكرة من عقلها إلا فكرة الوصول إلى الكوخ. ما من أمل آخر سواه الآن، العالم كله قائم من أجله، خطوة مؤلمة تتبع أخرى حتى ظهر التل الأخير. لم تأخذ قسطًا من الراحة بخلاف ذلك التوقف الذي فرضه "بيركل"، ولكنها جلست الآن، تستعيد أنفاسها قبل المنعطف الأخير. لقد اقتربت بالفعل، لم يتبقَ سوى هذا التل، ثم الكوخ في الأعلى.. حيث الطعام والماء والمسكنات.. والنوم. التفتت إليه:

- كدنا نصل. ما هي إلا خطوات.

تكاد عضلات ساقيها تنهار، ولكنها قاومت الألم والضعف وهي تعتدل، ممسكة بالحبل المربوط بالزلاجة. سحبت بقوة، وهي تتصبب عرقًا، حتى وصلت إلى الكوخ.

لهثت وهي تدفع الباب الأمامي بيدها. جرَّت الزلاجة إلى الداخل، تاركة وراءها أثرًا من الثلج والأوساخ التي سيتعين عليها تنظيفها لاحقًا.

أصبح هنا داخل الكوخ، وكأنها معجزة. سحبته إلى غرفة المعيشة وتركته أمام جمر المدفأة الخامد منذ الليلة الماضية. هناك ما يكفي من الحطب لإحيائه من جديد، وقد استغرقت بضع دقائق لإشعاله. شعرت أن قبعتها ومعطفها مثل جلد ثانٍ لجسدها وهي تخلعهما. راحت إلى المطبخ وتناولت عدة أكواب من الماء قبل أن تعود إليه. حملت الكوب إلى شفتيه، وأقحمت الماء في فمه، تمكن من ابتلاع جزء منه. رائحته كريهة وساقاه مكسورتان، لكنه على قيد الحياة، وهذا كافٍ في الوقت الحالي. تركته هناك أمام النار، فاقدًا للوعي، ولكنه في أمان. ذهبت إلى غرفة نومها، وخلعت ملابسها، وارتمت على الفراش..

وراحت في نوم عميق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

مع دقات ساعة الحائط، اختلجت عيناه قبل أن يفتحهما بصعوبة متسعتين.

وجد نفسه راقدًا في بركة من العرق كريه الرائحة ومقيدًا إلى ألواح خشبية.

استقر الضباب الذي يعصف بعقله، واستغرق بضع ثوانٍ ليتذكر أين هو، وسبب وجوده هنا. شعر بالألم في ساقيه يرتفع خلال جذعه. بمقدوره أن يحتمل الألم، لكنه لم يعد يطيقه. تلفت حوله بحثًا عن مهرب، توهج جمر النار المحتضر بالأحمر في المدفأة على بعد أمتار قليلة من مرقده. كان وحده، هل قُبِضَ عليه؟ عليه ألا يتوقع أي رحمة إذًا، أين هم؟ ظهرت ذكرى عائلته في غيوم وعيه.. والده ووالدته وزوجته؛ طليقته الآن. بالكاد يتذكر تفاصيل طلاقهما لبضع ثوانٍ، ثم بزغت صورة الرسالة التي كتبتها له في ذهنه، فعاد بذكرياته إلى هناك مرة أخرى، وهو يحوم بطائرته في التدريب الأساسي، وشاهد نفسه يقرأها. ظهرت لمحات من حياته الماضية قبل أن ترتد عائدة إلى هاوية عقله. حاول أن يتذكر شيئًا عن الحاضر وعن مكانه الآن. شعوره بيدين على جسده، وأن هناك من يسحب جسده.. واتاه كل ذلك كذكريات طافية وليست ملموسة يمكنه أن يتشبث بها. كما لو كان يستشعر اللحظة، وربما يشمها ويلمسها، يتخيل أنه تجاوزها. حاول أن يرفع نفسه من على الزلاجة الخشبية التي كان راقدًا عليها، لكن جهوده راحت سدى. شعر بثقل شديد في جفونه.. وكأنها ألف طن. استرق لحظات نظر خلالها في أرجاء الغرفة قبل أن يستسلم ويغمض عينيه لنوبة نوم جديدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان ضوء النهار قد خفت عندما استيقظتْ في وقت مبكر من المساء، جلست في السرير تنهشها معدتها الفارغة، عضلات ذراعيها وكتفيها وظهرها مشدودة تئن؛ مثل قوقعة سلحفاة. دلكت بأصابعها في تلك الأماكن المتألمة من جسدها، حيث تلتقي العضلات بالعظام أعلى كتفيها، في محاولة يائسة للتخلص من الألم. كان باب غرفة المعيشة مواربًا. ألقت نظرة على الرجل فاقد الوعي هناك. جلست بلا حراك تنصت إلى أصوات غير موجودة. لا حركة إلا حركة الرياح عبر الأشجار في الخارج. فارقت الفراش ووقفت بجانبه، برغم أنها لم ترغب في مفارقته، راحت إلى خزانة الملابس وارتدت فستانًا رماديًّا بسيطًا. لسعت الأرض الباردة قدميها، فارتدت جوربًا صوفيًّا سميكًا قبل أن تدس قدميها في خف.

مشت على أطراف أصابعها، فهناك غريب في منزلها. أول ما رأته ساقيه وخشب الأشجار المقيد إلى الساقين يجبرهما. لا يصدر أي حركة، وعيناه مغمضتان. همست:

- مرحبًا، سيدي.. أستيقظتَ؟

لا رد.

أخذت نفسًا عميقًا في محاولة لإبطاء نبض قلبها المتسارع. تعرقت كفاها. شعره البني القصير ملطخ بالوحل ومبلل بالثلج. هناك خدوش في وجهه غير الحليق الذي تغطيه القذارة. لا يبدو أنه قد تحرك. مدت يدها تتحقق من نبضه.. ثابت ورتيب، سوف ينجو. ذهبت إلى المطبخ وعادت بكوب ماء قطرت منه بين شفتيه. ومرة أخرى، بدا أنه يبتلع بعضًا منه بكل صعوبة.

جثت بجانبه، وبدأت تفك الحبل أسفل الزلاجة والذي كان يثبته في مكانه.

فكرت في قطع الحبل لكنها فضلت عدم قطعه؛ قد تحتاجه مرة أخرى إذا تبين لها أنه لن يتعاون. سقط الحبل تحت الزلاجة، ونحت المظلة جانبًا. فكت ارتباط المظلة بكتفيه، ولم تجد صعوبة كبيرة في إزاحتها بعيدًا. ظلت مشكلة مصير المظلة قائمة. كان إخفاء مظلة حربية نوعًا من الأعمال التخريبية التي يمكن أن تؤدي بمرتكبها إلى السجن، أو ما هو أسوأ. كما أن حرقها سيؤدي إلى تصاعد غازات وأبخرة سامة.. رأت أن تتركها الآن، مكومة قرب الباب الخلفي.

سوف يحتاج إلى الراحة في الفراش. لا تزال الزلاجة - على الرغم من أنها تركت أثرًا من الأوساخ عندما أدخلتها المنزل - أفضل طريقة لتحريكه. نزلت على ركبتيها ووجهت الزلاجة نحو الغرفة الاحتياطية حيث كانت تنام هي و"فريدي" في ليالي الصيف عندما كانا طفلين، ظلت فارغة لسنوات. استلقى الرجل بلا حراك وهي تدفع الزلاجة إلى غرفة النوم. كان الباب مفتوحًا بالفعل، السرير مرتب، والغرفة نظيفة مهندمة. حاولت أن تتذكر آخر من نام فيها.. لا بد أنها كانت هي، أو ربما "فريدي". بإمكانها أن تتذكر والدها وهو يحمل "فريدي" إلى هنا، ولكن كان ذلك قبل سنوات من الحرب، قبل أن يعجز والدهما عن الاعتناء بـ"فريدي"، وقبل أن تتركهما. طردت الذكريات عن رأسها، مثل أوساخ تمسحها عن زجاج سيارة، وحاولت التركيز على مشكلات الحاضر. عادت إلى غرفة المعيشة لتحضر حقيبة ظهره. فيها ملابس مدنية نظيفة مطوية، لكن ليس فيها ما يمكن أن يرتديه لينام به، وهي بالتأكيد لن تتركه في المنزل بملابسه الداخلية. سوف تناسبه بعض ملابس والدها القديمة. وفي غضون دقائق، عثرت على منامة قديمة ورداء حمام قرمزي اللون. عادت ووضعت المنامة على السرير لكنها أبقت رداء الحمام بين يديها لبضع ثوانٍ، تتلمس نعومة الخامة بين أصابعها.. يحيط بها الماضي من كل جهة هنا، ليس هنالك من مفر.

الرجل متسخ ورائحته كريهة، في أمس الحاجة إلى الاستحمام، سيكون ذلك أسهل وهو لا يزال فاقدًا للوعي. مرت بيدها على الجبائر الخشنة التي صنعتها لإبقاء عظامه في مكانها. سيكون عليها استبدالها بأخرى جديدة. ليس عليها أن تخاطر بنقله إلى مستشفى أو حتى إحضار طبيب.. لا يمكنها أن تثق بأحد.

هل يمكنها أن تثق به؟ كانت قد استمعت إلى التقارير الإذاعية عن الحلفاء، ولكن يصعب عليها أن تصدق نظرة النازيين للأمريكيين وأنهم مجرد أجلاف غير متعلمين، وللبريطانيين وأنهم مخادعون، ولكنها لم تلتقِ قط جنديًّا من الحلفاء من قبل. عززت القصص الإخبارية والقصص التي لا تعد ولا تحصى مما سمعته على

مر السنين في ذهنها نظرة النازيين إلى الحلفاء. من المستحيل تجاهل كل ما رأته وسمعته، حتى مع عدم ثقتها في الحكومة ووسائل الإعلام التي تسيطر عليها. ورأت ما فعله الحلفاء بألمانيا.. لقد قصفوا مدنًا بسكانها بلا رحمة. من الصعب أن تعدُّهم منقذين، مهما حاولت ومهما كانت رغبتها في ذلك.

ارتجفت شفتاه، وتحركت عيناه مثل يرقتين تحت جفنيه المغمضتين. وقفت مرة أخرى في خوف، وهي تتوقع أن يفتحهما. لم تفكر حتى فيما ستقوله أو تفعله عندما يستيقظ. ولحسن حظها، جمد وجهه مرة أخرى، وتأجلت المواجهة.

دخلت "فرانكا" المطبخ. المنزل بارد. يمكن أن ينتظر "جراف"، أو أيًّا كان اسمه، حتى تشعل النار. أزالت بعض الرماد من الموقد، ودفعت قطع الأشجار المتفحمة بعيدًا بعصا حديدية لتذكية النار، الذي كان في هذا المنزل من قبل أن توجد هي. أشعلت عود ثقاب، فأنار الضوء المطبخ. دائمًا ما تستمتع كثيرًا بإشعال النار ومن ثم الوقوف لمراقبة قطع الحطب وهي تتأجج. انتابها شعور بالرضا وهي تتجه إلى خزانة المطبخ. لم يكن هناك الكثير من الطعام؛ فقط بعض علب حساء قديمة، المؤن التي كانت قد أحضرتها على وشك النفاد. والطرق المؤدية إلى البلدة مقطوعة لأيام؛ فلا نفع في سيارتها. راحت إلى خزانة الأدوية ووجدت عبوة أسبرين قديمة بها تسعة أقراص، سوف تكفي لمدة اثنتي عشرة ساعة تقريبًا. سوف تحتاج إلى دواء أكثر وأقوى من ذلك، خاصة إذا كان عليها تجبير ساقيه مرة أخرى. دست الأسبرين في جيبها.

تناولت أحد الكراسي الخشبية المتراصة حول منضدة قديمة في منتصف الغرفة.. سوف تفي بالغرض. رفعت الكرسي فوق رأسها قبل أن تهوي به بكل قوة على الأرض تحتها. ولكن الكرسي لم يتحطم. هزت رأسها وهي تسخر من نفسها. ذهبت إلى الحوض وأحضرت من أسفله مطرقة وعدة مفكات بأحجام مختلفة. وما هي إلا بضع دقائق حتى كانت لديها قطع الخشب المتينة، التي سوف تحتاجها لتجبير ساقيه بطريقة ناجحة ودائمة.

راحت إلى غرفة النوم. لم يتحرك الرجل. سبق لها أن تعاملت مع حالات كسور أسوأ من هذه، لكن ذلك كان في المستشفى. كيف تشفى عظامه بدون الجبائر؟ مسألة الحصول على الجبس وتثبيته بنفسها لم تقلقها بقدر ما يقلقها مَن سوف يشك في سبب شرائها الجبس. وببعض الحرص، قد تتمكن من شرائه وشراء الطعام والمورفين الذي تحتاجه. يبقى السؤال بشأن الطريقة التي سوف تصل بها إلى البلدة، وهو السؤال الذي تركته معلقًا حتى حين.

فكت كل الحبال التي تثبت الجبائر في مكانها ووضعت قطع الأشجار جانبًا. سوف يكون الجزء التالي من العمل صعبًا على الرجل، فاقدًا للوعي أم لا. عليها أن تخلع عنه السروال والحذاء المتسخين. شرعت تعمل، وهي ترمق وجهه بين لحظة وأخرى، مدركةً قدر الألم الذي تسببه له. حاولت أن تخلع الحذاء برفق. تحركت عظمة ساقه وصرخ. استغربت وهي تراقب ردة فعله. كانت قبلها تتعامل معه وكأنه دمية "ماريونيت" لن تتحرك. توقفت، وهي تتوقع أن يستيقظ، لكنه لم يفعل. سقط

الحذاء أرضًا، وحركت يديها تتحسس العظم. لقد تحرك، ولكن ليس كثيرًا، فأعادته إلى مكانه. سقط الحذاء على سجادة الأرضية بصوت مكتوم، أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تنتقل للساق الأخرى. لم ترغب في قطع أربطة الحذاء. كانت الأحذية لها قيمتها هذه الأيام. استغرق الأمر خمس دقائق قبل أن تخلع الحذاء. ساعدتها التجربة التي اكتسبتها من التعامل مع ساقه الأخرى في أن يصبح العمل أكثر سلاسة هذه المرة. خلعت الجورب بصعوبة وحذر تدريجيًّا، ليكشف عن كدمات وتورم في القدمين. وبالمقص الذي أحضرته من غرفة المعيشة، خلعت السروال، ليبقى الرجل فوق الزلاجة في ملابسه الداخلية.

وبالفعل، كانت قطع الكرسي جبيرة ممتازة لساقيه. خلعت سترة الطيار، وألقتها في ركن الغرفة، ثم خلعت القميص بالسهولة نفسها، وصار جاهزًا لأن تضعه في الفراش. راحت خلفه ورفعته من على الزلاجة. ومن حظها أن الفراش ليس مرتفعًا، فأسندت جسده إليه. سحبته فوق الفراش قبل أن تضع فوقه الأغطية النظيفة، وهي مدركة أنه لا يزال متسخًا. وقفت مرة أخرى تنظر إليه في انتصار مؤقت، وهي لا تزال لم تستوعب منظر هذا المجهول مستلقيًا على فراشها القديم في كوخ والدها الصيفي في قلب الجبال.

ارتاحت لكونه فاقدًا للوعي في أثناء الاستحمام. ليست هذه هي أول مرة تساعد فيها أحدًا حتى يستحم، لكنها أول مرة مع غريب نائم، وأول مرة خارج مستشفى. وعنصر الوقت مهم. آخر ما تريده هو أن يستيقظ بينما تنظف جسده، لا شيء أشد سوءًا من موقف كهذا. ابتسمت وهي تخاطبه:

- وقت الاستحمام عزيزي. كيف كان يومك؟ لن تصدق ما حدث لي في طريقي إلى المنزل من المستشفى.

حرصت على أن يكون حديثها همسًا حتى لا يستيقظ. وضعت حوض ماء كانت قد دفأته بجانب السرير وتناولت المنشفة. تحولت الأوساخ الجافة إلى طين سائل وهي ترش الماء من القماشة على وجهه. مسحته بقوة.

- وجدت رجلًا.. أجل.. رجلًا راقدًا وسط الثلج. يرتدي زي طياري النازي.

لم تتحدث إلى بشر منذ أيام. وأحبت التحدث بصوت عالٍ، حتى لو كان ذلك لشخص غريب فاقد للوعي.

- كلا، حبيبي، أنا جادة للغاية. أنت تعلم أنه لا يصح للزوجة الألمانية الصالحة أن تخدع وتسخر من زوجها، وخصوصًا بشأن جنودنا الشجعان الذين يخاطرون بحياتهم من أجل انتصار "الرايخ" المجيد على الجبهة الروسية.

وضعت يدها على وجهه النظيف الآن.

- ماذا؟ تريد أن تسمع الراديو؟ حسنًا، من واجبي كزوجة صالحة أن أطيع كل رغباتك.

ذهبت إلى غرفة المعيشة وأدارت الراديو الذي يعمل بالبطارية، تدفقت منه فوضى "البروباجاندا" المعتادة والأخبار الزائفة التي تلوثت بها موجات أثير المحطات الألمانية. لا تباع أجهزة الراديو إلا من قبل الحكومة التي حصرت ما يمكن للجهاز استقباله في المحطات المعتمدة من الحكومة، ولكن معظم الناس احتالوا حتى أمكن لأجهزتهم التقاط المحطات الأجنبية، وهكذا أمكن لها أن تصل إلى محطة سويسرية تبث أغنية جديدة لـ"تومي دورسي" وفرقته. وانتشرت إيقاعات الفرقة عبر الكوخ. توقفت تستمتع بالموسيقى، والمنشفة في يدها. لا يزال هناك أناس في مكان ما يؤلفون موسيقى كهذه، ولا يزالون يستمعون ويرقصون ويعيشون. وفجأة، شعرت بارتباط مرة أخرى بعالم كانت قد تخلت عنه.

أتمت تنظيف جسده في صمت، بينما استسلمت لنشوة الموسيقى.

وضعت الأسبرين على طاولة بجانب السرير مع كوب من الماء. غطته جيدًا، ووضعت زجاجات الماء الساخن عند قدميه. مَن هذا؟ لماذا هو هنا؟ كيف لها بحق السماء أن تحافظ على وجوده هنا سرًّا على مدار الأسابيع الستة أو أطول من ذلك؟ هل تحتاج تلك العظام إلى وقت أطول للشفاء؟ كيف سيكون رد فعله بمجرد أن يستيقظ؟

وقفت عند مدخل الغرفة، تحدق فيه لعدة دقائق، والموسيقى لا تزال في الأجواء، قبل أن تستسلم لآلام الجوع التي تطعن بطنها، قالت بصوت عالٍ:

- غدًا اليوم الموعود. غدًا أكتشف من تكون.

أخذت المفتاح من الباب وأغلقته خلفها.

طغى جوعها على احتياجها للاستحمام، فذهبت إلى خزانة المطبخ وأخرجت علبة حساء. سيكون طبق حساء مع الخبز وجبة رائعة، ولكنها تناولت آخر قطعة خبز مع الجبن الذي أحضرته في الليلة السابقة. كان من المفترض أن تكون وجبتها الأخيرة. جلست إلى الطاولة، محدقة في اللا شيء بينما يسخن الحساء على الموقد، وهي تفكر في كل ما سوف تحتاج إليه لتبقى هي والرجل على قيد الحياة خلال الشتاء. عليها أن تجد سبيلًا إلى "فرايبورج" حتى يتسنى لها إحضار الطعام والشاش والجبس الطبي والأسبرين والمورفين؛ إنها رحلة تقارب عشرة أميال ذهابًا ومثلها عودة. كانت ستقود سيارتها في الظروف العادية، لكن الطقس أخرج البساطة من المعادلة. نهضت وذهبت إلى الخزانة بالقرب من الباب الخلفي. كانت زلاجتها القديمة في داخلها، خلف بعض المعاطف الشتوية القديمة وقطع أخرى من الخردة المتنوعة التي تراكمت على مر السنين. لقد مر أكثر من عقد منذ أن استخدمتها، منذ أن كانت مراهقة، عندما كانت والدتها لا تزال على قيد الحياة وكانوا يأتون إلى هنا كل شتاء. تناولتها وشعرت بثقلها في يديها. يبدو أنه ليس لديها خيار آخر. أخذت الزلاجات تحت ذراعها وعادت إلى المطبخ. صار الحساء جاهزًا، وصبته في طبق، تناولته في ثوانٍ. الواضح أنه لم يشبعها، بل أيقظ جوعها؛ أعدت طبقًا آخر، وهي تعد نفسها بأن تعوض النقص في علب الحساء عندما تذهب إلى "فرايبورج".

أشبعتها علبة الحساء الثانية، لكنها لم تكن قد تخلصت بعد من القذارة والعرق العالقين بجسدها. بدت لها فكرة تسخين كل الماء الذي تحتاجه على الموقد مبالغًا فيها، ولكن رائحة جسدها الكريهة كانت دافعًا كافيًا. وضعت الغلاية ووعاءين كبيرين من الماء على الموقد وجلست تنتظر غليانها. أغلقت الباب حتى تخلع ملابسها، ففي البيت رجل غريب، حتى وإن كان مشلولًا وفاقدًا للوعي. خرجت وهي ترتدي رداء الحمام، وأغلقت باب الحمام خلفها. أشاع ضوء الشموع في الغرفة جوًّا من الاسترخاء، ولكن قلة المياه لم تعزز تلك الأجواء. وتحول الحمام الرائع الذي كانت تحلم به إلى مجرد جلوس مضطرب في حوض الاستحمام والاكتفاء بتنظيف جسدها جيدًا.

انقضَّت عليها البرودة خارج الحمام ما إن خرجت مبتلة الجسد، تناولت المنشفة وجففت جسدها بأقصى قوة ممكنة حتى تبعث الدفء فيه. راحت إلى المرآة، لم تنظر إلى نفسها منذ أيام. كان شعرها الأشقر بطول كتفيها منسدلًا مبتلًا، ملتصقًا برقبتها. عيناها الزرقاوان محمرتان، وهناك هالات كبيرة داكنة تحتهما. مشطت شعرها، وهي تتألم كلما صادف المشط صعوبة في تخليص خصلات شعرها من بعضها بعضًا.

فكرت في "بيركل" وتذكرت ابنه، ذلك الوسيم المنتمي إلى شباب "هتلر"، الذي أحبته خلال فترة وجودها في رابطة فتيات ألمانيا، التنظيم الأنثوي المعادل لشباب "هتلر". انضمت إليه كل فتاة تعرفها، بعد أن أصبح حصن الأمان، فمن لا ينضم لهذين التنظيمين يوصم بأنه إما ضعيف أو مغرور أو متمارض.. وهو ما يعني في كل الأحوال أن يكون منبوذًا.

عاودتها البارانويا من جديد. كيف تتيقن من أن "بيركل" لم يرهما؟ ربما رآهما وأبلغ "الجيستابو" عنهما بالفعل. بدا الأمر مستبعدًا، ولكن لا مجال للخطأ خاصة عندما لا يمكن الوثوق بأحد.

استقر الليل، وأضاءت الشموع في المطبخ وغرفة النوم، وكذلك مصباح الزيت في غرفة المعيشة. اختلست نظرة إلى الرجل فوجدته لا يزال نائمًا. ذهبت إلى غرفة نومها مرة أخرى، وعلى الرغم من أن جسدها كان يتوق إلى النوم، فإنها لم تستطع الاستسلام له.. ليس الآن. ارتدت ملابسها مرة أخرى. يمكن أن يأتي "الجيستابو" في أي وقت. والرجل الذي معها بمنزلة هدف مكشوف. وحتى إخفائه في الخزانة لن يطيل سوى ثوانٍ من الوقت الذي سيستغرقونه في العثور عليه، كما أنه مصاب إلى حد لا يمكنه من الاختباء في الخارج حيث برد الشتاء القارس. تخيلت سيناريوهات مرعبة، برغم أن كل منها واقعي ويمكن أن يحدث، وعادت إلى الغرفة حيث يرقد. ليس في أمان، حتى هنا في الأعلى، خاصة إذا كان عليها الذهاب إلى المدينة. زي الطيار لا يزال ملقى في الركن. إذا كان بالفعل طيارًا، فسوف يكون عليها إعادة الزي إليه. أما مع السيناريو الأكثر ترجيحًا؛ أي إنه بريطاني أو أمريكي، فإن وجود هذا الزي يعني إعدامه كونه جاسوسًا. لذا، كان لا بد من إخفائه، ولكن أين؟

وبينما تمشي في الغرفة، سمعت صوتًا خشبيًّا أجوف في ألواح الأرضية. راحت تحضر صندوق الأدوات من المطبخ، ثم عادت إلى الغرفة، وسحبت البساط، لتكشف الشرائح الخشبية الموجودة أسفله. إذا رفعت الألواح، يمكنها أن تصنع مخبأ عمليًّا، ولكن عليها في البداية تحريك السرير. وهكذا، أخذت تدفع السرير عبر الغرفة، والرجل لا يزال نائمًا عليه.

غرست بقوة أسنان المطرقة في الفراغ الموجود في نهاية لوح الأرضية الطويل، ثم قامت بجذبه بزاوية إلى الخلف وإلى أعلى. بعد بضع دقائق من الصراع معه، انخلع اللوح العنيد. رفعته بيديها، وقد ارتدت قفازًا الآن، وأسندته إلى الحائط، لتكشف عن عمق قدمين بالأسفل. كانت مساحة قذرة وباردة، ولكنها ستؤدي المهمة بشكل جيد مع القليل من التنظيف وبعض البطانيات. شرعت في العمل على لوح الأرضية التالي، متسائلة عن عدد الألواح التي سيتعين عليها رفعها لتناسب المساحة التي يحتاجها. كلما كان عدد الألواح أقل، كان ذلك أفضل؛ يجب أن يكون كل شيء طبيعيًّا قدر الإمكان.

انتبهت على صوت سعاله المباغت، فجفلت وسقطت المطرقة من يدها في الفجوة التي صنعتها. وقفت متسمرة في مكانها، بينما يفتح الرجل عينيه.

اعتدل في الفراش، وعلى وجهه علامات آلام رهيبة يعانيها. أغمض عينيه، قبل أن يفتحهما مرة أخرى، واستدار إلى حيث كانت تقف صامتة. الألم والارتباك مثّلا ضبابًا على عينيه.

- من أنتِ؟ ولماذا أتيتِ بي إلى هنا؟

أتاها صوته بلغة ألمانية واضحة..

واضحة للغاية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

لكنته مراوغة، فلم تعرف منها منطقته الأم.

تعرف البرليني من لكنته القاسية، وفي لكنة الرجل بعض سمات مميزة منها، ولكنها شعرت أنه ليس من برلين.. من الصعب شرح أسباب ذلك، فهي مثل محاولة وصف رقصة لكفيف. كان جالسًا إلى السرير وفي عينيه فضول. مرت عدة ثوانٍ منذ أن سألها، فكانت كلماته لا تزال معلقة مثل الدخان في الهواء. وبزغت آلاف الأفكار في عقلها، لكنها عجزت تمامًا عن الإمساك بأي منها. تقدمت إلى الأمام، وذراعاها ممدودتان، ويداها مرفوعتان كما لو كانت تدافع عن نفسها.

- أنا في صفك.

لم يجبها، وبدا أنه يريد أن يسمع المزيد.

- عثرت عليك وسط الثلوج. كنت فاقدًا للوعي. والألم الذي تشعر به بسبب كسور في ساقيك.

مرت يدا الرجل على الخشب الذي يجبرهما، فعاوده الألم مجددًا.

- اسمي "فرانكا جربر". أتيت بك إلى هنا. ليس هنا سوانا. وأقرب قرية على بعد أميال.

- أين نحن؟

- على بعد نحو عشرة أميال من "فرايبورج"، وسط جبال الغابة السوداء.

وضع الرجل يده على جبهته. بدأ أنه يخرج من حالة الارتباك، وأصبح يتحدث ببعض الوضوح الآن.

- أنتِ مع الشرطة؟

- كلا، أبدًا.

- هل تتعاونين مع "الجيستابو"، أو قوى الأمن؟

- أبدًا.. أبدًا.. وليس لديَّ تليفون. عثرت عليك فأحضرتك إلى هنا.

خرجت الكلمات من فمها متعثرة، ترتجف يداها إلى جوار جسدها، حاولت إخفاء تلك الارتجافة وراء ظهرها. ضاقت عينا الرجل، وهو يقول لها:

- اسمي "هاوبتمان فيرنر جراف"، طيار في الجيش الألماني.

- رأيت زيك الرسمي.

- ولماذا أتيتِ بي إلى هنا؟

- عثرت عليك ليلة أمس. كنا بعيدين جدًّا عن أي سبيل لطلب مساعدة طبية. لم يكن لديَّ خيار آخر.

- أشكرك على إنقاذ حياتي، فرويلاين (آنسة) "جربر". هل لكِ صلة بالجيش؟

- كلا، أنا ممرضة.. كنت ممرضة.

حاول الرجل تحريك ساقيه، بدا الألم على وجهه، فاقتربت منه مرة أخرى.

- ارقد، هير (سيد) "جراف".. أعلم أنك تعاني.

استغربت نفسها وهي تناديه باسم تعرف أنه ليس اسمه. بحثت حولها عن أقراص الأسبرين، لن يكون لها من تأثير قوي على آلامه، ولكن أي نوع من الراحة سيساعده على أن ينام مجددًا. كانت الأقراص على منضدة الفراش، التي كانت قد رفعتها من مكانها عندما صنعت تلك الفجوة تحت الفراش. رمق الرجل أسفل الفراش، فبادرها:

- ما الذي يجري هنا؟ ما الذي تخططين للقيام به؟

- إنها بعض الإصلاحات. لا تشغل بالك بها.

أخرجت ثلاثة أقراص وقربتها من فمه. نظر إليها ثم رفع عينيه إلى عينيها في تساؤل.

- مجرد أسبرين. تأثيره ليس بالقوي، ولكنه سيساعدك على أن تتعافى.

ترى الألم في عينيه، ممتزجًا بالخوف والارتباك، برغم أنه يبذل جهدًا ليخفي تلك المشاعر عنها. مد يده، فوضعت الأقراص فيها. ناولته الماء، فابتلع الأقراص ومعها كل الماء في الكوب.

- هل تريد المزيد من الماء؟

- أرجوكِ.

أسرعت إلى المطبخ، ورمقت حقيبته على أرضية غرفة المعيشة في أثناء مرورها. المسدسان في الحقيبة، ومسدس والدها في درج منضدة الخزانة بجانب الباب الأمامي. عندما عادت، كان يحاول النهوض من السرير، ووجهه يتصبب عرقًا ويتأوه في معاناة.

- كلا، أرجوك.. ارقد ثانيةً. ما من شيء لتخشاه. أنا أحميك.

ناولته الماء، فجرعه في ثوانٍ. بقي جالسًا في الفراش. عقد ذراعيه أمام صدره وهي تتحدث. كأنه يركز في كل كلمة تقولها.

- ارقد في الفراش. لا نية لنقلك إلى أي مكان؛ الطرق مغلقة، وساقاك مكسورتان.. كلانا محبوس هنا، وعلينا أن نثق في بعضنا بعضًا.

- من أنتِ؟

- أنا من هذه المنطقة. نشأت في "فرايبورج". وهذا منزل العائلة الصيفي.

- أنتِ هنا وحدك؟

- أنت معي. ما الذي كنت تفعله هناك وسط الثلوج؟ مظلتك لديَّ.

- لا يمكنني التحدث في ذلك الأمر.. معلومات سرية. ولو كنت وقعت في أسر الحلفاء، لأضر ذلك كثيرًا بجهودنا في الحرب.

- لا بأس، فأنت لا تزال في أرض الوطن، في أمان. الحلفاء على بعد مئات الأميال من هنا.

أطرق الرجل رأسه، فقالت:

- لا بد أنك جائع. سأحضر بعض الطعام.

- أجل، من فضلك.

- حسنًا هير "جراف".

عادت إلى المطبخ. يداها ترتعشان وهي تمد يدًا إلى آخر علبة حساء في الخزانة. من الصعب عليها أن تدير هذا الموقف من الآن فصاعدًا. قد تكون محاولة إخراجه من الدور الذي يحاول تقمصه وإظهار شخصيته الحقيقية خطيرة للغاية، لكن عليها أن تطمئنه إلى أنه يمكن أن يثق بها. همست لنفسها: "الثقة تحتاج وقتًا. وهي لن تتحقق الليلة".

عادت إليه بعد أن تركت الحساء يسخن على الموقد. جفل لما ظهرت أمامه.

- كل شيء جيد؟

- بالفعل، أشكرك. لكن الألم في ساقيَّ عنيف.

- أتفهم هذا، وآسفة عليه. سأحاول جلب المزيد من المسكنات لأجلك في الغد. حذاؤك عندي، ولكن كان عليَّ تمزيق سروالك عن ساقيك. وحقيبتك عندي أيضًا. كان فيها ملابس تخصك.

أومأ برأسه، وهو لا يدري ما عليه أن يقوله، ولكنه أجابها بعد لحظات:

- أشكرك على رعايتك لي.

رمق النافذة، ثم نظر إليها.

- لقد جبرت العظام، ولكننا بحاجة إلى الجبس حتى تلتئم على نحو سليم.

- بالتأكيد.. أشكرك.. فرويلاين "جربر". افعلي ما ترينه الصواب.

استرخى في الفراش.

- سأعود خلال ثوانٍ.

كان الحساء جاهزًا، صبته في وعاء. عادت إلى الغرفة، حيث كان يحدق في السقف. جلس وهي تضع الصينية أمامه. التهم الحساء بسرعة أكبر مما فعلت هي من قبل. رفعت الصينية، وهي تتمنى لو كان هناك خبز تطعمه إياه.

- أنت بحاجة إلى الراحة الآن.

- أود أن أسألك عن أشياء.

- بوسع الأسئلة أن تنتظر.

- هل أخبرتِ أحدًا عن وجودي هنا؟ أي شخص؟

- لم أتحدث إلى أي شخص منذ أيام.. من قبل أن أجدك، وليس لدينا تليفون هنا كما أخبرتك. ولا توجد حتى خدمة بريد. سأضطر للذهاب إلى المدينة للحصول على أي رسائل إذا كان أي شخص يعرف أنني هنا. لكن أحدًا لا يعرف.. نحن وحدنا، وقد أحضرتك إلى هنا حتى تستعيد عافيتك.

- وأنا ممتن لذلك، ولكن من المهم أن أذهب في أسرع وقت ممكن.

- لن تذهب إلى أي مكان على قدميك لعدة أسابيع من الآن. بمجرد أن تفتح الطرق مرة أخرى، يمكننا أن نبحث عن سيارة تأخذك إلى المدينة، ولكن حتى ذلك الحين، تظل عالقًا هنا معي. عليك أن تقبل ذلك وأن تدرك أيضًا أنه يمكنك الوثوق بي.. أنا هنا للتأكد من أنك تتحسن.

- كل الشكر، فرويلاين.

لم تعكس نبرته أي امتنان صادق، كأنه يقرأ من ورقة وبصوت مثل الآلة.

- لا عليك، كان من الصعب عليَّ أن أتركك هناك حتى تموت متجمدًا. أهم شيء الآن أن تستريح.

شعرت أن كلماتها خرجت بدورها مثل قطع حطب متجمدة. كأنهما ممثلان فاشلان على خشبة مسرح مهجور.

أومأ الرجل برأسه واستلقى، كان الألم واضحًا على وجهه. تناولت "فرانكا" الشمعة على طاولة السرير وأطفأتها بإصبعين مبللين. أغلقت الباب خلفها، وأحكمت إغلاقه بالمفتاح، مدركة أنه لا بد أنه سمعها تفعل ذلك، ولكن الرجل لم يحتج.

كانت النار في غرفة المعيشة تحتضر، لذا أضافت المزيد من الحطب، ووقفت مرة أخرى تتأملها مشتعلة. شعرت وكأنها وحيدة في قفص مع حيوان جريح وغير متأكدة مما قد يفعله. كانت ساقاه المكسورتان هي الضمان الوحيد لسلامتها؛ فما دام لا يستطيع التحرك من ذلك السرير فإنه لا يستطيع أن يؤذيها.. خاصة بدون سلاح. من المهم أن يفهم أنها لا تضمر له أي ضرر، ولكن من المهم أيضًا أن يعرف أنها المتحكمة في الموقف. لن تخضع لأهواء أي مستبد، سواءً أكان الرجل من النازيين أو من جنود الحلفاء. ستبقيه هنا في مأمن من "الجيستابو". وسيكون هذا هو آخر تحدٍ لها ضدهم قبل أن تلحق بـ"هانز" والآخرين.

يتألم جسدها كله الآن، وتتوق إلى النوم. ذهبت إلى غرفة نومها. كانت عادةً تترك الباب مفتوحًا ليجتذب بعضًا من دفء غرفة المعيشة، لكنها أغلقت الباب خلفها هذه المرة.

راحت إلى النافذة. ليلة هادئة وصافية، والنجوم في الخارج تتألق مثل ضوء يتسلل عبر خيوط مخمل أسود. قد يكون الطقس غدًا جيدًا بما يسمح لها بالذهاب إلى المدينة. ستكون الدروب واضحة. تلك رحلة كانت تستمتع بها قبل عشر سنوات. بدا لها ذلك الزمن الآن وكأنه عالم مختلف، تراكمت عليها مآسٍ كثيرة منذ ذلك الحين.

تناولت "فرانكا" زجاجة ماء ساخن من الخزانة، ومعها توالت ذكريات شبابها؛ الليالي التي استدفأت خلالها بالبطانيات الوثيرة، وعيناها تنعسان بينما تغني لها أمها لتنام.

لم تكن تنوي أبدًا البقاء هنا هذه المدة الطويلة؛ هنا الكثير من أشباح الماضي، لكن الآن لم يكن لديها الكثير من الخيارات.. مغادرتها الكوخ تعني تركه لمصيره مع "الجيستابو". أخذت زجاجة إلى المطبخ وسكبت فيها الماء ما إن سخنته. شعور مريح والماء الساخن بين يديها، وكأنه يعيد لها الحياة. احتضنت الزجاجة، وشعرت بالدفء في صدرها، قبل أن تعود إلى غرفة النوم. هل يمكن أن يكون ألمانيًّا حقًّا؟ لماذا قال تلك الكلمات الإنجليزية في نومه؟ ربما كان سبب كل هذا أبسط مما توقعته، ويمكنها أن تنقله إلى المستشفى المحلي عندما تُفتح الطرق في غضون أيام قليلة. ربما لم تسمعه يتحدث في أثناء نومه. لم تكن تتحدث الإنجليزية ولم تسمع سوى بضع كلمات من قبل. ربما لم يقل أي شيء على الإطلاق. ربما كان حقًّا "هاوبتمان فيرنر جراف" من سلاح الجو الألماني. شعرت "فرانكا" بانقباض قلبها لمجرد فكرة أن يكون ليس كما تظن، وأنه واحد منهم. هل هو طيار حربي بالفعل؟ لقد شاهدت الأفلام الدعائية التي تظهر الأجانب يأتون للانضمام إلى "الرايخ" الألماني المجيد.. بدا الأمر مستبعدًا. فإذا كان الأمر كذلك، فسوف تسلمه إلى السلطات بمجرد وصولها، وهذا ما سوف تفعله.

أظلمت غرفة النوم عندما أطفأت مصباح الزيت بجانب فراشها. لا، لقد قال تلك الكلمات الإنجليزية. سمعتها بوضوح، لا تزال تسمعها، ولا تزال ترددها بلسانها. هو ليس "هاوبتمان فيرنر جراف" من سلاح الجو الألماني.. لماذا إذًا سقط وسط الثلوج في جبال الغابة السوداء؟ لا يمكن أن يكون قد مضى عليه هناك أكثر من بضع دقائق عندما وجدته؛ وإلا لكانت قد صادفت جثة. إذا كان جاسوسًا أو أسير حرب، فإن عقوبة مساعدته هي الموت.. يمكنها التعامل مع تلك الحقيقة. لا يمكن للنازيين أن يسلبوها أي شيء الآن. بعدما لم يعد هناك أي شيء لديها لم يسلبوه.

تقلبت "فرانكا" في الفراش، وجذبت البطانيات الثقيلة، فلم يعد يظهر سوى وجهها. تحت بطانيات الفراش المكان الدافئ الوحيد في المنزل باستثناء قرب المدفأة. وليس لدى الرجل سوى بطانية واحدة فقط، والفتحة التي أحدثتها في الأرض ستسمح بدخول تيار هوائي في غرفته. نهضت من السرير، وتناولت مفتاح باب غرفة نوم الرجل. ارتدت رداء النوم ومعطفًا فوقه قبل أن تخرج. يسود السكون أرجاء المنزل. فتحت الباب، ووضعت يدها على المقبض، وطرقت بيدها الأخرى وهي تفتحه، همست:

- مرحبًا، هل أنت مستيقظ هير "جراف"؟

كان راقدًا في الفراش، ولكنها رأت عينيه المفتوحتين. ظنت للحظة مرعبة أنه قد مات، ولكنه التفت نحوها.

- أنا مستيقظ، فرويلاين.

- هل تشعر بالدفء بشكل كافٍ؟

- أنا بخير، أشكرك.

لكنها وجدت أن الجو في غرفته أبرد من غرفتها، ولم يكن لديه الكثير من البطانيات، كما أنها تركت الستائر مفتوحة، وضوء القمر يغمر الغرفة. ترى ملامح وجهه في ضوء القمر. تناولت يده. لم تكن تنوي أن تلمسه، ولكنها أرادت أن تتأكد من أنها ليست باردة. تسمرت عيناه عليها.

- أنت تشعر ببرد شديد. لماذا لم تطلب مني بطانية أخرى؟

- لم أرغب في أن أسبب لكِ المزيد من المتاعب.

- ولكن لا داعي لهذه المعاناة، بينما هناك بطانيات كفاية في الخزانة.

راحت إلى الخزانة، وأخرجت منها بطانية ثقيلة وبسطتها فوقه.

- هذه ستدفئك.

استمر يحدق فيها، بينما تراجعت عنه خطوات.

- سوف أذهب إلى البلدة غدًا. الطرق مغلقة، ولكننا بحاجة إلى الطعام كما أنني أعرف أنك ستعاني ألمًا شديدًا ما إن ينتهي مفعول المسكنات.. واضح أن اصطحابك معي مستحيل، ولكن بوسعي أن أبلغ "الجيستابو" عن وجودك هنا، إن شئت ذلك.

- هذا ليس ضروريًّا، فرويلاين. لا يشغلني أمر الشرطة المحلية. وكما أخبرتك، فإنني في مهمة حربية حساسة. ولن يكون من الحكمة أن يعرف أحد بوجودي في هذه المنطقة حاليًا.

- أنت لا تريد مني أن أعرِّف أي أحد بوجودك هنا؟ ولكن بمقدورهم إبلاغ سلاح الجو، وقائدك الذي أرسلك بالطائرة في هذه المهمة.

- لا ضرورة لذلك. سوف أرحل ما إن تفتح الطرق. وسأبقى حتى ذاك الحين ضيفًا عليكِ بكل امتنان.

تساءلت "فرانكا" إن كان يعرف المدة التي سوف تحتاجها ساقاه حتى تشفيا، أم أنه يتعمد أن يبدو جاهلًا أمامها. ولكنها متيقنة من أمر بعينه الآن.. أنه ليس طيارًا يتحدث الإنجليزية في سلاح الجو الألماني.

- كما ترغب.

- فرويلاين.. كيف أمكن لكِ إحضاري حتى هنا؟

- سحبتك على زلاجة.

- سحبتني إلى هنا وأنا فاقد الوعي؟

اتسعت عيناه وسط الظلام. وتشابكت أصابع يديه أمامه وكأنه يصلي.

- أنتِ إنسانة رائعة! مدين لكِ مدى الحياة.

- عليك أن تنام الآن. هل هناك أي شيء تحتاجه؟

- وعاء أتبول فيه؟ إن دعتني الحاجة إلى ذلك.

- بالتأكيد.

راحت إلى المطبخ. وجدت دلوًا يفي بالغرض، وأخذته إليه. تبسم لها شاكرًا. أغلقت "فرانكا" الباب خلفها، ثم أحكمت إغلاقه بالمفتاح. قررت ألا تستخدم الاسم "فيرنر جراف" بعد الآن، حتى لا تشعر أنه يخدعه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استيقظت "فرانكا" مع الفجر. نامت في تلك الليلة نومًا أعمق مما نامته لعدة أشهر. وجود الرجل في المنزل أضعف بطريقة ما من وطأة الذكريات التي كانت تنهشها في الظلام. هيمنة الذكريات أسوأ دائمًا في الليل، وأصبح النوم معها عذابًا. هناك راحة من وجوده هنا، وشعرت بها. فعلت الكثير من أجله، وكذلك فعل هو من أجلها؛ هو أول مَن خطر ببالها عندما فتحت عينيها. تساءلت عما إذا كان قد نام، وما إذا كان يعاني الألم. تساءلت عما إذا كانت عظامه لا تزال مثبتة بشكل صحيح بالجبائر التي صنعتها، ومتى ستعرف حقيقة أمره. أرضية الغرفة باردة مثل الجليد، فتشت عن الخف، ثم دست فيه قدميها قبل أن تغامر بالذهاب إلى النافذة. أزاحت الستائر لتكشف عن شمس الشتاء في سماء زرقاء صافية. الثلج كما كان في الليلة السابقة. تسللت الشكوك إليها.. هل عليها فعلًا أن تقوم بهذه الرحلة إلى البلدة اليوم؟ هل تستطيع الانتظار؟ لم يتبقَ لديهما سوى القليل من الطعام، ولا يمكن أن تتركه يرقد في بؤس وألم حتى تفتح الطرق مرة أخرى.. مَن يعلم متى سيكون ذلك؟ كانت الطرق من قبل تغلق لأسابيع، على الرغم من أن ذلك لم يعد الحال في ظل كفاءة النازيين التي تصل إلى حد الوحشية. إذًا ستذهب إلى المدينة اليوم.. إلى "فرايبورج". سوف تجد الإمدادات التي تحتاجها هناك، وليس هناك من أحد يبحث عنها، ولم يكن هناك من أحد تختبئ منه.

ذهبت "فرانكا" إلى غرفته ووضعت أذنها على الباب. لم يكن هناك صوت في الداخل، فراحت إلى المطبخ. الزلاجات لا تزال على الحائط حيث تركتها في الليلة السابقة. عليها أن تتزلج مسافة عشرة أميال، وهي مهمة سخيفة لا سيما أنها لم تمارس التزلج لسنوات. عليها أن تتزلج لميلين حتى تصل إلى الطريق الرئيسة المؤدية إلى "فرايبورج"، وكانت واثقة من قدرتها على الوصول إلى المدينة من هناك. وضعت المزيد من الحطب في مواقد كل من غرفة المعيشة والمطبخ. سوف تخمد النار قبل أن تعود بفترة، لكنها ستوفر بعض الدفء للمكان في أثناء غيابها.

مرت أيام قليلة على آخر مرة كانت فيها في "فرايبورج"، ولكنها تبدو الآن مثل سنوات؛ هي شخص مختلف الآن. كانت الأيام القليلة التي أمضتها في المدينة الأسبوع الماضي ضبابية. أغمضت عينيها محاولةً أن تنسى.

فتحت "فرانكا" باب غرفته، وهي تنصت إلى أي صوت.. الغرفة مظلمة، والستائر مسدلة، والحفرة في الأرض على حالها، وهو راقد في الفراش نائم. لم يبدُ أنه تحرك منذ الليلة الماضية. تساءلت عما إذا كان يجب أن توقظه لكنها قررت ألا تفعل. ذهبت إلى المكتب في غرفة المعيشة وتناولت ورقة وقلمًا.

"ذاهبة إلى البلدة لإحضار بعض المؤن كما أخبرتك ليلة أمس. لن أغيب أكثر من بضع ساعات. أرجو أن تبقى في الفراش حتى أعود.

فرانكا جربر.."

فكرت في أن تكتب "فرويلاين جربر"، ولكنها وجدت أن عليها أن تعاود كتابة الرسالة بأكملها من جديد. كان لا يزال نائمًا عندما عادت إلى غرفته. ماذا لو كان هذا الرجل أسير حرب؟ ماذا لو؟ هل يمكن أن تبقيه هنا لبقية الحرب؟ ومع هبوط الحلفاء في إيطاليا قبل بضعة أشهر، وكارثة "ستالينجراد"، بدت الهزيمة النهائية لـ"الرايخ" ممكنة.. أخيرًا. لكنها ليست وشيكة بعد. لا يزال النازي يحتفظ بقبضة حديدية على معظم أوروبا، ناهيك عن ألمانيا نفسها.. فهل يمكن أن تخفيه هنا لأشهر أو حتى سنوات؟

"خطوة خطوة يا فرانكا. نحضر للرجل المسكنات، وبعض الطعام، ومن ثم نفكر فيما هو قادم".

وضعت الرسالة وكوبًا من الماء على المنضدة بجانب السرير. زجاجة الأسبرين فارغة، بعد أن تناول آخر أقراصها في الليل. سوف يكون ثقل ألمه كاملًا في انتظاره بمجرد أن يستيقظ. أغمضت عينيها وهي تتناول الزجاجة الفارغة، وتتنفس بقوة.. لم يكن هناك المزيد للقيام به هنا. أغلقت "فرانكا" الباب خلفها.

لم تنخدع بضوء الشمس الساطع عبر النوافذ ولم يبعث فيها أي آمال زائفة بالدفء. ارتدت معطفها الشتوي وقبعتها وقفازها، أخذت الزلاجات واستقبلت الصباح في الخارج. تحمي نظارة الشمس عينيها من أشعة الشمس. دست قدميها في الزلاجات، التي لا تزال مناسبة تمامًا. شعرت وكأنها تخطو إلى الماضي.

كان الأفق صافيًا، لا يقطعه سوى بساط من الأشجار المتوجة بالثلج فوق التلال المحيطة. الثلج من حولها أبيض بريء، وكان من شأنه أن يضفي جمالًا على أي منظر طبيعي، ناهيك عن مشهد مذهل بطبيعته مثل هذا. متى كانت آخر مرة لاحظت فيها ذلك حقًّا؟ هل كان الظلام الذي غمرها يحجب كل شيء آخر عنها؟ زادت سرعتها، وشعرت بالدوار الذي اعتقدت أنها لن تشعر به مرة أخرى. تلاشى الكوخ من خلفها، على البعد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تقترب الأرض نحوه في سرعة هائلة، وأعدم اندفاع الهواء الشديد حواسه. مد يده إلى مظلة لم تكن في مكانها. توقفت الأرض تحته، وتحولت إلى الحقل خلف منزل والديه. وفجأة، كان على الأرض، يتدحرج فوق نعومة العشب، وبينما كان يحاول التحرك، شعر بالألم. اهتز مستيقظًا على صوت إغلاق الباب. عضَّ على شفته، وكوَّر قبضتيه بينما اعترته موجة من الألم. كافح ليصدها، وأخذ نفسًا عميقًا من أنفه. فتح عينيه مرة أخرى. مرت عدة دقائق، والعرق يتصبب على جبينه. لمح الرسالة على المنضدة. انقضت عليه الأسئلة بأسرع مما يستطيع التفكير فيها. يكاد الألم يحرق عقله. مَن هي؟ هل هذه مؤامرة من "الجيستابو" لكسب ثقته، لحمله على الكشف عن الطبيعة الحقيقية لمهمته؟ قالت هذه المرأة إنهما على بعد عشرة أميال خارج "فرايبورج". حاول أن يتذكر بالضبط طبيعة هذا الموقع، ومدى بعده عن هدفه. الغابة السوداء.. لقد هبط في الغابة السوداء. يجب أن يكونوا قد رؤوا مظلته. وهذه المرأة تعمل مع "الجيستابو". كيف استطاعت جلبه إلى هنا بنفسها؟ لا يبدو ذلك ممكنًا، يجب أن يكون هناك مَن ساعدها، لم يصدق حكايتها تمامًا. ظهر وجهها في مخيلته، جميلة مثل خنجر ذي مقبض لؤلؤي. تفقد جسده بحثًا عن جروح. رأسه يؤلمه، وبخلاف ذلك، وبخلاف ساقيه بالطبع، بدا أنه بخير. لا بد أنها ذهبت تطلب المساعدة. ومن المحتمل أن يكونوا هنا في غضون دقائق.

مد يده ليلمس الجبائر الخشبية على ساقيه. بدت مهلهلة ولن تمنعه من مفارقة هذا السرير، لكن ربما كانت هذه هي خطتها بالفعل. كان يرتدي منامة، وحقيبته ليست بقربه، وزيه العسكري في ركن الغرفة. اعتدل في الفراش، محاولًا أن ينظر من النافذة عبر فرجة في الستائر. لم يرَ شيئًا سوى بياض الثلج. هو بحاجة إلى خطة. الخطوة الأولى: اخرج من هنا. ولكن كيف؟ السرير في جانب من غرفة النوم. النافذة على بعد نحو ثمانية أقدام عبر الغرفة، ولكنها تبدو له مثل ميل. أخذ رشفة أخرى من الماء قبل القيام بالجزء الصعب. شعر بما يشبه تسونامي من الألم في ساقيه وهو يحاول النزول من السرير. غطى فمه ليكتم صراخه. الجو بارد للغاية في الغرفة، ورغم ذلك فهو يشعر بعرق خفيف ينساب على ظهره. استلقى وأخذ أنفاسه بقوة. كان الصمت يسود الكوخ.

دقت الساعة.. تسع دقات. أعاده الصوت إلى واقعه، ووجد القوة ليجلس مرة أخرى. ببطء، واصل إنزال ساقيه من السرير، وهو يحمل ثقل جسده بين ذراعيه ويزفر أنفاسه العميقة عبر فمه.

"تحكم في الألم"، قالها بالألمانية. وتأكد من تنفيذه لذلك. أي زلة الآن ستكون قاتلة. حافظ على غطاء مهمتك..

"يمكنك أن تفعلها".

تتدلى ساقاه عديمتا الفائدة من جانب السرير، وهو جالس الآن، مواجهًا للنافذة. نظر إلى ألواح الأرضية المفقودة التي خبأتها المرأة. ماذا كانت تفعل؟ هل كانت تحاول أن تصعب عليه الوصول إلى النافذة؟ مسح الغرفة بعينيه. لم يكن هناك أي شيء

بينه وبين النافذة، ولا شيء يمكن أن يقف عليه عند وصوله إلى هناك. ربما يكون الزحف إلى الباب هو خياره الأفضل.

أجبر جسده على الاعتدال نحو مدخل الغرفة قبل أن يلقي به أرضًا. أحرقه الألم، لكنه صرَّ أسنانه حتى لا يصرخ، وأسند ثقله على راحة يديه قدر استطاعته. استعان بذراعيه لشد جسده، وجر ساقيه خلفه وهو يزحف نحو الباب. وصل إلى مقبضه. وجده مغلقًا بالمفتاح، ولكنه كان يتوقع ذلك بالفعل. استغرق الأمر منه دقيقتين كانتا مثل دهر وهو يسحب جسده المكسور إلى حيث ألقت سترته. ابتسم وهو يمد يده إلى جيب صدرها ليخرج مشبكًا احتفظ به هناك.

حاول أن ينظر عبر ثقب المفتاح، ولكنه لم يستطع أن يرى إلا وهج النار المشتعلة. لم يكن فتح الأقفال جزءًا من تدريبه على وجه الخصوص، ولكنها حيلة تعلمها من مدربه، وبرع فيها. استند بيد على المقبض، وبالأخرى دفع المشبك المثني في ثقب المفتاح وجرب حظه. فشل في المحاولة الأولى. وبعد ثوانٍ، سمع صوت تكة، وبعدها انفتح الباب.

هناك نار مشتعلة في المدفأة. بجانبها كومة من الحطب، وفوق المدفأة قطع خزفية وجهاز راديو. هناك بقعة في ورق الحائط أقل بهتانًا من البقية، تشير إلى أثر صورة كانت معلقة فوقها. وعندما نظر حوله في الغرفة، أدرك أن العديد من الصور قد رفعت من فوق الحوائط. هناك كرسي هزاز بجانب المدفأة، وبجانبه أريكة قديمة رثة. مدخل المطبخ على يساره، والضوء الوامض يخبره أن هناك نارًا أخرى. حقيبته في الركن جوار رف الكتب، فتساءل عن سبب عدم حرصها على إخفائها. ربما لم تجد داعيًا إلى ذلك ما دام رجال "الجيستابو" في طريقهم إلى هنا الآن. الكوخ صامت، فلا أصوات على الإطلاق باستثناء صوت التهام النار لحطب الموقد.

سحب جسده نحو حقيبته، ثم مد يده إليها، وأخرج الملابس والخرائط ومصباحًا يدويًّا. لم يجد مسدسيه، لكنه لم يضِع الوقت في التساؤل أين خبأتهما. بدلًا من ذلك، استند إلى الجدار ومد يده إلى قاع الحقيبة. أوراقه كما هي، دفتر راتبه من "اللوفتفافه" وأوراق إجازته وأوامر سفره مختومة وموقعة، كما هي. وأمامه، على بعد أقل من ثلاثين قدمًا، باب الخروج من الكوخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

استغرقت "فرانكا" نصف الساعة من الحركة الشاقة قبل أن تصل إلى الوادي، حيث الطريق الرئيسي إلى البلدة. كانوا قد رفعوا منه الثلوج بما يكفي لمرور السيارات، فتكومت الثلوج على جانبيه بارتفاع كبير.

كفاءة النازي.

مرت خمس دقائق قبل أن تمر شاحنة فيوقفها سائقها لها لتقلها، كان جنديًّا من "الفيرماخت". توترت "فرانكا"، لكن لم يكن لديها خيار آخر الآن. قد يرتاب لو

وجدها ترفض أن تستقل الشاحنة في هذه الظروف. وهكذا، خلعت زلاجتيها وحملتهما وهي تتسلق نحو باب الشاحنة.

- طاب يومك، فرويلاين. أنا ذاهب حتى "فرايبورج".

- رائع.. شكرًا جزيلًا.

بادلت الجندي الابتسام بقدر ما تمكنت من إجبار نفسها، وهي تغلق الباب. عمره أقل من اثنين وعشرين عامًا.. أصغر منها.

- ما الذي أتى بكِ إلى هنا في يوم كهذا؟

- خرجت للشراء، ولم أتوقع هذا الطقس. حبستنا الثلوج وتكاد المؤن أن تنفد.

رمقها للحظات بدت طويلة لدرجة أقلقتها، وكادت الشاحنة تحف بالرصيف، قبل أن يعدِّل مسارها.

وجدتها فرصة لتغيير الموضوع، وعلقت على طريقته في القيادة:

- لم أستخدم الزلاجة منذ سنين. لذا، أنا سعيدة لأنك قبلت أن توصلني.

- تشرفنا، فرويلاين.

انخرطت معه في حوار، حرصت على أن يكون مرحًا، إلى أن وصلا البلدة. لم تخبره أي شيء عن شخصيتها، وراوغت كل سؤال له عنها، مهارة اكتسبتها من خبرة السنين، وبرعت فيها إلى حد بعيد.

ظهرت التلال المغطاة بالثلوج حول المدينة في البداية، تليها الأسطح والأبراج المطلية باللون الأبيض. ومن مسافة بعيدة، بدت "فرايبورج" مثل أي مدينة من العصور الوسطى في أوروبا. ومع ذلك، مثل أي مكان آخر في ألمانيا، تغيرت "فرايبورج" في ظل الحكم النازي. قاذفات الحلفاء لم تدك "فرايبورج" كما حدث في "هامبورج" أو "كاسل" أو "دريسدن". لم يكن هناك سوى عدد قليل من الغارات التي عرفتها المدينة، ولكن هذه الحقيقة جعلت وطأة فقدان والدها أشد عليها. ماذا كان الهدف من تلك الغارة في أكتوبر؟ تساءلت عما إذا كان الطيار قد فكر يومًا فيمن يقتل عندما ألقى القنبلة على مسكن والدها في أثناء نومه. هل كان يعلم أنه قتل مدنيين؟ هل يهتم من الأساس؟ تشككت في ذلك. وشعرت بتوتر جسدها. لن يعرف أبدًا أنه قد سلب روح ذلك الرجل الطيب اللطيف.

جاءها خبر وفاة والدها عبر رسالة، ورفضت المأمورة طلبها حضور الجنازة وقالت لها إن "خونة الرايخ لا يستحقون أي شفقة". لم تتمكن من زيارة قبره إلا بعد إطلاق سراحها من السجن، لتتمتم ببعض كلمات الوداع الخافتة.

أعادها مشهد الجنود الذين يحرسون الحاجز على الطريق المؤدي إلى البلدة، إلى الواقع بغتة. هنا لن تجد المهرب الذي تستمتع به في الكوخ. هنا تظهر القبضة النازية الحديدية التي تسحق مواطني ألمانيا واضحة للعيان. الحركة الحرة أو السفر من دون تصريح ذكرى من الماضي. سلمت "فرانكا" الأوراق التي عليها تقديمها

عند كل طلب، وأحيانًا عدة مرات في اليوم. تفحصها الحارس وهي جالسة في صمت. سألها:

- "آننباس".. الجواز الآري؟

أومأت "فرانكا" برأسها ومدت يدها في جيبها لتخرج الشهادة التي تثبت أصلها الآري. ألقى الحارس نظرة سريعة عليها وأعادها بإيماءة. أخفت خجلها بابتسامة. وتذكرت النكتة القديمة التي اعتاد "هانز" أن يرويها عن الأكاذيب الآرية..

"من هو الآري؟ أشقر الشعر مثل هتلر! ولكن هتلر شعره أسود. طويل مثل جوبلز! ولكن جوبلز قصير. رياضي مفتول العضلات مثل جورينج! ولكنه بدين ويلهث وهو يمشي".

كانت النكات سببًا في زج الكثيرين في غياهب السجون. والواضح أن النازي ثقيل الدم. كانت السخرية ممنوعة ومآل صاحبها السجن أو ما هو أسوأ، حتى ولو كانوا يفعلون ذلك وهم يضحكون على النكتة نفسها.

وجه الحارس الشاحنة لتتحرك. ورفضت "فرانكا" عرض الجندي تناول مشروب معه في تلك الليلة، بحجة أن لها صديقًا يقاتل على الجبهة الروسية. نزلت في وسط المدينة. ترفرف رايات النازية في النسيم. كان "هتلر" قد شرح الأسباب الكامنة وراء اختيار الأجزاء المختلفة من علم ألمانيا في الكتاب الذي دونه خلال فترة وجوده في السجن، والذي كان على "فرانكا" وجميع الأطفال دراسته في المدرسة وكأنه كتاب ديني أو قواعد تؤسس لحياة.. تمثل خلفية العلم الحمراء الفكرة الاجتماعية للحركة، أما الدائرة البيضاء في المنتصف فهي نقاء أهدافها القومية، والصليب المعقوف الأسود يدل على التفوق العنصري للجنس الآري. الآريون سلالة الرجال الشقر الخارقين، تلك التي أقنع النازيون الشعب الألماني بأنه ينتمي إليها. هي نفسها كانت تمثل النموذج الآري المثالي؛ الإنسان الطويل، الرياضي، الأشقر، ذو العينين الزرقاوين الثاقبتين.. حقيقة صارت تخجل منها. كانت الإطراءات التي تتلقاها على مظهرها الآري المثالي مصدر متعة لها وقت كانت مراهقة. أما اليوم، فهي تستاء من ذلك.

على بعد بضع مئات من الأمتار، كان سوق عيد الميلاد مزدحمًا في ظلال "فرايبورج مينستر"، الكاتدرائية القوطية التي تعود إلى القرون الوسطى والتي هيمنت بعمارتها على وسط المدينة. الكاتدرائية واحدة من الأماكن القليلة المتبقية للكاثوليك، ولكنها مجرد رمز شكلي للحريات الدينية التي وعد بها "هتلر" عندما تولى السلطة لأول مرة. فلم يكن هناك من قداس يقام بعد أن أرسلوا بالقس إلى معسكر اعتقال منذ سنوات. وكانت كنائس البروتستانت لا تزال مفتوحة، ولكنها دمجت قبل سنوات لتؤسس كنيسة "الرايخ" الوطنية، لضمان السيطرة على العبادة، وأن يكون رئيس الكنيسة البروتستانتية في ألمانيا عضوًا في الحزب النازي، وآريًّا. أطلق أعضاء الكنيسة على أنفسهم لقب المسيحيين الألمان، "الصليب المعقوف على صدورنا وصليب المسيح في قلوبنا". وسمح النازي بالاحتفال بعيد الميلاد المجيد،

لكن استمرار ذلك في المستقبل لم يكن مضمونًا؛ أي شيء يغير المعتقد عن المسيرة النازية يشكل تهديدًا.

لم تفارق عينا "فرانكا" الرصيف وهي تتجول، والزلاجة تحت ذراعها، والحقيبة على ظهرها. مر عدة جنود يرتدون الزي العسكري أمامها وهم يضحكون ويمزحون. صفَّر لها أحدهم في استحسان، لكن عينيها تسمرتا على حصى الرصيف. تساءلت عما إذا كانت ستلتقي بأي شخص تعرفه، وإن فعلت، فهل سيعرفونها؟ هل سيتجنبونها باعتبارها خائنة؟ كانت تأمل ألا تكتشف ذلك.

رن جرس أعلى باب الصيدلية وهي تفتحه وتشق طريقها إلى الداخل. أبقت عينيها على الأرض وهي تتجه إلى قسم الأدوية المسكنة. كانت زجاجات الهيروين الصغيرة أول ما لفت انتباهها، لكنها انتقلت إلى المورفين. اشترت ما يكفي لبضعة أيام، إلى جانب الحقن التي ستحتاجها. وأخذت الأسبرين والجبس الطبي والشاش وجوارب النايلون وأحضرتهما إلى الخزنة. نظر إليها الصيدلي - رجل في منتصف العمر له شارب رمادي كثيف - من فوق نظارته بعينين مرتابتين. لاحظت "فرانكا" دبوس النازي على معطفه الأبيض.

- إنه أخي.. كسرت ساقه وهو يلهو بالمزلجة ليلة أمس.

- يا للمسكين! هل ستقومين بتجبيرها بنفسك؟

- أنا ممرضة.. وتمرست على هذه العملية.

- هو محظوظ إذًا.

- لا أدري إن كان من الممكن أن نصف صبيًّا مكسور الساق بأنه محظوظ، ولكنني أعتقد أنك محق.

ابتسم الصيدلي وهو يناولها الكيس الورقي البني. ودعته "فرانكا" وخرجت، في محاولة لأن تبدو على طبيعتها قدر الإمكان. ولكنها قاومت رغبة شديدة في أن تتقيأ.

هبَّ الهواء عليلًا على بشرتها الرطبة، وبدأ ثلج خفيف يتساقط. عليها فقط شراء الطعام والشراب قبل أن تغادر. تشتاق إلى عزلة الكوخ. كانت الشوارع في هذه المدينة الجميلة مشوهة بالهيمنة الأيديولوجية النازية الطاغية التي جعلت من المستحيل على سكانها أن يعيشوا حياة ذات معنى، خاصة بالنسبة للمرأة. فلم يُسمح لأي امرأة أن تكون طبيبة أو محامية أو موظفة حكومية أو قاضية. كانت هيئات المحلفين من الرجال فقط؛ هم يقولون بأنه لا يمكن الوثوق بالنساء، وأنهن غير مؤهلات لاتخاذ القرارات، لاعتقادهم أنهن أقل قدرة على السيطرة على عواطفهن. كما لم يُسمح للنساء بالتصويت، ولكن ما فائدة التصويت على أي حال؟ فقد حظروا جميع الأحزاب باستثناء النازي. ومُنعت الألمانيات من وضع مساحيق التجميل أو صبغ شعورهن. وبدلًا من ذلك، صار على كل امرأة أن تبقى حبيسة الثالوث النازي المقدس: تربية الأطفال، الصلاة في الكنيسة، والطهي في المطبخ. لا تزال تتذكر قادة فرقها في رابطة الفتيات الألمان وهن يشجعنَها على نسيان الفكرة السخيفة المتمثلة في حياة مهنية ترضي بها نفسها وتحقق ذاتها. الأهم هو البقاء في المنزل

وإنجاب أبناء أقوياء يمكنهم خدمة "الرايخ" ذات يوم.. هذا هو الدور الذي كان على المرأة أن تلعبه في ألمانيا الحديثة، وقد تكيفت معه العديد من الفتيات اللاتي عرفتهن في شبابها. وحصل بعضهن على صليب الأم؛ الوسام الذي يمنحه النازي للأمهات اللواتي لديهن أكثر من خمسة أطفال آريين أصحاء، وحصلت "هيلدا شبيجل" - الفتاة التي انضمت إلى رابطة الفتيات الألمان- بالفعل على أعلى تكريم ممكن؛ صليب الأم الذهبي، تقديرًا لإنجابها أطفالها الثمانية قبل أن تتم عامها السابع والعشرين.

تناثرت ذكريات حياة "فرانكا" السابقة مثل الجراد حول رأسها. كل مبنى مرت به استحضر ذكرى جديدة. كان موقع الشقة التي عاش فيها والدها في السنوات الخمس الأخيرة من حياته على بعد بنايات فقط، وشعرت أن خطواتها تتباطأ مع اقترابها منها. فكرت في الرجل الموجود في الكوخ.. إنه أحدهم، أحد الحلفاء الذين ارتكبوا تلك الجريمة. واشتاقت لترف النسيان.

وصلت إلى المتجر العام. الشعب الألماني يشعر بويلات الحرب. شهدت الأيام الأولى للحرب الكثير من البضائع في المتاجر تقريبًا كما كان قبل بدء المعارك، ولكن التقنين بدأ بشكل جدي في ربيع عام 1942، وأصبح العديد من المنتجات شائعة الاستخدام الآن من الكماليات. رائحة الخبز الطازج جعلت معدتها الفارغة تنتبه. ابتاعت رغيفًا، وكذلك بعض الجبن واللحوم المجففة. كان الأمر شاقًّا في معظم طريق العودة إلى المنزل، لذلك حاولت تجنب شراء البضائع الثقيلة مثل الحساء المعلب الذي احتفظت به لفترة طويلة في الكوخ. وعندما حصلت على القدر من الطعام الذي تسمح به بطاقتها التموينية، راحت إلى الخزنة ودفعت من المال الذي تركه لها والدها. تذكرت المحامي وهو يقرأ لها الوصية. كان يعلم أنها قضت وقتًا في السجن، وعلى الرغم من أنه لم يقل ذلك بصوت عالٍ، فقد اشتبهت في أنه يعرف السبب.. كان الحكم واضحًا في عينيه.

شقت "فرانكا" طريقها إلى الشارع. كانت الساعة الثانية تقريبًا الآن. لم يكن هناك فائدة من محاولة العودة إلى الكوخ بمعدة فارغة. كانت قد احتفظت جانبًا بما يكفي من تذاكر الحصص الغذائية لشراء طعام الغداء، وكانت تعرف مكانًا في الشارع. المقهى يعج بالأحاديث الصاخبة. دخان السجائر معلق في الهواء. جلس عدة جنود في الزاوية وهم يضحكون ويشربون البيرة. جلست بعيدًا عنهم قدر استطاعتها، طلبت قطعة لحم "شنيتزل" وبطاطس وكوبًا من القهوة بالحليب. بعد خمس دقائق، وصل طعامها. شعرت أنها في الجنة، وبالكاد توقفت لتتنفس بينما تلتهم كل شيء. نهض الرجل الجالس إلى الطاولة بجانبها من مقعده، تاركًا جريدته، ووجدت هي فيها ستارًا يمكن أن تختفي وراءه. التقطتها وفردتها أمام وجهها. كانت مليئة بالقصص التي تمجد "الفوهرر" والجنود الشجعان الذين يقاتلون من أجل مستقبل ألمانيا في روسيا. توقفت عن القراءة بعد بضع ثوانٍ، وتركت عينيها ترتاحان على السطور. تفكر في رحلة العودة إلى الكوخ، تفكر في الرجل، لحظة أن سمعت صوتًا أمامها.

- "فرانكا جربر"؟

شعرت بانقباض صدرها وهي تخفض الصحيفة عن وجهها. رأت الزي الأسود لـ"الجيستابو" قبل أن تشق عينيها طريقهما إلى وجه رجل كانت تأمل ألا تضطر إلى رؤيته مرة أخرى.. "دانيال بيركل".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وضع الرجل الخرائط والبوصلة والملابس الاحتياطية وأوراق هويته في حقيبة الظهر، تمامًا كما وجدها. كان جالسًا بالقرب من خزانة الكتب. الباب الأمامي على بعد حوالي ثلاثين قدمًا، لكن الباب الخلفي أقرب. يمكنه رؤية وهج الشمس الأبيض على الثلج يتسرب من أسفل الباب. لم يكن يرتدي ملابسه حتى يمكنه أن يخرج، وسيكون الهروب مستحيلًا بساقيه المكسورتين. أصبحت الحقيقة التي حاول التمرد عليها واضحة في ذهنه للغاية؛ بدون مسدسيه، يبقى تحت رحمة "فرانكا جربر"، مهما كانت نواياها. لا يزال يرتدي المنامة التي ألبسته إياها، لكن ما الضرر الذي قد يحدث؟ ربما كانت تقول الحقيقة وإنهما وسط الجبال.. وربما لا. جر نفسه على الأرض. كان المدخل متسخًا، ويمكنه أن يشعر بالطين تحت كفيه وهو يزحف. مد يمناه نحو مقبض الباب، ودفع كوعه الأيسر لأعلى. حرك جسده بعيدًا وهو يفتح الباب. صدم عينيه محيط من الأبيض الوهاج، ونهش التيار البارد صدره المكشوف، وشعر بألم بالغ في ساقيه مثل سكاكين تقطع في لحمه. فتح الباب على ركن الحطب. بدأت الأشجار المغطاة بالثلوج على بعد بضعة أقدام فقط. لا يرى أي شيء آخر، أغلق الباب في سخط.

استغرق بضع ثوانٍ لاستعادة أنفاسه قبل الزحف مرة أخرى إلى غرفة المعيشة. النار دافئة، جلس أمامها دقيقة أو دقيقتين. ماذا كان سيفعل بحق الجحيم، حتى لو كانا قريبين من المدينة؟ كيف يتحرك إلى هناك بساقيه المكسورتين؟ وإذا وصل إلى هناك على قيد الحياة، وهو الأمر الذي بدا سخيفًا لدرجة أنه يكاد يكون مستحيلًا، فإن أي شخص سيلتقطه سيأخذه إلى المستشفى المحلي على الفور. ستكون هذه هي النهاية، بالنسبة له ولمهمته. وعلى الأرجح أنه سيموت وسط الثلج، كما كان سيحدث له بلا شك لو لم تجلبه المرأة إلى هنا. ربما كانت تقول الحقيقة، ربما كانت صديقة وليست عدوًا. ما فرص العثور عليه من قبل شخص ودود في هذا البلد المتعصب المجنون؟ لقد شاهد نشرات الأخبار عن حشود ضخمة تهتف مع كل كلمة لـ"هتلر"، وهي تلوح بالأعلام، وتقرع الطبول. يبدو أن الأمة بأكملها قد غُسل دماغها وصارت النازية دينها الجديد. وإلا فلماذا يرتكبون الفظائع التي اقترفوها في الأراضي التي احتلوها؟ وإلا كيف يمكن أن يبرروا وجود وحش مثل "الجيستابو"؟ تذكر كلمات مدربه: "لا تثق بأحد". قال إن الألماني الطيب هو ألماني ميت. كان المجندون يضحكون، ولكن من دون شك في صحة كلماته. صدقوها جميعًا، تمامًا كما فعل هو.

لم يستقِ أي معلومة من المنظر خلف الباب الخلفي. وعليه أن يتأكد. بدأ بالزحف نحو الأمام. دقت الساعة في الردهة بجانب الباب الأمامي.. العاشرة صباحًا. استمر في الحركة، ذراعًا ثم أخرى، متجاهلًا الألم في ساقيه. وصل إلى الباب وأدار المقبض، وفتحه بعض الشيء قبل أن يحرك جسده بعيدًا ليفتحه بالكامل. عاد وهج

الثلج الأبيض مرة أخرى، ورأى سيارة ماركة "فولكس فاجن" مغطاة بالثلج. استند على كفيه، لينهض بأعلى ما يستطيع. لم يكن هناك سوى الثلج والأشجار على مد البصر. ولا حتى طريق. لم يكن هناك صوت، لا توجد علامة أخرى للحياة، كلامها صحيح.. إنهما وحدهما هنا.

أغلق الباب الأمامي وبدأ رحلة العودة إلى غرفة المعيشة. أراد أن يكون في السرير قبل أن تعود، فلم يكن يريدها أن تشك في أنه كان مستيقظًا ويتجسس في أرجاء المنزل. توقف عند الطاولة تحت الساعة. وبدافع النزوة أكثر من أي شيء آخر، مد يده لفتح درج الطاولة الصغير، وعندما فتحه، تعرف على صوت انزلاق ذلك المعدن على الفور. مد يده وأخرج مسدسًا. الآن هو جاهز، فإذا جاؤوا، سيحرص على ألا يفارق الحياة وحده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- من الرائع أن ألتقيكِ! حالك أفضل الآن. كم مضى من وقت، "فرانكا"؟

كانت "فرانكا" تحدق في جمجمة الموت التي تزين قبعته. خلعها عن رأسه ووضعها تحت ذراعه.

- أشكرك. سنوات، هير "بيركل". أربع سنوات ربما؟

- لم أركِ منذ انتقلتم إلى "ميونيخ". أتمانعين أن أجلس معكِ لدقيقة؟

سحب الكرسي قبالتها وجلس.

- بالطبع لا.

كان ردها عبثيًّا، بعد أن جلس بالفعل.

- أرجو أن تناديني باسمي.. "دانيال". لا يجب أن تكون بيننا كلفة بسبب منصبي العسكري. نحن أصدقاء قدامى، التقينا مصادفة، وكل ما أوده هو الدردشة معك.. أيمكنني أن أدخن؟

قدم لها سيجارة. لم تدخن منذ عدة سنوات لكنها تناولتها منه على أي حال. أشعل سيجارتها أولًا، ثم سيجارته. ملأ الدخان الأبيض الهواء بينهما. رجعت بظهرها إلى الوراء، على أمل أن يهدئ ذلك أعصابها.

- ما الذي أعادك إلى "فرايبورج"؟

- أتيت لزيارة قبر أبي، وقراءة وصيته كذلك.

- نعم، بالطبع، لقد وجدت اسمه في قائمة قتلى غارة الحلفاء الأخيرة. أنا آسف لخسارتك. تلك الحيوانات لا تهتم بعدد مواطنينا الذين يقتلون. أتوق إلى اليوم الذي قد نثأر فيه لمقتل والدك ومئات الآلاف من المواطنين الألمان الذين قتلوا على يد الحلفاء.

شعرت "فرانكا" بجسدها كله يرتجف، وهي تقول:

- وأنا أيضًا، "دانيال".

بدا أن "بيركل" اقتنع بردة فعلها.

- وأود أيضًا أن أعبر عن مدى أسفي لسماع ما جرى لك.

أخذ نفسًا من السيجارة. "فرانكا" لم تعرف ماذا تقول وكيف تجيب.

- سمعت عما حدث في "ميونيخ".

أرادت أن تسأل كيف عرف، ولكنها عرفت أنه ربما يعرف كل شيء عن كل فرد من "فرايبورج".

- إنها مأساة أن تكوني تحت تأثير هؤلاء.. الخونة الحقيرين لـ"الرايخ".

جمد قلبها، "هانز" أقسى مائة مرة من "دانيال" وأمثاله. كل تركيزها الآن في السيطرة على الرعب الكامن وراء تعبيرات وجهها الهادئة.

- أشكرك، "دانيال".

- كما أنني سعيد لأن القاضي أدرك حقيقة أنك - كامرأة - بحاجة إلى الحماية. جعلتك طبيعتك الطيبة أكثر عرضة للأكاذيب المروعة والدعاية التي كانت تنشرها تلك الحثالة.. أنا آسف لأنك مررت بذلك.

أخذ نفسًا جديدًا من سيجارته قبل أن يواصل.

- لا بد أنها كانت تجربة مروعة. أعلم أنه قد يكون من الصعب إدراك ذلك في بعض الأحيان، لكن النازيين يريدون الخير للشعب الألماني.

بقيت جامدة الملامح. يمكنها أن تتيقن من نظراته الصادقة أنه مقتنع بكل كلمة يقولها.

- كنت محظوظة، وهذا ما أنا متيقنة منه.

- بالفعل، وسعدت بأن الحكم لم يكن بالإعدام، كما هو معهود مع الخونة. ولا يزال المستقبل أمامك.. زوجة وأم لأبناء يكونون في خدمة "الرايخ".

أنهى "دانيال" سيجارته وأطفأها في المنفضة فوق المنضدة بينهما، ومال نحوها، وهو يردف:

- أعلم أنكِ تعلمت الدرس.

- بالتأكيد، كنت حمقاء ضالة. كان يجب أن أبلغ عن أولئك الخنازير، لكنني كنت خائفة.

أخذت نفسًا عميقًا في محاولة عبثية لتسكين الألم الذي جلبته تلك الكلمات.

اقتربت مسنة من الطاولة، فوقف "بيركل" ليحييها.

- هير "بيركل"، من الرائع رؤيتك.

- تبدين في حال طيبة، فراو "جويتش".

- أشكرك.

- رؤيتك من دواعي سروري.

رفعت العجوز حقيبة في يدها:

- لديَّ شيء لك ولعائلتك.

- أوه.. لا، لا يمكنني قبول هذا.

- إنه للأولاد. لأجل كل ما فعلته لعائلتي.

تناول "بيركل" الحقيبة منها.

- أشكرك، سوف أحرص على أن أخبر الأولاد أن هذه هدية منكِ في عيد الميلاد.

- باركك الرب، هير "بيركل".. هايل هتلر.

- هايل هتلر.

عاد ليجلس على الكرسي.

- معذرة.

- مَن هذه السيدة؟

- صديقة قديمة للعائلة، ولكنها كانت بحاجة لمساعدة، ويسعدني أنني ساعدتها. وكنت أتمنى لو سمحتِ لي أن أساعدك، وكنت أتمنى لو أنك لجأت إليَّ لما حاول هؤلاء الخونة خداعك.

- ربما لو كنت هناك للجأت إليك.

- من الجيد جدًّا سماعك تقولين ذلك. أعلم الآن أن القاضي اتخذ القرار الصحيح. حان الوقت للاستمرار في حياتك.. هل فكرت كيف يمكنك رد الجميل لـ"الرايخ"؟ هناك طلب دائم على الممرضات، خاصة مع إصابة جنودنا الشجعان على الجبهة الروسية كل يوم.

- فكرت في هذا. لكنني لم أخرج من السجن إلا قبل ثلاثة أسابيع فحسب. أنا بحاجة إلى بعض الوقت.. ربما عندما تنتهي عطلة عيد الميلاد.

- مفهوم، أين ستقضين عيد الميلاد؟

- في "ميونيخ". أعيش هناك الآن. لم أعد إلا منذ بضعة أيام فقط.

رمق الأرض أسفل الطاولة، وهو يسألها:

- وما حاجتك إلى هذه الزلاجة؟

وفجأة، أدركت وجود المورفين في حقيبتها، والشاش والجبس الطبي.. إذا فتش الحقيبة، سينتهي أمرها.

- شقة والدي دمرت في الغارة. سأقيم في بيتنا الصيفي القديم وسط الجبال، ولكنني لم أكن أتوقع سقوط هذا الكم الهائل من الثلوج.

- بالفعل، كان الطقس غريبًا. لكنك تقولين إنك تنوين العودة إلى "ميونيخ" في عيد الميلاد؟ لم يتبقَ سوى تسعة أيام.

- هذا ما أنويه. أنا لا أريد قضاء عيد الميلاد وحدي في ذلك الكوخ القديم. أريد العودة إلى "ميونيخ" في أسرع وقت ممكن.

- أتذكر ذلك الكوخ. قضينا بعض الأوقات الحلوة هناك.

حاولت "فرانكا" ألا ترتجف وهي تتذكر عطلات نهاية الأسبوع التي قضتها معه في كوخ والدها. أيام الجامعة، عندما كان زعيم شباب هتلر في المنطقة.. أيام بدت وكأنها منذ دهور. كانت معظم الفتيات الأخريات يشعرن بالغيرة منها. يمكنهن الحصول عليه الآن. لاحظت وجود خاتم زواج في إصبعه.

- أنت متزوج؟

- أجل، منذ أربع سنوات. تتذكرين "هيلجا داجوفر"؟

- بالطبع.

- لدينا ولدان.. "باستيان" و"يورجن".

- مبارك.

- إنهما طفلان آريان مثاليان، كما تحتاج هذه الدولة. بالطبع، بحلول الوقت الذي يكبران فيه، ستكون الحرب قد انتهت، وسيكونان قادرين على جني ثمار ما نحاول زرعه اليوم.

صمتت "فرانكا". كانت ترغب في الهرب، ولكنها تعجز عن ذلك الآن، بل هي تبذل كل قوة لديها لتبقى جالسة بلا حراك.

- هل ترغبين في رؤية صورة لهما؟

- بالتأكيد.

مد "بيركل" يده في جيبه وأخرج محفظته. ارتسمت ابتسامة فخر على وجهه وهو يقدم لها الصورة، وبرقت عيناه بطريقة لم تكن تعتقد أنها ممكنة.

- أليسا أجمل أطفال العالم؟

- أكيد.

- أحبهما كثيرًا، أسوأ جزء من عملي هو أنني بعيد عنهما كثيرًا، لكنهما في قلبي دائمًا.

أعاد الصورة إلى محفظته. مد يده إلى جيبه وأخرج علبة سجائر مطلية بالفضة. لاحظت "فرانكا" أن الحرفين المنقوشين على العلبة ليسا لاسمه. عرض عليها سيجارة أخرى، لكنها رفضت. مرت سنوات منذ كانت مدخنة، والسيجارة التي دخنتها زادت من شعور الغثيان الذي انتشر بداخلها مثل بقعة وسخ في بركة راكدة. أشعل "بيركل" السيجارة وجلس في هدوء. تذكرت الرجل في الكوخ.

- ألم تتزوجي يا "فرانكا"؟

- كلا، لم أتزوج قط.

- كم عمرك الآن، ستة وعشرون؟ لديك الكثير لتقدميه. لا أتخيل أن ينتهي بكِ الأمر خادمة عجوز، أليس كذلك؟ تمر أيام القدرة على الإنجاب بسرعة، لن تري زهرة شبابك مرة أخرى ما إن تفارقك.

- أنا على دراية بعمري يا "دانيال".

- لا أقصد الأمر على هذا النحو. لم أقصد أي إهانة. أنتِ الآن أجمل من أي وقت مضى.

- لا بأس، "دانيال"، وشكرًا لك مرة أخرى.

تعجز عن الاستمرار في النظر إلى عينيه لأكثر من بضع ثوانٍ.

- كنتِ فاتنة الثُّلَّة أيام المراهقة.

رجع بظهره كرسيه الخشبي وشبك يديه خلف رأسه.

- أوه، نعم، أتذكر ذلك جيدًا. كان جميع الفتيان يغارون مني. معي أجمل فتاة في "فرايبورج". شعرت أنني الفتى الأكثر حظًّا في العالم، ثم ماذا حدث لنا؟ لم تفسري لي أي شيء منذ ذاك الحين. تركتني وحسب.

"لأنني رأيتك على حقيقتك. وأدركت إلى أي كائن حولوك". تساءلت عما إذا كان يتعمد الجهل، إذا كانت هذه خدعة لاختبار ولائها، أو إذا كان لا يعرف حقًّا.. ألم يفهم حتى الآن؟ انفصلا في عام 1936، عندما كانت في التاسعة عشرة من عمرها، حاول العودة إليها بعد ذلك، وبينما كانت مصرة على ألا تكون رفيقته، كانت حريصة على أن تبقى صديقته. كانت خائفة من قوته المتزايدة وتأثيره الكبير كونه عضوًا في "الجيستابو" المحلي.

في ليلة الكريستال عام 1938، انضم إلى الغوغاء عندما كانت شوارع "فرايبورج" وكل بلدة ومدينة أخرى في ألمانيا تتلألأ ببريق الزجاج المكسور لنوافذ المنازل وواجهات المحلات المملوكة لليهود، عندما توجهت سماء الليل باللون الأحمر من قوة ألسنة اللهب. حرقت معابد اليهود، لقي الآلاف حتفهم في أعمال شغب عمت البلاد برعاية الدولة ضد اليهود الألمان، وكان "دانيال بيركل" أحد قادة مجموعة كانت تجر أصحاب المتاجر اليهود إلى الشوارع لتسحلهم وتضربهم. في تلك الليلة، فتحت عينيها على ما كان النازيون يحاولون حقًا تحقيقه في ألمانيا. شعرت بالتغيير

بحق. كان السبب الرئيس وراء مغادرتها "فرايبورج" هو الابتعاد عنه. لقد تخلت عن "فريدي" من أجل الابتعاد عنه.

- هذا أصبح تاريخًا الآن. لماذا نغرق أنفسنا في الماضي في حين أن أمام الشعب الألماني مثل هذا المستقبل الباهر الذي نتطلع إليه؟

ابتسم لها، ولكن عينيه لم تبتسما. سحب نفسًا من السيجارة قبل أن يتكلم مرة أخرى.

- لديك شيء تخفيه؟ لماذا لا تخبريني، حتى نتمكن من ترك الماضي وراءنا والاستمرار أصدقاء؟ إذا كنت ستعيشين في "فرايبورج" فـ..

- لن أعيش في "فرايبورج". سأعود إلى "ميونيخ" خلال أيام، بمجرد فتح الطرق.

أخذ "بيركل" نفسًا آخر من السيجارة بينما اقتربت النادلة. طلب بيرة، وشعرت "فرانكا" بضيق شديد.

- على علاقة مع آخر؟

- ليس الأمر كذلك، تفرقنا وحسب. كنا مجرد أطفال حينها.

- كثير من الرجال الذين أعمل معهم، وهم رجال طيبون ومخلصون، يكرسون حياتهم لرقي هذا البلد وحماية "الرايخ"، تزوجوا في ذلك العمر، كان لدى بعضهم أطفال قبل ذلك.

- لم يُقدر لنا ذلك.

عادت النادلة تحمل البيرة وأخبرته أنها على حساب المقهى، كما هو الحال دائمًا مع رجال "الجيستابو". لم يشكرها، بل انحنى إلى الأمام ليحدق في "فرانكا" مرة أخرى.

- لذلك قرأت أنكِ متورطة مع زعيم هؤلاء الخونة في "ميونيخ". هل كان سيصبح أبًا لأطفالك؟

شعرت أن اسم "هانز" تلطخ لمجرد ذكره على لسان "بيركل". أبقت يديها تحت الطاولة، وقد تكورتا في قبضتين شديدتين لدرجة شعرت معها أن الدماء سوف تسيل منها.

- انتهى هذا الجزء من حياتي الآن.

قاومت الدموع. لن تبكي أمامه. تفضل أن تموت على البكاء أمامه.

- كنتِ محظوظة.. يجب أن تشكري عملاء "الجيستابو" الذين قبضوا عليه والآخرين. يجب أن تشكري مَن قام بإعدامهم، لقد قدموا لكِ أعظم خدمة يمكن أن تقدمها الحكومة لشخص ما.. أطلقوا سراحك. لقد حرروكِ من جنون الأفكار التي كان هؤلاء المجرمون يثرثرون بها في أذنيك، وتحلوا بالرحمة والشهامة لينقذوا حياتك.

كل كلمة تؤذيها.. هل كان من المفترض بها أن تكون ممتنة لذلك القاضي لأنه أنقذ حياتها؟! كانت تتمنى العكس مرات عدة منذ ذلك الحين.

- أُصاب بالغثيان لمجرد التفكير أن أمثال هؤلاء موجودون.

نطق "هؤلاء" وكأنها كلمة بذيئة.

- ولكن من المبهج أن نعرف أنهم نالوا العدالة السريعة التي يستحقونها، وأن المزيد من الأبرياء محميين من تأثيرهم الدنيء.

- لقد فعلوا ما اعتقدوا أنه الأفضل للشعب الألماني.

كان صوتها منخفضًا لدرجة أنها بالكاد سمعت نفسها.

هز رأسه وتناول جرعة سخية من البيرة.

- حمقى سذج. هل كانوا يحاولون إعادتنا إلى أيام البطالة الجماعية والفوضى الاجتماعية في الشوارع؟ كانت الديمقراطية أكبر كارثة على هذا البلد على الإطلاق. أنقذنا "الفوهرر" من لعنة "فرساي"، وأنقذنا من مجرمي نوفمبر، وعزز مكانتنا بين أعظم الدول في العالم مرة أخرى.

أرادت "فرانكا" أن تسأله لماذا لم يذهب ليقاتل في الجبهة ما دام شديد التمسك بموقفه. "الجيستابو" لم يعمل تحت أي سيادة لقانون. يمكنه أخذها من وسط المدينة إلى مقر "الجيستابو" الآن، وقد لا يراها إنسان مرة أخرى. ولن يسأل أحد أي أسئلة. ستكون مجرد عدو آخر للدولة اختفى. حياتها بالكامل تعتمد الآن على نزوة مَن هذا الرجل الذي كسرت قلبه ذات يوم.

- أنت على حق.. ضللوني. أنا ممتنة لأنني نجوت. ضغط القادة عليَّ لحضور الاجتماعات. جعلوا الأمر يبدو وكأنها مهمة وطنية يجب القيام بها.

- الحقيقة عكس ذلك طبعًا. يسعدني أن أرى أنكِ لم تسقطي تمامًا تحت تأثير تعاويذهم. من المشجع أن تعرفي أن لديكِ فرصة ثانية لتعويض أخطائك.

- كان من دواعي سروري أن أراك "دانيال"، لكنني حقًّا يجب أن أذهب.. لا بد لي من العودة إلى الكوخ قبل حلول الظلام.

حدق بها عبر الطاولة لبضع ثوانٍ قبل أن يجيب.

- بالتأكيد، ستكون الرحلة أكثر خطورة في ظلام الليل. لا أريد أن أكون مسؤولًا عن تعطيلك.

- تمامًا، "دانيال".

قالتها وهي تنهض.

لم يتحرك، بل نظر إليها من مقعده.

- ولكن مهلًا، الطرق هناك مغطاة بالثلوج، أليس كذلك؟ لهذا معك زلاجتك.

- أجل، لذلك يجب أن أذهب حقًا..

- كيف كنتِ تنوين العودة؟ لا يمكنك التزلج لمسافة عشرة أميال حتى هناك.

- وضعت في حسباني كل ذلك.

- كيف؟ ليست معكِ سيارة. هي بالتأكيد هناك في الكوخ.

- هي كذلك، لكن..

- كيف تنوين العودة إلى هناك إذًا؟

- لديَّ شخص ينتظر أن يقلني.

- مَن هو؟ أنتِ لا تعرفين أي شخص هنا الآن، بعد قضاء وقت في السجن، لم تعد سمعتك كما كانت.

- حسنًا، كنت سـ..

- تستقلين أي سيارة مع أي شخص وحسب؟ هراء، سوف أوصلكِ إلى هناك.

شعرت "فرانكا" بقلبها يقفز من مكانه.

- لا، لا يمكنني أن أزعجك أكثر من هذا. سيستغرق ذلك أكثر من ساعة وأنت مشغول.

- هذا وقت غدائي. يمكنني تعويض الوقت لاحقًا.

كانت عيناه تخترقانها. فكرت في رد، ولكن كل الردود بدت غير مقنعة.

- حسنًا إذًا.. السيارة بالخارج. هل أنتِ مستعدة للذهاب الآن؟

- سأدفع الحساب.

- اتركي المال على الطاولة.

وضعت "فرانكا" بضع نقود. لم يتفوه "بيركل" بكلمة أخرى وهما يخرجان من المقهى. سيارة "مرسيدس" سوداء في الخارج، فتح بابها الخلفي لتضع زلاجتها وأشياءها. أبقت حقيبة الظهر معها، ووضعتها عند قدميها وهي جالسة إلى جواره.

"اخرسي تمامًا، وأمني على ما يقوله فحسب".

تحدثا عن أشخاص وأحداث قديمة في أثناء قيادته السيارة عبر المدينة. تساءلت "فرانكا" عما إذا كان يحقق معها، أم أنه كان يتوهم بصدق أنهما صديقان. ربما لم يكن كذلك، ربما كان هذا وذاك. لا يزال يتعين على "فرانكا" تقديم أوراقها إلى الحارس عند الحاجز. استقبله "بيركل" بتحية كسولة، مؤكدًا حقيقة أنه ضابط يفوقه رتبة. انتظرت حتى خرجا من المدينة وانطلقا في الطريق السريع قبل أن تسأله:

- كيف حال ولديك؟

- رائعان، رائعان بحق. إنهما أجمل شيء رأيته على الإطلاق. آريان قويان. نحن فخوران بهما. "يورجن" يبلغ من العمر ثلاثة أعوام فقط، ولكنه قادر على أن ينشد "ألمانيا فوق الحلفاء".

صمتت "فرانكا" وهو يحكي لها عن ولديه. لكنه سرعان ما عاد ليعظها عن عظمة "الرايخ" وعبقرية "هتلر". امتدت الدقائق بشكل مؤلم. وصلا إلى المكان الذي عليه أن ينزلها فيه.. وشعرت أنها وصلت إلى واحة في قلب صحراء.

- سأكون ممتنة لو سمحت لي بالنزول هنا، "دانيال"، لقد كنت لطيفًا بحق، غيرك كان ليتذكر ما فعلته ولم يكن ليساعدني. لقد ارتكبت أخطاء، لكنني مصممة على أن أعيش أفضل حياة أستطيعها من الآن فصاعدًا.

أوقف "بيركل" السيارة إلى جانب الطريق والتفت إليها.

- وظيفتي هي أن أشك في كل شيء وفي كل وقت يا "فرانكا"، وما زلت كذلك. لقد كان من الرائع رؤيتك، لكنكِ لست مجرد صديقة قديمة بالنسبة لي، أنت عدو مُدان من قبل الدولة، وبينما أعتقد أن كل الآريين تقريبًا يستحقون فرصة ثانية، ستحتاجين إلى إثبات ولائك لـ"الرايخ" و"الفوهرر" الحبيب. آمل ألا نلتقي أبدًا بصفة رسمية، لكن أعلم أنني سوف ألتقيك.

- كما قلت لك، سأعود إلى "ميونيخ" في غضون أيام.

- إذا كان الأمر كذلك، أتمنى لكِ حظًا سعيدًا.. هايل هتلر.

- هايل هتلر.

خرج صوتها ضعيفًا. ارتدت حقيبة الظهر. ونزل ليناولها بقية حاجتها والزلاجة.

- أسعدتني رؤيتك، "فرانكا". أتمنى أن تجدي السكينة التي تبحثين عنها. واحذري مَن تتعاملين معه.

أومأت برأسها في تفهم، وعاد إلى السيارة، بينما وقفت ساكنة والسيارة تبتعد.

شعرت بالانتهاك والاشمئزاز. لم يعد الكوخ آمنًا أو بعيدًا عن قبضة النازي الذي احتقرته الآن أكثر من أي وقت مضى. مع اقتراب الليل، لم تكن تمتلك ترف الوقوف وتحليل كلامه. ارتدت الزلاجة مرة أخرى وبدأت في السير نحو الكوخ.

من المؤكد أن حقيقة أنها أخبرته أنها ستعود إلى "ميونيخ" ستمنع أي تدخلات من قبل "الجيستابو". لكن ماذا لو كانوا يبحثون عن الرجل؟ ماذا لو أن هناك من بينهم مَن شاهده وهو يسقط من السماء؟

كانت رحلة العودة إلى أعلى التل مع ثقل حمولتها أصعب بكثير من النزول منه، وكان عليها التوقف في منتصف الطريق لترتاح وتلتقط أنفاسها. ضوء النهار يتلاشى، والهواء يزداد ثقلًا، لحظة أن ظهر الكوخ أمامها. يتساقط الثلج خفيفًا. وجدت نافذة غرفة النوم مضاءة. تساءلت "فرانكا" عما إذا كان الرجل نائمًا. هل سيثق بها الآن بعد أن ذهبت إلى المدينة لأجله وعادت إليه؟ إلى متى سوف يستمر

في تقمص دور "فيرنر جراف"؟ كيف يمكن أن تثق به وهي تعلم أنه يكذب عليها بشأن هويته؟ خلعت زلاجتها عندما وصلت إلى الباب الأمامي، ونفضتها قبل أن تسندها إلى جدار المنزل. فُتح الباب بصرير. يصبغ ضوء نار المدفأة جدران غرفة المعيشة باللونين البرتقالي والأصفر، وهي تتساءل كيف قام الرجل بتزويد الموقد بالحطب. عندما رأته، كان جالسًا على كرسي هزاز بجوار النار، ومسدس والدها في يده..

يصوبه نحوها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

تركت "فرانكا" حقيبة الظهر تفلت من كتفها لتسقط على الأرض. حدق الرجل في وجهها وصوب المسدس نحو صدرها. كانت عيناه ترتعشان في الضوء الضعيف، وأسنانه تصطك في تألم. لعنت نفسها لأنها لم تخفِ المسدس بشكل أفضل. وكان من الصعب عليها تخيل كيف خرج من السرير، ناهيك عن وصوله إلى الطاولة بجوار الباب الأمامي.

- كيف خرجت من غرفتك؟

- أنا الذي سوف يسأل الآن.

رأت إصبعه وهي تتوتر على الزناد.

- معي المسكنات. لا بد أنك تعاني آلامًا فظيعة. كما أحضرت الطعام الذي يكفينا لأيام.

- طرحت عليكِ سؤالًا. لماذا أنا هنا؟ لماذا أتيت بي إلى هذا الكوخ؟

نكرانه الجميل يضايقها، وشعرت بأنها على وشك أن تفقد أعصابها. كان مرعوبًا؛ فهو غريب في أرض معادية. وجدت نفسها ممتنة لأنه لم يضغط على الزناد بمجرد أن مرت عبر الباب.

- إنها الضرورة وحسب. كنا بعيدين عن أقرب مستشفى، ولم تكن لديَّ أي وسيلة توصلك إلى هناك.

- هل أخبرتِ أي أحد بوجودي هنا؟

- كلا.

- لماذا؟

- لأنك طلبت مني ألا أفعل. وقد أخبرتني أن معرفة السلطات بوجودك هنا كفيل بأن يفسد مهمتك.

استمر يحدق فيها، والمسدس مصوب نحوها. بدا أنه لا يدري ماذا يقول.

- أخبرتك أن اسمي "فرانكا جربر"، من "فرايبورج"، وهذا الكوخ الصيفي لأبي وأمي.. كلاهما مات الآن؛ تُوفي والدي قبل بضعة أشهر فقط في غارة بالقنابل على المدينة، وماتت والدتي قبل ثماني سنوات بالسرطان.

فَكَّرت في إخباره عن "فريدي"، لكنها أدركت أنها لن تكون قادرة على ذلك دون أن تنهار. وهي على وشك أن تنهار بالفعل.

- أعدتك إلى هنا لأنك كنت بحاجة إلى المساعدة. كنت ستموت هناك.. إنها معجزة في حد ذاتها أنني وجدتك. فلا يوجد إنسان هنا ولمسافة أميال.

- لماذا تحتفظين بي هنا؟

ارتعش صوته وهو يسألها، ربما من الألم، وربما من أمر آخر.

حدقت في فوهة المسدس.

- لأنه ليس لديَّ خيار آخر؛ الطرق مغلقة، لا أستطيع أن أنزل بك إلى الطريق الرئيسة، مستحيل بساقيك المكسورتين.

أشارت إلى الحقيبة، وهي تردف:

- أحضرت الجبس الطبي، والشاش، وكل شيء آخر أحتاجه لأضعهما في جبيرة سليمة. يمكنني أن أفعل هذا من أجلك إذا سمحت لي، لكنني أريدك أن تثق بي.

- كيف أعرف أنكِ لست عميلة للحلفاء، وأنكِ تبقيني هنا لكسب ثقتي؟

- أنا لست عميلة للحلفاء.. أنا مجرد ممرضة من "فرايبورج".

خفض الرجل المسدس بضع بوصات قبل أن يرفعه مرة أخرى.

- سأخلع قبعتي وقفازي الآن.

أومأ برأسه أن تفعل، فتركتهما يسقطان على الأرض. اقتربت منه ببطء وهي تمد يديها وكأنها تقترب من كلب خائف.

- ليس لديك ما يدفعك للخوف. أنا لا أعمل لدى أي شخص. ليس لديَّ أجندة.

- وماذا تخططين لأن تفعلي بي؟

- أريد أن أراك تخرج من هنا. لا أريدك أن تخبرني عن مهمتك. لا داعي للتحدث.. أنا فقط أريدك أن تثق بي وتعلم أنني لا أنوي لك أي ضرر.

حاولت "فرانكا" منع صوتها من الارتعاش. أشارت نحو الكرسي المجاور لها. لم يرفض طلبها فجلست.

- إلى مَن ستسلمينني؟

رفع يده لكي يسعل، وهو حريص على ألا يخفض المسدس.

- أنا لا أخطط لتسليمك إلى أي شخص، إلا إذا كنت تريدني أن أفعل ذلك.

- ألا يوجد تليفون هنا؟ ولا أحد لأميال من حولنا؟

- نحن وحدنا. يمكنك أن تطلق النار عليَّ الآن، لكنك بذلك تقتل نفسك أيضًا. عاد الثلج يتساقط مرة أخرى. ويمكن أن نمكث هنا لأسابيع. ولن تكون قادرًا على الرحيل، وستموت هنا.. تحتاج أن تثق بي. أنا لا أقصد لك أي ضرر.

- هل يمكنك اصطحابي إلى المدينة؟

- كلا، لن تتمكن من الوصول إلى هناك. بالكاد فعلت أنا، مع أنني أعرف تلك المسارات. اعتدت الحضور إلى هنا طوال حياتي. عليك أن تدرك أننا عالقان مع

بعضنا بعضًا لفترة. نحن بحاجة إلى الثقة. ويجب أن أقول إنني أجد صعوبة في الوثوق بك وأنت تصوب هذا السلاح نحوي.

- لم يكن من حقك أن تأخذي سلاحي مني.

- كان إجراء احترازيًّا، لا أكثر. ولم تكن بحاجة إليهما.

- وكيف أتأكد من ذلك؟

- لأنني إذا أردت موتك لكنت تركتك في الثلج. لقد كنت على بعد ساعات من الموت عندما وجدتك.

كانت ترى أن عينيه تخضعان.. ربما للمنطق أو للضرورة.

خفض الرجل المسدس بضع بوصات وأغمض عينيه لثانية.

- كيف أعرف أنكِ تخبرينني بالحقيقة؟

- لو كنت من الحلفاء، فكيف كنت سأعلم أنك ستهبط في الثلج في وسط مكان مجهول في ألمانيا؟ لماذا أكون هنا في الجبال.. أنتظر هبوطك من السماء؟ هل تتمثل نظريتك في أن شخصًا ما وجدك عندما كنت فاقدًا للوعي وأودعك هنا لتحرسك امرأة؟

أغمض عينيه لكنه لم يتكلم.

- مَن غير "الجيستابو" هنا؟ "الجيستابو" لا يتعامل ببراعة ودقة. لا يحاولون استدراج المعلومات بذكاء من ضحاياهم. لو كنت أنا من "الجيستابو"، لكنت أعذبك الآن.

- ولماذا بحق السماء أخاف من "الجيستابو"؟

- حسنًا، لماذا لا تسمح لي بإبلاغهم عنك؟

فتح الرجل عينيه وفتح فمه ليتكلم لكنها لم تسمح له بالكلام.

- أستطيع مساعدتك. أريد مساعدتك. لقد ذهبت إلى "فرايبورج" اليوم من أجلك. كان بإمكاني الذهاب إلى قرية قريبة من هنا، لكنهم لم يكن لديهم المسكنات التي تحتاجها.. ضع المسدس جانبًا، ودعني أساعدك، وبعد ذلك عندما تفتح الطرق، سأقوم بتوصيلك إلى السلطات المحلية، ويمكنك استئناف شفاءك في مستشفى الطيران.

نظر الرجل إلى الأرض ووضع المسدس في حجره. كان صوته ضعيفًا، مستنزفًا من الحياة.

- لماذا تفعلين هذا من أجلي؟

- لأنني ممرضة، ولأنك بحاجة إلى المساعدة.

"لأنني كنت بحاجة إلى أن أشعر بقيمتي مرة أخرى.. بحاجة إلى القيام بشيء مفيد".

- لست بحاجة إلى تسليمي إلى السلطات. يمكنني الاعتناء بنفسي.

- كما تشاء، هير "جراف"، أنا حقًّا لا أهتم. فكر في هذا المكان على أنه جناح في مستشفى. أنا هنا أقوم بعملي، وبمجرد رحيلك، لن أكون مسؤولة عنك.. اتفقنا؟

- اتفقنا، شكرًا لك، فرويلاين.

استرخى جسده. وفقد وجهه لون الحياة.

- على الرحب والسعة. لا بد أنك جائع. هل وجدت ما تأكله؟

- لم أصل إلى المطبخ.

- ما كنت لتجد الكثير هناك.

تنهدت "فرانكا" بعمق. ما زالت لا تعرف من هو، لكن لتلك المحادثة أن تنتظر. الآن هي بحاجة إلى أن تعود ممرضة مرة أخرى، وهذا شعور جيد في حد ذاته. مدت يدها إلى الحقيبة وأخذت زجاجة صغيرة من المورفين. لم يتكلم وهي تسحب الحقنة وتملأها بالسائل الصافي.

- هذا يساعدك على تحمل أسوأ الآلام. لديَّ ما يكفي للأيام الثلاثة المقبلة أو نحو ذلك، وبعد ذلك تعود إلى الأسبرين. قد تشعر بالدوار أو الإغماء أو النعاس، وسوف أضع إلى جوارك دلوًا في حال تقيأت، لكنك ستقضي الأيام القليلة القادمة في السرير على أي حال. لا يوجد سبب يجعلك تخرج منه.

- أتفهم هذا.

- أنت لست بسجين، وأنا في صفك. ستعرف ذلك في الوقت المناسب. لك مطلق الحرية في الذهاب بمجرد أن تفتح الطرق، أو يمكنك البقاء لفترة أطول قليلًا إذا كنت ترغب في مواصلة التعافي هنا.

- أشكرك.

- والآن، كيف سنتمكن من إعادتك إلى الفراش؟

- زحفت حتى هنا، ويمكنني أن أزحف إلى هناك.

- وكيف تتخيل أن تصعد إلى الفراش ثانيةً؟ لن تكون قادرًا على حمل نفسك.

- أستطيع أن أفعل.

- لديَّ فكرة أفضل.

دارت "فرانكا" خلفه وأمالت الكرسي الهزاز إلى الخلف بحيث رفعت ساقيه عن الأرض. خنق الألم بداخله وتوترت قبضته. وضعت يدها على كتفه.

- آسفة، ولكن عليَّ إعادتك إلى السرير أولًا، وبعد ذلك أعطيك المسكنات.

- إنه مجرد ألم بسيط، أنا بخير.

رفعت "فرانكا" يدها عن كتف الرجل ودفعت الكرسي الهزاز. أبقى المسدس في حضنه. لم تمد يدها إليه ولم تطلب استعادته. وجدت في دفعه صعوبة أكبر مما كانت تتوقع، وكان تقدمهما في العودة إلى غرفة النوم بطيئًا. ولحسن الحظ أنها على بعد عشرين قدمًا فحسب، وبعد عدة محاولات فاشلة، وصلا إلى السرير. حاول الرجل رفع نفسه، كانت ذراعاه القويتان تكافحان مع وزنه حتى أمكن له أن يباعد بينهما لترفعه من تحت إبطه، وساعدته في الصعود إلى الفراش. مد يده نحو المسدس ودسه تحت وسادته. من الأفضل السماح له بالاحتفاظ به، على سبيل إظهار أنها تثق به، وأنها ليست العدو. استلقى بينما يحاول أن يخفي أثر الألم من ملامح وجهه. كان يتصبب عرقًا ويلهث، فراحت تحضر له كوبًا من الماء قبل أن تعود وتعطيه الأدوية.

- سيستغرق مفعولها نحو عشرين دقيقة قبل أن تسري في جسدك، وبعد ذلك سأصنع جبيرة ساقيك صباح الغد. وفي غضون ذلك، سأحضر لك شيئًا تأكله قبل أن ينتابك أي غثيان.

أومأ الرجل برأسه. ابتسمت له قبل أن تعود إلى المطبخ وتأتيه بطبق فيه خبز طازج وقطعة جبن. تناوله في ثوانٍ قبل أن يسقط رأسه على الوسادة.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة.

- سأتركك الآن، حاول الاسترخاء والنوم جيدًا هذه الليلة. سنتحدث غدًا.

"سأكون مَن يطرح عليك الأسئلة".

أغمض الرجل عينيه، وبدأ مفعول الأدوية يسري فيه. ارتسم شبح ابتسامة على وجهه.

- تصبحين على خير، فرويلاين.

غطته بطبقة سميكة من البطانيات، وأطفأت مصباح الزيت، ثم أغلقت الباب خلفها وهي تغادر. لم تجد فائدة من إحكام غلقه بالقفل مجددًا. عليها أن تثق به، لأنها تعلم أنه لن يتخلى عن مسدس والدها.

حلَّ عليها التعب الذي كانت تنكره طوال اليوم، وذهبت إلى المطبخ وتناولت شريحة لحم وخبز. بقدر ما أرادت الذهاب إلى الفراش، بقدر ما كانت تعرف أن المدفأة بحاجة إلى مزيد من الحطب، وأن مخزون الحطب ينخفض بشكل خطير. أنهت وجبتها المتواضعة، واستجمعت قوتها وهي تعاود ارتداء قبعتها ومعطفها وقفازها وتخرج. لحسن الحظ، كان هناك ما يكفي من الخشب المقطَّع المتبقي في الشرفة الخلفية لضمان التدفئة طوال الليل. سوف تحتاج إلى المزيد من الحطب غدًا، ليكن ما يكون.

وبينما رقدت في الفراش، انشغل بالها بأمر "دانيال بيركل". كانت عيناه الزرقاوان الباردتان آخر ما رأته في مخيلتها وهي تستسلم للنوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان الكوخ باردًا عندما استيقظت. خمدت النيران خلال الليل، وأصبحت الغرف باردة مثل جليد. ملاذها الوحيد هذا التل من البطانيات، لكنها تعلم أنه ملاذ مؤقت. دفعها الجوع ورغبتها في الاطمئنان على الرجل إلى النهوض. تناولت معطفها المعلق بجانب السرير ووضعته على ثوب النوم قبل الخروج من غرفتها. لم تشعر بأنه استيقظ هناك في غرفة النوم الأخرى، فصنعت لنفسها وجبة إفطار من الكبد والخبز والجبن. انهمر الثلج غزيرًا مرة أخرى الليلة الماضية، حتى تكاد لا ترى السيارة في الخارج الآن. سيغطي آثار الأقدام على الأقل، ومع إغلاق الطرق لبضعة أيام أخرى، سيكون لدى الرجل بعض الوقت للتعافي من آلامه. كما توفر طبقات الثلج الإضافية بالخارج أيضًا بعض الحماية من أي زيارات غير مرغوب فيها من "بيركل". ربما يظن أنها عادت إلى "ميونيخ"، بحلول الوقت الذي يذوب فيه الثلج وتصبح الطرق مفتوحة.. كلها مجرد أمانٍ. لم يسبق لـ"الجيستابو" أن افترض أي شيء. ستحتاج إلى إتمام إعداد مكان الاختباء تحت ألواح الأرضية في أسرع وقت ممكن.

راحت "فرانكا" إلى غرفة الرجل، وفتحت الباب بحذر. لا يزال نائمًا.. يشخر.

"نم.. أيًّا كانت شخصيتك، فهذا أفضل شيء لك".

بقيت واقفة عند الباب لدقيقة أو دقيقتين، تستمع إلى صوت تنفسه، على أمل أن تسمعه يقول شيئًا بالإنجليزية مرة أخرى، يطمئن به قناعاتها، ولكنه لم يتفوه بكلمة.. بالإنجليزية أو الألمانية.. تركته. مهمة تدفئة الكوخ لا تستدعي الانتظار أكثر من ذلك.

كان الثلج على ارتفاع ثلاثة أقدام خلف الشرفة الخلفية. أخذت الزلاجة وسحبتها إلى الغابة، والبلطة في يدها. علمها والدها هذه الأشياء عندما كانت طفلة. وبرغم أنه رغب في صبي، فإنه أحبها جدًّا، ولكنه لم يدللها؛ علمها كيفية جمع الحطب وتخزينه وإيقاد النار فيه. وعلمها كيفية إطلاق النار ووضع الفخاخ والسلخ وإعداد الصيد للطهي والشواء. كما عرَّفها أيضًا على كتابات "جوته" و"هيسه" و"مان"، بالإضافة إلى رواية "ريمارك"، المحظورة الآن، "كل شيء هادئ على الجبهة الغربية". فكرت في والدها طوال الساعتين اللتين قضتهما في جمع الحطب.. قتله الحلفاء، والآن تترك واحدًا منهم نائمًا في كوخه. حاول عقلها التفريق بين الغريب القابع في تلك الغرفة وبين أولئك الذين أسقطوا تلك القنابل. كانت تعلم أن النازيين معتدون، لكن أين العدالة في قصف المدنيين؟ وقد لقي عشرات الآلاف من الأبرياء مصرعهم بالفعل، والغارات لا تتوقف. ولكن عدو عدوها صديقها. وعلى الرغم مما فعلوه، فإن الحق في صف الحلفاء، وهي تجد في مساعدة الرجل فرصة للانتقام من النازيين.

كدست "فرانكا" الحطب وراء الباب الخلفي في أكوام مفتوحة متقاطعة لضمان الحد الأدنى من وقت التجفيف. يجب أن يجف بسرعة، لأنه يبدو أن هذا الطقس الشتوي، مثل الحرب نفسها، يزداد سوءًا من بعد سوء.

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة صباحًا عندما عادت إلى غرفة نومه. فتح عينيه عندما دخلت. كانتا غائمتين تمتلئان ألمًا.

- كيف حالك الآن؟

- بخير، أعتقد أنني بحاجة إلى المزيد من المسكنات. نمت جيدًا طوال الليل، ولكنني أشعر أن مفعولها بدأ ينحسر الآن.

- لا بأس.

جهزت الحقنة واتجهت إلى السرير. أخرج ذراعه من تحت طبقة البطانيات السميكة ومدها لها. تلقى الجرعة دون أن ينبس ببنت شفة، وشاهدها وهي تدفع الإبرة في ذراعه دون أن يجفل.

أحضرت له وجبة خفيفة بعد ذلك وانتظرت حتى انتهى منها.

- سأضع ساقيك في الجبيرة الآن. هذا يمنحك فرصة أفضل بكثير للتعافي تمامًا، ولا ينبغي أن يكون الأمر مؤلمًا للغاية ما دُمت تحت تأثير المورفين.

لم يكن متيقظًا تمامًا، لكنه أومأ برأسه.

- سأضطر إلى غسل ساقيك أولًا؛ ثم أضع الجورب.

جاءت إجابته على شكل إيماءة أخرى، وعيناه مغمضتان.

سخنت "فرانكا" الماء وصنعت رغوة صابون جيدة في طست قديم وجدته تحت حوض المطبخ. أزالت الجبائر الخشبية البدائية وقررت أن تستخدم الخشب في نار تلك الليلة. غسلت النصف السفلي من ساقيه. تعلم أنه يحتاج إلى حمام كامل، لكن عليه أن يفعل ذلك بنفسه. خلعت الجورب الذي امتد من ركبتيه إلى كاحليه، ثم لفت ضمادات الشاش حول ساقيه. وبينما كانت تجهز الجبس الطبي، حاولت أن تتحدث إليه، لتجعله يشعر بمزيد من الراحة، وكذلك حتى تستأنس هي بصوت في صمت هذه الغرفة البارد.

- عملت ممرضة لمدة ثلاث سنوات في "ميونيخ"، في المستشفى الجامعي. رأيت الكثير من السيقان المكسورة. تفاقمت الإصابات مع استمرار الحرب. رأيت المزيد والمزيد من الفتية الذين كانوا في بداية حياتهم، ومستقبل كامل أمامهم، وقد فقدوا أرجل أو أذرع أو أعين. صاروا كسحًا. وبعد ذلك لم يعد الأمر يقتصر على الجنود؛ بل كان هناك نساء وأطفال، سحقت أجسادهم وهم نيام في أسرتهم أو حرقتها قنابل الحلفاء. الآلاف والآلاف منهم. لم تكن لدينا مساحة كافية لاستيعاب الجثث في المشرحة. كان علينا أن نضعها في الزقاق المجاور، فوق بعضها بعضًا.

صمتت لبضع دقائق بينما تغمس الشاش في خليط الجبس وتلفه حول ساقه.

- هل سبق لكِ العمل ممرضة هنا؟

- كلا، لقد غادرت إلى "ميونيخ" بعد تخرجي في الكلية. انتهزت الفرصة للخروج من "فرايبورج" بأسرع ما يمكن.

- لماذا أردتِ مغادرتها؟

اندهشتْ من نبرة صوته. كانت عيناه مفتوحتين، يحدق فيها.

- كنت صغيرة. انفصلت عن صديقي. أردت بداية جديدة. تركت مسؤولياتي تجاه عائلتي، وغادرت. لا أدري لماذا اعتقدت أن الناس في "ميونيخ" قد يكونون مختلفين.

- وهل وجدتهم مختلفين؟

- البعض منهم.

انتهت من الساق الأولى، وانتقلت إلى الأخرى.

- يبدو أنني أجيب على جميع أسئلتك بالرغم من أنني مَن وجدتك في الثلوج.

لم يجبها الرجل.

- لماذا هبطتم فوق الجبال، وماذا حدث للطائرة؟ لم أسمع أي صوت لانفجار. لماذا سقطت هناك ما لم تكن طائرتك قد تعطلت؟

استغرق الرد منه بضع ثوانٍ، وعندما فعل، كان صوته مترنحًا.

- آسف جدًّا فرويلاين، لكن لا يمكنني التحدث عن أسباب وجودي هنا. هذا يمكن أن يعرض مهمتي للخطر ويعرض الجنود الشجعان على الجبهة للخطر.

انشغلت "فرانكا" بساقه ولكنها اغتاظت.

- إذًا أخبرني على الأقل شيئًا عن نفسك، من أين أنت؟

- أنا من "كارلسهورست" في برلين. هل تعرفين المدينة؟

- ليست معرفة جيدة. ذهبت عدة مرات عندما كنت فتاة مع رابطة الفتيات. رأينا المعالم السياحية.. شارع "أونتر دير ليندن"، "الرايخ تاج"، قصر برلين..

- لا بد أنها كانت تجربة مثيرة لفتاة صغيرة أن تكون في قلب "الراي".

أنهت وضع الشاش وبدأت في ترطيب الضمادات في الجبس. كان جبس الساق الأخرى يجف بالفعل. مرت بأصابعها على سطح الجبيرة. كانت جيدة.

- هل تثق بي؟

- بالتأكيد، أنتِ مواطنة مخلصة لـ"الرايخ".

- لماذا صوبت المسدس نحوي الليلة الماضية إذًا؟

- لم أكن متأكدًا من مكان وجودي، تدربت على ألا أثق بأي شخص، والمخاطر كثيرة. ولكنني أتبين أنني أخطأت الحكم عليكِ الآن. أرى حقيقة شخصيتك. أنا

معجب بأي شخص يذهب إلى هذا الحد في مساعدة أحد أفراد جيش "الفوهرر". من الواضح أنكِ شخص يدرك قيمة كل جندي ونحن نسعى جاهدين لتحقيق النصر النهائي.

كادت "فرانكا" أن تضحك من كلامه. هل يعتقد حقًّا أنها مقتنعة بكل هذا؟

- لماذا لم تطلب مني الاتصال بأي شخص عندما كنت في المدينة؟ ماذا عن زوجتك وبناتك؟ هل يعرفون أنك على قيد الحياة؟

- هذا يمكن أن يعرض مهمتي للخطر. أؤكد عليكِ عدم إبلاغ أي شخص أنكِ رأيتني، ناهيك عن حقيقة أنني هنا.

راحت "فرانكا" إلى النافذة، وخطت على الفتحة الموجودة في ألواح الأرضية للوصول إلى هناك. أزاحت الستائر. الثلوج ظاهرة بقوة في الخارج.

- عاد الثلج ليتساقط مرة أخرى. سيغلقون الطرق لعدة أيام. ربما أسابيع. لن تذهب إلى أي مكان لفترة طويلة. عليك أن تبدأ في الوثوق بي. ربما أكون صديقتك الوحيدة.

حملت الطست، وألقت فيه بقايا المستلزمات الطبية، وخرجت من غرفة النوم، وأغلقت الباب خلفها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مر يوم ثم التالي، واستمر الرجل تحت تأثير المورفين معظم الوقت، كانا لا يتكلمان إلا قليلًا. خرج من سباته في اليوم الثالث. شدة ألمه تتراجع، وقد أعطته آخر جرعة مورفين في ذلك الصباح. الساعة الثانية بعد الظهر، بابه مغلق، لكنها تخيلت أنه يسمع برامج الإذاعة التي تستمع إليها، وكانت محطات إذاعة يمنعها النازيون، إذا كان شخصًا مخلصًا إلى هذا الحد، فلماذا لم يعترض؟ ما كانت تفعله غير قانوني، ويكفي لإعادتها إلى السجن. جلست على الكرسي الهزاز، وفي حجرها كتاب لا تقرأه. حاولت التفكير بمنطق أنه كما يقول عن نفسه حقًّا، لكن في كل مرة تفعل فيها هذا، تظهر لها صورته وهو يتحدث في أثناء نومه بالإنجليزية. لو كان طيارًا أو حتى جاسوسًا، لكان قد طلب منها الاتصال بشخص ما عندما كانت في المدينة. وحتى لو كان ما قاله صحيحًا، وكان متوترًا بشأن اكتشاف "الجيستابو" لمهمته، فكان ينبغي أن يكون هناك شخص ما يريد أن يتصل به. بالتأكيد هناك من يريد أن يعرف ما إذا كان حيًّا أم ميتًا. فركت عينيها في إحباط. وضعت عدة قطع من الخشب في النار وراقبت لبضع ثوانٍ ألسنة اللهب وهي تبتلعها. يبدو أن عليها القيام بأمر حتمي.

كان مستيقظًا يحدق في السقف لما فتحت الباب.

- أريد أن أخبرك مَن أنا. إذا كنت أنت كما تقول، فمن المحتمل أنك ستشعر بالاشمئزاز مني، وسيكون الأسبوع أو الأسبوعين المقبلين زمنًا صعبًا عليك.. لكن عليَّ أن أخبرك. ربما بعد ذلك تصارحني بدورك.

- فرويلاين، ليس هناك ما يدعوكِ للفضفضة. كلما قلت معرفتنا ببعضنا بعضًا، كان ذلك أفضل. أنا في غاية الامتنان لكل ما فعلتِه من أجلي، لكن لا يمكنني أن أسمح لكِ بإفساد مهمتي.

- أي مهمة؟ أي مهمة يمكن أن يقوم بها طيار حربي في جبال الغابة السوداء خلال فصل الشتاء؟ أعتقد أنك سقطت هنا بالخطأ. أعتقد أيضًا أنك تخطط للهرب بمجرد أن تكون بصحة جيدة مرة أخرى. هذا شأنك.. ما دمت لن أتعرض لخطر.

بدا الرجل مصدومًا.

- لن أفعل أي شيء يؤذيكِ. ليس الآن وبعد أن عرفتك..

- هل لديك أي فكرة لماذا كنت أخلع ألواح الأرضية عندما استيقظت؟

لم يجبها الرجل، فأردفت.

- كنت أرفع ألواح الأرضية حتى أتمكن من إخفائك. تحسبًا لقدوم "الجيستابو"، وهو ما سيفعلونه حتمًا، وحتى لا يجدوك مستلقيًا في هذا السرير.

- فرويلاين؟

- "الجيستابو" سيأتي. صادفت صديقًا قديمًا، ضابط في "الجيستابو". لم أخبره أنك هنا، لكنه سيأتي، خاصة إذا كانوا يبحثون عنك بالفعل.

كانت تتكئ على السرير وتستند بيديها إلى البطانية.

- سأخبرك مَن أنا، وفي نهاية قصتي، وإذا كنت لا تزال تصر على أنك طيار في الجيش الألماني، فسوف أعتني بك هنا في الأيام القليلة المقبلة، ولكن عليك أن ترحل عندما يسمح الطقس بذلك. وإلا.. يمكنك الوثوق بي، ويمكنني مساعدتك.

اكتفى الرجل بالصمت. وجهه شاحب. مد يده إلى كأس الماء التي تركتها له بجوار السرير، ثم رمق الفتحة الموجودة في ألواح الأرضية. ملأ الصمت الأجواء بينهما، ولكنه كان قد حسم أمره.

- احكي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

لم يجد كثيرون في تولي مستشار جديد الحكم في العام 1933 أي جديد يلقون له بالًا.

تولى قبله أكثر من مستشار، وبالكاد تحسنت أوضاع البلاد. الحياة لا تزال صعبة. والكساد العالمي يزداد سوءًا، وبدا أن ألمانيا كانت من بين الدول الأكثر تضررًا. ذكرت الصحف إن أكثر من خمسة عشر مليون شخص، أي 20 في المائة من السكان في ذلك الوقت، يعيشون على حد الكفاف. ورؤوا في ذلك الرجل الجديد، "هتلر"، مجرد شخص عنجهي مغرور، لا يعدو أن يكون مجرد مزحة سيئة. لم يحقق حزبه الاشتراكي الوطني أكثر من 37 في المائة من مجموع الأصوات، ولكن الرئيس عينه مستشارًا. وفي كلتا الحالتين، فإن "العريف النمساوي الصغير"، كما وصفه خصومه السياسيون، لا يمكن أن يستمر طويلًا. سوف يخرج هو وجماعته أصحاب القمصان البنية من السلطة بمجرد أن تحل الجمهورية الأزمة الداخلية التي فصلت بين السلطات السياسية. وإلى جانب ذلك، لم يكن بإمكان "هتلر" أن يفعل حقًّا ما قاله في خطاباته حول نيته تفكيك الجمهورية وإعادة بنائها من جديد، أو عن تصميمه على الانتقام من هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية، أو ما قاله عن اليهود. وتجاهل المراقبون التصريح الذي نشره أحد المتحدثين باسمه في الصحف:

"يجب أن تدركوا أن ما حدث في ألمانيا ليس تغييرًا عاديًّا. لقد ولَّى زمن البرلمان والديمقراطية، وبدأت حقبة جديدة".

وفي الأسبوع نفسه، تعلمت "فرانكا" كلمات جديدة مثل "ليمفوما".. سرطان الغدد الليمفاوية و"متقشي".. ورأت والدها يبكي لأول مرة في حياتها. لم يفهم "فريدي" حقيقة ما يجري، وعانقته والدته بقوة وضمته إلى صدرها وهو يبتسم لها تلك الابتسامة الجميلة. حثتهم على التحلي بالشجاعة. لقد مروا بالكثير بالفعل. المستقبل يحمل أشياء رائعة فقط. لسوف تهزم هذا السرطان، ولسوف تستمر بهم الحياة معًا. كانت العائلة في مستهل حياتها، ولم تكن قد بلغت الأربعين من عمرها بعد. لا يهم ما قاله الأطباء، سوف تتغلب على الأزمة بالإيمان، تمامًا كما فعلت من قبل، وتمامًا كما حدث عندما أنجبت "فريدي"، وتمامًا كما كل شيء مر به "فريدي" في حياته بعد ذلك.

ولكن السرطان انتشر.

وفي غضون أسابيع، عزز "هتلر" سلطته. ألغيت حقوق حرية التعبير والصحافة والتجمع العام، ومن ثَمَّ انتهت التجربة الألمانية مع الحرية والديمقراطية. وتنازل المواطنون الألمان عن السلطة المطلقة لـ"هتلر" والنازي دون تذمر. ويبدو أن الناس لم يشعروا بأنهم مضطهدون في النظام الجديد. ولم يكن لديهم إيمان كبير بنظام ديمقراطي مختل وسيئ التصميم. وشرع الأطفال في ارتداء شارات اليد

النازية في المدرسة، وأصبحت التحية الجديدة بمد ذراعهم في أثناء الصياح "هايل هتلر" إشارة إلى الولاء للحزب.

كان الحماس للقيادة التي وعدت بإعادة ألمانيا إلى مكانتها كواحدة من أعظم أمم العالم عارمًا، وشعرت "فرانكا" به، شعر كل شاب تعرفه به. بدا الأمر وكأن الشعب الألماني على شفا شيء بالغ الأهمية ولا يُصدق. تلقى النظام النازي الجديد دعمًا من جميع الجهات، حتى أن "فرانكا" قرأت في صحيفة أن منظمة تسمى "رابطة اليهود القوميين الألمان" أعربت عن دعمها للنظام النازي الجديد.

عايشت "فرانكا" التغيير على الفور. ظهرت طبقة حاكمة جديدة في المدن والبلدات في جميع أنحاء ألمانيا، وكانوا حريصين على الكشف عن وجودهم. بدأت مجموعة كانت مغمورة وغير ملحوظة في تأكيد وجودها، مدعومة بشعارات الحزب في عروات بدلاتها، وبطاقات عضوية الحزب في جيوبها، والصليب المعقوف على أكمامها. وارتدى "جوزيف دونيتز" - وهو بقال محلي - زي جندي العاصفة خلال العمل. وفي غضون أسابيع، تولى رئاسة الحكومة المحلية دون شكليات أو مشكلات الانتخابات. وأقصي رئيس فريق الإطفاء المحلي - وهو صديق صدوق لوالد "فرانكا" - من وظيفته وحل محله رجل إطفاء ضئيل الشأن كان معروفًا بإدمان الكحول ولكنه عضو في الحزب. وتحدث الموظفون الذين لهم حيثية حزبية بحدة إلى الإدارة، التي استمعت لهم باحترام. وعلى كل مستوى من مستويات الحياة الاجتماعية والسياسية، تجلت ثورة النازي على أنها نوع من تسرب الحثالة إلى مستويات أعلى.. إلى القمة.

نجحت عزيمة والدة "فرانكا" في إطالة عمرها إلى ما بعد الحد الزمني الذي وضعه الأطباء لها. وبالنسبة لـ"سارة"، كانت عبارة "أمامك ستة أشهر" تعني "سوف ألتقيك العام المقبل لأجعلك تعتذر عن كلامك". أرادت أن تقضي وقتها في الخارج، في الملعب الطبيعي الرائع الذي يبدو أنه يمتد دون حدود في كل مكان من حولهم. اشترى والد "فرانكا"، "توماس"، الكوخ الجبلي من عمه "هيرمان"، الذي استخدمه كنزل خلال رحلاته لصيد الغزلان والخنازير الحمراء. وانهمكت "فرانكا" ووالدتها في تجديد الكوخ بينما حرص "توماس" على جعله مناسبًا للسكن في الأشهر الأكثر دفئًا. أمضوا معظم صيف عام 1933 هناك، مستمتعين بوقتهم معًا. وكبرت "فرانكا" على مشهد عائلتها جالسة خارج الكوخ، بينما تعود مع أصدقائها من نزهة في الجبال. وفي تلك الليالي الصيفية الدافئة عندما تغرب الشمس خلف الكوخ، تكتسي السماء والأشجار باللون البرتقالي الممتزج بالحمرة، وتعانق رائحة الطعام فوق الموقد الدخان المنبعث من غليون والدها. كانت قطعة من الجنة. وفي نهاية ذلك الصيف السعيد، وعندما أعلنت "سارة" أنها ستحيا حتى تعايش هذه التجربة مرة أخرى في العام المقبل، احتضنها "فريدي"، والتزمت "فرانكا" ووالدها الصمت. بدا أن "فريدي" فقط هو الذي يرى أن بإمكانها تحقيق هذا الأمل، ولكن الزمن سيثبت أنه على حق.

تغير حال المدرسة؛ كان النازيون مصممين على أن يكونوا حزب الشباب. واستهدفوا التحكم في ولاءات الشباب الألماني. واتضح تأثير الثورة النازية عندما

عادت "فرانكا" إلى "فرايبورج" بعد ذلك الصيف. العلم النازي في كل فصل، وكذلك صور "أدولف هتلر"، لتحل صورة قائد الأمة محل الصلبان على الجدران. وأصبحت صورة رجل كان مغمورًا قبل عام موجودة الآن في كل فصل دراسي. سحبوا من مكتبة المدرسة كل الكتب التي اعتبروها مخربة للفكر، وتراكمت في الفناء. سألت "فرانكا" أمين المكتبة عن نوعية الكتب التي صادروها، فأخبرها إن أعضاء الحزب المحليين قد سحبوا أي كتب أو روايات تعبر عن الفكر الليبرالي، أو تتحدث عن تقرير الناس لمصيرهم بأنفسهم، وليس بيد "الفوهرر". بينما تتحدث الكتب الجديدة عن كيفية انتشال النازية لألمانيا من هاوية جمهورية "فايمار". لغة هذه الكتب الجديدة طفولية بسيطة، ولكن لم يشتكِ أي من المعلمين. أصبحوا جميعًا أعضاء في الرابطة الوطنية للمعلمين الاشتراكيين. وحرصًا منهم على الاحتفاظ بوظائفهم، وتحت ضغط من الحكومة المحلية، بدؤوا في مناصرة أفكار النازية الجديدة. وكان معلم "فرانكا" المفضل، هير "شتيجل"، من بين القلائل الذين احتجوا على الأساليب الجديدة، وأصر على أن تظل دروسه كما كانت قبل وصول الحكومة الجديدة إلى السلطة. واستمر على ذلك لأسبوعين، وعندما ذهبت "فرانكا" وبعض الطلاب الآخرين لزيارته في منزله القديم خارج البلدة، وجدوه خاويًا. لم يروه مرة أخرى. وبعد ذلك، تفاخرت "نينا هيس" بأنها وشت به لدى أحد القادة النازيين المحليين. وتلقت مكافأتها وشاحًا أحمر يدل على ولائها للنازي، وكانت ترتديه كل يوم لبقية العام الدراسي.

لم يرغب أحد في التخلف عن الركب، وتركت "فرانكا" نفسها لتيار حماس فجر جديد للشعب الآري. وبدأ النازيون في استخدام هذا المصطلح، "الآرية"، لوصف خصائص الألمان المثاليين. وكانت "فرانكا" بلا شك واحدة من الشخصيات الخارقة التي ينطبق عليها وصفهم. شعرت بمتعة والحكومة تؤكد لها أن شعرها الأشقر وعينيها الزرقاوين مثاليان، وأن هذا يجعلها ألمانية مثالية. لم تكن تعرف أي أعراق أخرى، ولكن النازيين أصروا على أنها وصديقاتها من دم راقٍ، وأنهن متفوقات على الأخريات. شعرت بأنها جزء من شيء مهم.

اتخذت قرار الانضمام إلى رابطة الفتيات الألمانيات بسهولة؛ فكل صديقاتها في الرابطة بالفعل. كانت تبلغ من العمر 17 عامًا تقريبًا، أي أكبر قليلًا من أن تصبح عضوة، ولكنهم وعدوها بأن تكون قائدة مجموعة. لم تكن تريد أن تُستبعد، وإلى جانب ذلك، لم يكن هذا الوقت المناسب للبقاء على الهامش؛ هذا وقت العمل الجريء. ولذلك انضمت، على الرغم من اعتراضات والديها، اللذين بدوا حذرين من الحزب النازي على جميع المستويات. "فرانكا جربر" نموذج للشابة الرائعة التي تنبأ "هتلر" بأنها سوف تساعد ألمانيا في الهيمنة على العالم، ولن تسمح لأي مفاهيم قديمة أن تقف في طريقها. كانت تؤدي دورها من أجل قضية الشعب الألماني.

اعتزت "فرانكا" بزيها الرسمي المكون من بلوزة بيضاء مع ربطة عنق سوداء فضفاضة، مثبتة بإحكام بشعار الصليب المعقوف على تنورة باللون الكحلي. تمشي فتيات الرابطة بالطريقة نفسها التي يمشي بها الأولاد، شباب "هتلر" الذين كانوا

معجبين بهن. أدت تدريبات رياضية وذهبت في رحلات طويلة، وكثيرًا ما كن يخيمن تحت سماء مرصعة بالنجوم، ويغنين الأغاني التي تمجد "الفوهرر" ويشتقن لليوم الذي يقدمن فيه أبناء أقوياء للمجهود الحربي في المستقبل. صرن أخوات تجمعهن أهداف مشتركة وجهود مركزة. شعور رائع أن تكوني موضع قبول وتقدير وتفوق.

كان "دانيال" قائدًا ضمن شباب "هتلر"، وقاد التدريبات بينما يركضون في أرجاء البلدة مرتدين الصليب المعقوف، وينشدون "العجوز يجب أن يهلك، الضعيف يجب أن يموت". وكانوا بحق نخبة الشباب الألمان؛ رشاقة وخفة وقوة وسرعة، مثل الكلاب السلوقية، وعزيمة فولاذية، تمامًا كما حلم بها "هتلر". و"دانيال" هو الأفضل بينهم جميعًا وقاد الأعضاء الأصغر سنًّا بحزم صارم عادل. وفي خجل، تحدثت جميع الفتيات عنه وهمست باسمه وهو يمضي في طريقه. التقى هو و"فرانكا"، كما يلتقي طرفا مغناطيس؛ إنهما تجسيد لكل ما هو قوي وجميل في ألمانيا الجديدة. أصبح والده - الذي كان عاطلًا عن العمل قبل ثورة النازي - عضوًا قياديًّا في المجلس المحلي. لم تره "فرانكا" أبدًا بدون دبوس النازي على صدره، أو شارة الذراع النازية التي تزين عضلة ساعده. وجد في ابنه تحقيق أحلامه، ووعد بحياة جديدة للجنس الآري.

كان "دانيال" صارمًا مع الفتيان، لكنه احتفظ بالحنان كله لها وحدها. طموح يتطلع للمستقبل وجاد وحازم. الصديق المثالي للأوقات المثيرة التي تعيشها. وجدت نفسها تنجذب إليه.. أعمق وأعمق. ومع نهاية الدراسة، قبل التخرج مباشرة، أخذته إلى المنزل لمقابلة والديها لأول مرة. "دانيال" محترم ومهذب. ارتدى زي زعيم شباب "هتلر" على العشاء وألقى التحية النازية عندما فتح والد "فرانكا" له الباب. التقته والدة "فرانكا"، وهي تبذل قصارى جهدها لتبتسم بينما كان يحييها. شقوا طريقهم إلى المائدة، وجلست "فرانكا" بجانبه. جلس "فريدي" في مكانه المعتاد في نهاية المائدة. حياه "دانيال" بإيماءة. ومع ذلك، لم يكن خجولًا أمام والديها، وتحدث عن خططه للانضمام إلى "الجيستابو"، الجهاز الذي تشكل حديثًا، ليكون نخبة قوة الشرطة، وتحدث عن الحاجة إلى حماية الثورة من أعداء الوطن من الجواسيس والمتخاذلين. كانت تلك هي المرة الأولى التي تسمع فيها "فرانكا" عبارة "أعداء الوطن". وحافظ والداها على سلوك مهذب معه، ولكنها رأتهما يرمقان بعضهما بعضًا في أثناء العشاء في شكوك. وعرفت ما سوف يحدث بعد مغادرته المنزل.

حمل والد "فرانكا" "فريدي" إلى فراشه. وانتظرت والدتها حتى عاد إلى الطابق السفلي قبل أن تجلس مع "فرانكا". وضعت يدها الشاحبة على ساق "فرانكا". بدت متعبة طوال الوقت، جمالها باهت بسبب ذلك العدو الكامن بداخلها. عيناها المحتقنتان بالدماء جادتان ولكن هادئتان.

- ما مدى جدية علاقتك مع "دانيال"؟ أعلم أنكما تلتقيان كثيرًا.

- أحبه يا أمي، أنتِ كنتِ أكبر بقليل مما أنا عليه الآن عندما قابلت أبي.

جلس "توماس" وهو يفرك عينيه ليطرد عنهما النعاس، قال لها:

- كنت في الثانية والعشرين، ووالدتك في التاسعة عشرة، ولكنك في السابعة عشرة وما زلت في المدرسة. نتساءل عما إذا كان "دانيال" يصرف انتباهك عن دراستك. أنتِ الآن منخرطة للغاية في تلك الرابطة. ويبدو أنكِ تقضين كل وقت فراغك معهن.

- أحب الرابطة، وأشعر أنني جزء من مهمة جليلة. أنتما لا تعرفان أي شيء عما يحدث في هذا البلد. عالقان في العالم القديم للقيصر وأغبياء "فايمار" الذين أضاعوا كرامة ألمانيا.

- عالم قديم؟ مَن علمك هذه الأشياء؟

قاومت "فرانكا" مشاعر متعاطفة تستحثها لطمأنة والدتها. لم يكن لشيء من هذا القبيل أي علاقة بالوطنية وما يجب القيام به.. هذه فرصة سانحة لإقناع والديها بأن على كل ألماني واجب الإسهام في الثورة النازية. قالت والدتها:

- نحن قلقان عليك.

- بشأن ماذا؟ لديَّ رفقة الفتيات الأخريات في الرابطة، حتى أساتذتي جميعهم يعبرون عن مجد الحركة الجديدة. يبدو أن الجميع كذلك.. سواكما.

قال "توماس" بصوت خفيض:

- احكي لي إذًا عن ثورتكم المجيدة.

- ليس عليكما سوى إلقاء نظرة على الإحصائيات في الصحف، "هتلر" قضى على الكساد. وتنخفض معدلات البطالة إلى مستويات لم يكن أحد يحلم بها قبل وصول "الفوهرر" إلى السلطة. أصبح العامل الألماني منتجًا مرة أخرى. بالتأكيد هذا إنجاز يستحق الثناء.. أليس كذلك؟

- أجل، ولكن فكري في كيفية تنفيذ ذلك. بدأت عجلات الصناعة تدور من جديد، ولكنها صناعة الحرب؛ "هتلر" يأخذنا إلى طريق الحرب. وتلك الإحصائيات التي تتحدثين عنها لا تشمل النساء أو اليهود، فهما مجموعتان طردتا من القوة العاملة.

- "هتلر" يبني ألمانيا القوية من جديد.

- لصالح الشعب؟ أم لصالح النازيين؟ هذا مسار نهايته حرب.

- إنهم يشيدون بـ"الفوهرر" في جميع أنحاء العالم. أطلعتنا "إنجي"، قائدة فصيلتي، على مقال في الصحيفة، وصف فيه "ديفيد لويد جورج"، رئيس الوزراء البريطاني خلال الحرب الأخيرة، "هتلر" بأنه زعيم عظيم. إنه يتمنى أن يكون للبريطانيين رجل دولة مثله.

قالت "سارة":

- يبدو لي كأنه أحمق.

وقال والدها:

- أنا أعرف النازيين أكثر منه. إنهم ذئاب تفترس الشعب الألماني، وأنا خائف "فرانكا"؛ أخشى تأثيرهم عليك، كونك مع فتى مثل "دانيال" لن يؤدي إلا إلى تفاقم هذا التأثير.

- لقد وجدت مكاني داخل الثورة يا أبي. يضع النازيون سياسات تصب في مصلحة جميع الألمان.. بما فيهم أنت.

بادرتها "سارة":

- وماذا عن المرأة؟ لقد مُنعت من دخول العديد من الوظائف. وماذا عن اليهود؟ لقد أقصوهم عن المجتمع الألماني.

- لا يهمني اليهود. سيجدون مكانهم اللائق بهم في مجتمعنا الجديد.

- ألم تستمعي لخطب "هتلر"؟ هذا الرجل الذي تتبعينه ينشر بفخر خطاب كراهية اليهود. وماذا عن أخيكِ؟ ما المكان المناسب له في هذا العالم الآري الجديد المثالي؟

- لا أعرف أي شيء عن ذلك. أعتقد أننا خضنا ما يكفي من النقاش السياسي الليلة.

تركتهما، وقد تجدد عزمها على اتباع طريق النازية. لم تكن لتدع أفكارهما الغريبة تعيقها. هذا وقتها وليس وقتهما.

وفي اليوم التالي، وبينما يحتضنها "دانيال" بين ذراعيه القويتين، سألها عما جرى بعد العشاء.

- سارت الأمور على ما يرام. يرى والداي أنك شاب مستقيم وشريك مثالي بالنسبة لي. أنت نموذج الشاب الآري النازي.

كانوا يشجعون "فرانكا"، مثلها مثل غيرها، على الإبلاغ عن آراء وأفكار الآباء؛ فلا بد من استئصال كل فكر معارض من جذوره. وكانت تعلم أنه سيبلغ السلطات المحلية بأي كلمة تقولها له. وقررت أن تتناول العشاء مع والديه من الآن فصاعدًا.

أثبتت "سارة" أن الجميع عدا "فريدي" كان مخطئًا، وعاشت بالفعل حتى صيف عام 1934. وعلى الرغم من أن "فرانكا" كانت مشغولة بنشاطها في الرابطة، فإنها حاولت الذهاب إلى كوخ العائلة بقدر ما تستطيع. كان جسد "فريدي" ينمو، لكن عقله ظل غارقًا في طفولته، كما كانوا يعرفون. اكتسب بحلاوة طبعه وطهارة روحه قلب كل من التقاه. كان مثاليًّا، ولم يمسه الشر الذي يحوم حوله. زاد ارتباطه بـ"سارة" مع تدهور صحتها. وجميعهم ما زال يأمل في المعجزة التي وعدتهم بها، ولكن مع مرور الوقت، بدت إمكانية تحققها بعيدة. لم تحضر "فرانكا" الكثير من تلك الأجواء الشاعرية معهم في الصيف الماضي؛ كانت منشغلة دومًا مع الرابطة، وهناك الكثير من الصغيرات اللائي احتجن إلى التوجيه من فتاة ذات خبرة والتزام، مثلها. وأيقنت أن والديها يتفهمانها، حتى لو عبرا عن رفضهما لذلك.

ومع نهاية الصيف، أصبحت "فرانكا" قائدة فصيلة. غابت والدتها عن الحفل الذي استلمت فيه وشاحها، فقد كانت مريضة جدًّا في ذلك اليوم. ولكن "دانيال" حضر،

وأخذ يهتف ومن خلفه الجميع لها، ساطعًا تحت الشمس.

مرت تلك الأشهر القليلة الباقية من حياة والدتها مؤلمة في جمالها، وبائسة في عجائبها. ذوت والدتها من دون معاناة. وأمضوا آخر عيد ميلاد معًا، ثم جاء العام الجديد بواقع لا يرحم. أرادت "سارة" أن تكون في المنزل. وجاءت شقيقاتها مع عدد كبير من الأطفال، ولكنهن عدن في النهاية إلى "ميونيخ". تشبثت "سارة" بالحياة، متحدية التوقعات، وعندما جاءت النهاية أخيرًا.. جاءت فجأة. كانت "فرانكا" تأمل بطريقة ما؛ لا، بل كانت متيقنة، أن الأطباء كانوا مخطئين، وأن المعجزات يمكن أن تحدث.

احتضرت "سارة" وسط عائلتها في صباح ذلك اليوم شديد البرودة. تذكرت "فرانكا" جدها وهو يبلغها أن الأمر متروك لها لرعاية "فريدي" الآن، وأن شقيقها لا يمكن أن يفهم حقًا طبيعة ما يجري حوله، ولكنها كانت تعلم أنه كان مخطئًا. جلس "فريدي" بجانب الفراش، واضعًا رأسه على صدر والدته، لا يبكي ولا يتحرك أبدًا. كان يعرف بالضبط ما تحتاجه، ولم يبخل عليها به. لا أحد يعرف ماذا يقول أو يفكر أو يفعل.. وحده مَن كان يفهم حقًا.

طلبت "سارة" التحدث مع "فرانكا" وحدهما، فغادر الآخرون الغرفة. يبزغ ضوء الصباح باهتًا من خلال النافذة ليسقط شعاعه الأبيض على بشرة والدتها الشاحبة. أصبح شعرها رماديًّا الآن، وتحولت النار في عينيها إلى جمر. يدها باردة في يد "فرانكا"، التي لم تكن تبكي. قالت وهي تضغط على يد "فرانكا" بقوة أدهشتها:

- ابنتي الجميلة.. أنا فخور جدًّا بكِ، وسعيدة للمرأة القوية والناضجة والأم التي ستصبحين عليها. سوف تصبحين ممرضة رائعة. لا تسمحي لأي شخص بأن يملي عليكِ ما يريده أو أن يطوع شخصيتك أو روحك. أنتِ تعرفين ذلك. تذكري دومًا أنك ابنتي، فتاتي الجميلة الذكية. سأكون معكِ دائمًا. لن أرحل عنكِ مطلقًا.

كفكفت "فرانكا" دموعها حتى تتمكن من رؤية وجه أمها.

- لا تدعي أفكار النازية الجديدة تغيرك، ولا تسمحي للكراهية بأن تمزق روحك.. تذكري مَن أنتِ.

أقيمت مراسم الجنازة بعد خمسة أيام، وحضرها جميع أفراد رابطة "فرانكا"، بالإضافة إلى معظم شباب "هتلر" في المدينة. ارتدت "فرانكا" زيها الرسمي، واحتضنها "دانيال" وهي تبكي، وأصداء كلمات والدتها الأخيرة تتردد في عقلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مرت بقية أيام العام الدراسي ضبابية، وبدا الصيف أجوف بائسًا. حاولت عائلتها استعادة حلاوة الأوقات التي أمضوها في الكوخ مثل فصول الصيف الماضية، لكن "فرانكا" وجدت مزيدًا من الراحة في رفقة الفصيلة التي تقودها الآن. ومع رحيل والدتها، كان على والدها أن يأخذ إجازة من العمل في المصنع لرعاية "فريدي". لم يكن من المتوقع أن تتخلى "فرانكا" عن جميع التزاماتها لرعاية شقيقها الأصغر. لقد ساعدت حيثما استطاعت، ولكنها اليوم أقرب إلى دخول الجامعة. لديها حياتها

الخاصة لتعيشها، وقضيتها الخاصة لتكرس نفسها لها. ولطالما شجع والدها استقلاليتها، لذلك سمح لها بالتنصل من التزاماتها تجاه أسرتها وتجاه أخيها. وبدأت الجامعة في سبتمبر 1935. بدأت دراستها و"دانيال" معها في كل خطوة على الطريق. وفي تلك الأوقات، كان قد بدأ تدريبه في "الجيستابو".

أصبحت حياتها العائلية مهشمة، وكان الوقت الذي تقضيه "فرانكا" في المنزل مؤلمًا. أرادت الابتعاد عن الذكريات المؤلمة لوفاة والدتها فهي تطاردها هناك. وأدركت "فرانكا" أن "فريدي" استمد قوته من والدتهما، فمهما حاول والدها، لن يتمكن أبدًا من تعويضها بالنسبة له. لا يزال "فريدي" على شخصيته المبتهجة، نورًا ساطعًا في الظلام، ولكن جسده خانه أكثر فأكثر.

في أكتوبر من عام 1935، اشترى والدها كرسيًّا متحركًا لـ"فريدي"، كإجراء مؤقت، على الرغم من علمهما أنه لن يمشي مرة أخرى على الأرجح. كان "فريدي" سعيدًا بوسيلة التنقل الجديدة، واعتبرها لعبة. وكثيرًا ما خرجت به "فرانكا" عبر شوارع المدينة، حيث كان يلوح جذلًا لكل من يراه في الشارع. وبادله الجميع التحية والابتسامات. أعضاء الحزب هم الاستثناء الوحيد، إذ كانوا يتبخترون وقد شدوا صدورهم، ويلوحون بأذرعهم ودبابيسهم على طيات قمصانهم، ويبدون انزعاجهم من سلوكه البهيج. واعتادت "فرانكا" أن تحتقر نظراتهم.

وفي وقت لاحق من ذلك الخريف، جاءها والدها. كانوا قد انتهوا للتو من تناول العشاء ورفعوا الأطباق. لم تعد وجبة العشاء كما كانت في الأيام الخوالي. أصر والد "فرانكا" على إعداد الأطباق نفسها التي كانت أمها تعدها، ولكنه افتقر إلى براعتها في الطهي. كانت تقرأ لـ"فريدي" إحدى القصص الخيالية التي أحبها كثيرًا. تهالكت صفحات الكتاب واهترأت، ومع ذلك لم يمل ليلةً من سماع القصص نفسها مرارًا وتكرارًا. شغَّل والدها الراديو وضبطه على إحدى المحطات السويسرية التي كانت تبث الأخبار بقدر من الدقة، وجلس بجانب ابنته وابنه.

- أشكرك على أنك لم تبلغيهم بأنني أستمع إلى محطات أجنبية.

- أوه.. ولكني لم أكن لأفعل ذلك أبدًا يا أبي.

- أعلم أنهم يضغطون عليكِ حتى تخبريهم بكل ما أفعله، وبما أن "دانيال" يستعد للعمل في "الجيستابو".. فإنني أدرك قدر الضغوط عليكِ.

تذكرت "فرانكا" كلمات قالها "دانيال" منذ أسبوع.. "الشعب الألماني هو عائلتك، وولاؤك له وحده".

عرفت "فرانكا" من كلامه أنه يريد منها الإبلاغ عن شيء ما، وأن تعطيه معلومات يسعد بها أسياده الجدد، لكنها لم تتفوه بكلمة واحدة. تعلم أن والدها يمكن أن يُسجن بسبب الاستماع إلى محطات الراديو الأجنبية، أو لقراءة الكتب التي أصر على الاحتفاظ بها على الرغم من القوانين الجديدة، أو بسبب تعليقاته حول النظام. هناك الكثير من الأشياء. العديد من الفتيات اللاتي تعرفهن أبلغن بالفعل عن والديهن؛ أمضى والد "جيلدا شميت" أسابيع في السجن بسبب تعليق مهين أدلى به عن

النازيين، و"الجيستابو" يراقبه الآن. أبلغتهم "جيلدا" أنه يصف "هتلر" بداعية حرب.

قالت "فرانكا" وهي تستحضر كلمات مدربيها:

- "الفوهرر" حريصٌ على أن يدعم الجميع نواياه الشجاعة. إنه مصمم على تحديد أعداء الدولة حتى يُثقَّفوا بالأساليب الصحيحة لخدمة الأمة الألمانية.

- هذا كلام لا يبدو مثل كلامك.

- ما الذي تعنيه؟

- هذا كلام "دانيال" أو أحد النازيين الذين يتجولون في المدينة يخطبون في الناس.. تذكري مَن أنتِ يا "فرانكا".

- أنا أعرف مَن أنا يا أبي.

- لديَّ شيء أريد أن أريكِ إياه.

وضع الصحيفة على المنضدة أمامها. يتحدث العنوان عن القوانين الجديدة التي وُضعت لإخضاع اليهود في ألمانيا.

- قال النازيون إن اليهود لا يمكن أن يكونوا مواطنين ألمانًا. لقد جُرِّدوا من جنسيتهم ولم يُسمح لهم بالتزاوج مع الألمان بعد الآن. هذه هي الثورة الشجاعة التي تعتنقين مبادئها.

استغرقت في أفكارها بضع ثوانٍ قبل أن ترد.

- أنا متأكدة من أن "الفوهرر" يعرف مصلحة ألمانيا. سألت بعض القائدات في الرابطة قبل أيام. أكدن لي أنه من الأفضل التركيز على الصورة الأكبر وترك التفاصيل لـ"الفوهرر".

- واقتنعتِ؟

لم تجبه "فرانكا". التقطت كتابًا آخر لتقرأ منه لأخيها.

قاطعها والدها:

- لديَّ شيء آخر لأعرضه عليكِ.

تناول صحيفة أخرى.

- النازيون هم مَن ينشرون هذه الصحيفة أيضًا، ولكنها تختلف عن الأخرى في أنها أكثر صراحة في الكشف عن نواياهم.

تناولت "فرانكا" الصحيفة. سبق لها أن لمحتها في أكشاك بيع الصحف لكنها لم تقرأها من قبل. في الصفحة الأولى كاريكاتير لرجل يهودي؛ شعره الطويل يتدلى فوق بدلته الداكنة، وخيوط من اللعاب تنسال من أسنانه الحادة. يحمل خنجرًا معقوفًا بينما ينقض على امرأة آرية جميلة المظهر نائمة في فراشها، فوق الرسم عنوان

رئيس.. "اليهود نكبتنا". شعرت "فرانكا" بالدموع في عينيها. التفتت إلى "فريدي"، لكنه كان يلهو بقطار لعبة.

- هذا انحطاط.. انحطاط سخيف.

- هذه صحيفة توزع مئات آلاف النسخ يوميًّا، ولقد امتدح "هتلر" في مناسبات عديدة نزاهتها الصحفية.

- لا أعرف ماذا أقول.. النظام ليس مثاليًّا، ولكن..

لم تجد مزيدًا من الكلمات. لم يكن لديها ما تقوله.

- لم نكن نربيكِ حتى تغضي الطرف عن الظلم. علمناك دائمًا أن..

- أن أتذكر دومًا مَن أنا.

- بالضبط، وأعتقد أن السبب الذي دفعك إلى التعلق بهذا النظام بسهولة هو رغبتك في تغيير العالم، تمامًا مثلما هي رغبة العديد من أبناء جيلك، ولكن عليكِ أن تدركي حقيقة ما أنتِ مشتركة فيه.

- أنا لا أتفق مع السياسات تجاه اليهود، لكنني متأكدة من أن "الفوهرر" لديه خطة معقولة بالنسبة لهم.

- معقولة؟ هل هذا ما تصفين به حرمانهم من الجنسية؟ هل سمعتِ عن مكان يسمى "داخاو"، "فرانكا"؟

هزت رأسها بالنفي.

- ولا أنا.. حتى وقت قريب. إنها بلدة سوق صغيرة، على بعد خمسة عشر ميلًا من "ميونيخ"، ليست بعيدة عن مسقط رأس والدتك. كان لديَّ اجتماع عمل مع رجل من هناك الأسبوع الماضي. أخبرني عن معسكر أسسه النازيون.

- أي نوع من المعسكرات؟

- إنه مكان يُعدُّ جريمة بحق الشعب الألماني. قام الرجل الذي التقيت به بتوريد بعض مواد تشييد مباني جديدة هناك، في عام 1933، وكان هناك عدة مرات. المعسكر هو الجبهة الأولى في الحرب التي يخوضها النازيون بالفعل ضد شعبهم. "داخاو" سجن للأعداء السياسيين للنظام، الاشتراكيون، والشيوعيون، وقادة النقابات التي حظرها النازيون، ودعاة السلام، وبعض رجال الدين والقساوسة المنشقين. هناك الآلاف يعملون ويتضورون جوعًا حتى الموت، ويحرسهم وراء أسوار من الأسلاك رجال قوات الأمن الخاصة الذين يحملون شارات الجماجم على خوذهم.

- هذا غير ممكن. هل يعرف "الفوهرر" بهذا؟

شعرت "فرانكا" بنفور يتصاعد في داخلها، لكنها ما زالت تتساءل عما سيفعله "دانيال" وقادة المجموعة الآخرون عندما يعلمون بأمر كهذا.

- كيف لا يعرف؟ يتخذ "هتلر" كل قرار يدار من خلاله هذا البلد، ويمكنه إلغاءه في أي وقت يريد. أعتقد أنه سيكون هناك المزيد من المعسكرات في المرحلة المقبلة.

- مَن هو هذا الرجل الذي قابلته من "داخاو"؟ لماذا ينشر هذه الأكاذيب الشريرة؟

- إنها ليست أكاذيب. افتحي عينيك يا "فرانكا". اعرفي حقيقة مَن تتعهدين لهم بالولاء.

أغمضت "فرانكا" عينيها. شعرت كما لو أن رأسها يكاد ينفجر. سالت دموع ساخنة على وجهها وهي تنهض.

- لا أصدق أنك تفوهت بهذه الأكاذيب المثيرة للاشمئزاز أمام "فريدي"، الذي لا يمكن أن يفهمها. لدينا مسؤولية تجاهه يا أبي، يجب أن نكون أفضل من هذا.

اندفعت إلى خارج المطبخ نحو غرفتها، وسموم الشك تسري في جسدها وعقلها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تكن الكلية سوى امتداد لنظام الدعاية النازي الذي اجتاح "فرانكا" وصديقاتها في المدرسة الثانوية. كان المثقفون على شاكلة اليهود نفسها ويستحقون المعاملة نفسها. وجرى فصل مئات الأساتذة في جميع أنحاء ألمانيا لكونهم ليبراليين أو يهودًا. ومن بينهم نخبة من أعظم العلماء في البلاد والعديد من الحائزين على جائزة "نوبل". وأصبحت "الثقافة" كلمة سيئة السمعة، وتحولت الجامعات إلى أبواق لوزارة الدعاية. ولم تكن هناك أنشطة طلابية باستثناء التجمعات التي يرعاها النازيون والمحاضرات الحماسية التي تمجد في النظام. وجدت "فرانكا" في محاضرات تخصصها في علم وظائف الأعضاء البشرية ملاذًا من الخطاب السائد عن التطهير العرقي والقومية والعرق المتفوق.

فارقت "فرانكا" الرابطة. تساءلت القائدات الأخريات عن سبب قرارها، لكنها أقنعتهن بأنها لم تعد تجد الوقت الكافي للاعتناء بدروسها في الكلية وبشقيقها. كانت محقة بشأن الكثير من العمل على عاتقها في الكلية والمنزل، ولكن كان هناك أمر آخر. فهي لم تستطع التوقف عن التفكير في قصة معسكر "داخاو"، فقد كانت قصة كاشفة لأمور كثيرة. أين ذهب "روزنباوم"، جارهم في الشارع؟ أين هير "شفارتز" وعائلته، ومعلمها القديم هير "شتيجل"؟ لقد اقتيدوا للاستجواب من قبل "الجيستابو"، ولكنهم لم يعودوا أبدًا، ويبدو أن لا أحد يهتم لمصيرهم. وعرفت "فرانكا" أن مجرد ذكر أسمائهم كفيل بأن يلقي بها في السجن، لذلك احتفظت بالأسئلة والشكوك لنفسها. بإمكانها الوثوق بوالدها، لكن لا أحد آخر غيره.. حتى "دانيال".

تحول تفاني "دانيال" للقضية إلى هوس تحت وصاية أساتذته في كلية الحقوق. كان "الجيستابو" قوة شرطة أولًا وقبل كل شيء؛ بمسارات الالتحاق نفسها، الأجور نفسها، ومدة الخدمة نفسها، لكن قوة الشرطة، مثل أي شيء آخر تقريبًا في البلد، تغيرت إلى حد بعيد. انغمس "دانيال" في التعاليم النازية. أصبح الوجود معه معاناة أصعب فأصعب. يتحدث عن أعداء في كل مكان عن الشيوعيين واليهود. لم يكن

أحد خارج نطاق شكوكه، تملكته الكراهية إلى حد منعه من أي بهجة. أصبح من المستحيل أن تستمر في حبه، وانهارت المشاعر التي كانت تشعر بها تجاهه وماتت. كان ذلك في فبراير 1936، وكانت "فرانكا" قادمة من عشاء مع "دانيال". كان قد أصر على دفع فاتورة العشاء كما كان يفعل دائمًا، وهو الأمر الذي زاد من شعورها بالذنب بشأن ما يتعين عليها القيام به تجاهه.

- صامتة أنتِ الليلة.

- عقلي مشغول.

- بم؟ بوالدتك؟ أم بأخيكِ مجددًا؟

- بنا نحن، "دانيال".

ارتسمت على وجهه علامات الدهشة، وهي لم تعهده مندهشًا من قبل.

- أعتقد أننا نتخذ مسارين مختلفين في هذه الحياة.

- ماذا تقصدين؟

توقفا عن المشي. تدرك أن أعين المارة تسلطت عليهما، ولكنها تدرك أيضًا أن هذه هي فرصتها السانحة. تأهبت للجزء التالي من المواجهة، وهي مستعدة الآن للنطق بالكلمات التي ظلت كامنة بداخلها لعدة أشهر.

- أعتقد أننا بحاجة إلى بعض الوقت بعيدًا عن بعضنا بعضًا. لست متأكدة من أنني أريد..

- هل تودين الانفصال عني؟ لماذا؟ لا يمكنك فعل ذلك.

- أنت شاب حازم وشجاع، ولديك الكثير لتقدمه..

- لا تكوني سخيفة، نحن لن نفترق. سنتزوج في غضون سنوات قليلة، وسنستقر هنا وننشئ أسرة. لقد قررنا ذلك معًا.

- ولكنني لا أريد هذا الآن.

- حسنًا، لا بأس.. ولا تفكري في أنني سأوافق أن أعود إليكِ عندما تأتين إليَّ متوسلة عما قريب.. أيتها الصفيقة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بعد بضعة أسابيع، تلقى "دانيال" خطابًا من خدمة عمال "الرايخ" واستُدعي لمدة ستة أشهر للعمل دون أجر نيابة عن "الرايخ" في مزرعة في "بافاريا". بدأت تتلقى رسائله بعد أسابيع قليلة. أخفى والد "فرانكا" - الذي لم يشأ أن يبدي لها سروره بعد انفصالها عن "دانيال" - الخطابات في البداية لكنه منحها إياها في نهاية الأمر؛ هي راشدة ويمكنها اتخاذ قراراتها بنفسها. أخذت "فرانكا" الرسائل وذهبت إلى غرفتها. مزقت المغلفات وفتحتها وتركتها تسقط أرضًا بينما تلتهم عيناها الحروف بين يدها. أعرب "دانيال" عن أسفه، وأنه مستاء في الوقت ذاته.

لم ترد عليه، ولكن رسائله استمرت. يعمل "دانيال" في مزرعة ضخمة، ويسكن مع عشرات آخرين. تحدث عن شعوره الرائع في خدمة "الرايخ"، والرفقة التي نشأت بينه وبين زملائه العمال، الذين بلغوا التاسعة عشرة. دفعها شعور بالفضول لقراءة كل حرف في رسائله قبل أن تلقي بها في النار. عرفت من إصراره أنه لن يتركها، حتى لو تركته.

لم تتغير عادات والدها في القراءة منذ بداية الدولة النازية. تم الآن حظر العديد من الكتب المتربة والبالية التي احتشدت في أرفف الكتب في مكتبه وتنذر بتعرضه لاستجواب من "الجيستابو" المحلي، وحتى بقضاء بضع ليالٍ في السجن. هز كتفيه عندما ذكَّرته بالحظر، ووعدها برفعها من الأرفف. مرت أسابيع وبقيت الكتب. أخذت "فرانكا" الأمر على عاتقها وكانت منهمكة في تنظيف الأرفف عندما عاد والدها إلى المنزل من العمل.

- ما الذي تفعلينه؟

- أفعل ما كان عليك فعله منذ زمن. أنا لن أدعك تعرض نفسك للسجن أو الطرد من العمل بسبب بعض الكتب.

- إنها ليست مجرد كتب.. أترين هذا؟ إنه كتاب لـ"هاينرش هاينه".. ألا تعرفينه؟

- أعرف "هاينه".. كل مَن يعرف الأدب الألماني يعرفه.

- ومع ذلك فقد منع النازيون كتبه. قرروا أن تكون أشعاره التي لا مثيل لها ممنوعة أو كأنها لم تكتب من الأصل. أتذكر أنني قرأت كتاب أغانيه معكِ وأنت جالسة على ركبتي.

أومأت "فرانكا" برأسها. تذكرت تلك السطور المتلألئة على الورق، بينما يدندن والدها بالكلمات في أذنيها.

كان يتنقل بين صفحات الكتاب.

- هل تنوين حرقها كما فعل النازيون؟

وجد صفحة كان يبحث عنها وأشار إلى سطر بينما كان يحدق فيها.

- كلا يا أبي.. سوف أضعها أسفل فراشي.

- ألا يبدو من العبث أن شاعرًا عظيمًا يصبح فجأة وكأنه لم يوجد، لمجرد أنه ينتمي إلى العرق الخطأ.. لأنه يهودي؟ لقد مات الرجل منذ ما يقرب من ثمانين عامًا.

- هذا عبث بالطبع، لكنهم يهتمون لآرائه السياسية. وأنا أحاول فقط أن أحميك يا أبي.

- اقرئي هذا السطر الذي أشير إليه. اقرئيه.

- يبدؤون بحرق الكتب، وفي النهاية سيحرقون الناس.

قال والدها:

- ربما بدؤوا بالفعل.

ناولها الكتاب وغادر دون أن ينبس ببنت شفة.

في تلك الليلة، وبعد أن نام "فريدي"، كانت تجلس على سريرها عندما أحضر لها والدها بقية الكتب.

- أصبحت هذه الكتب ثمينة الآن. وأنتِ محظوظة بقراءة كتب يُمنع كثيرون من مجرد اقتنائها. ولماذا هم ممنوعون؟ لأن النازيين يعرفون أن عدوهم الحقيقي هو الفكر المستقل، في عقل وطني ألماني حقيقي يشكك في أساليبهم ويتحدث ضد مظالمهم. لا أقترح عليكِ أن تتجولي بين الناس وتعظيهم بكتابات "هاينه"، ولكن احتفظي بالأفكار التي يتحدث عنها في قلبك، واعملي بها. حللي بعقلك ما يجري، وتذكري أنه كان قبل "هتلر" والنازية. لقد فهم الطبيعة البشرية وطبيعة الشعب الألماني، ولهذا السبب، لا تزال كتاباته مهمة، ولهذا يخافه النازيون.

بعد أسبوعين، وصلت قوات "هتلر" إلى منطقة "راينلاند"، وهي منطقة في ألمانيا على الحدود الفرنسية من المناطق منزوعة السلاح بموجب معاهدة "فرساي"، في ازدراء صارخ للقانون الدولي. وفي تلك الليلة، جلست "فرانكا" تقرأ الأشعار التي كتبها "هاينه" منذ ما يقرب من مائة عام. يقول الشاعر إنه بمجرد كسر القاعدة الأخلاقية للقانون في ألمانيا، تولد مرة أخرى وحشية المحاربين الهائجين القدامى الذين تحدث عنهم شعراء الشمال. وهذا الغضب الجديد، هزيم رعد الغضب الألماني، لن يكون مثل أي شيء شهده العالم من قبل.

استلقت "فرانكا" على الفراش، وهي تدرك أن النبوءة تحققت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

منذ ذلك الحين، بذلت "فرانكا" جهدها لتنأى بحياتها عن النازيين. انغمست في عملها المدرسي، ولم تهتم كثيرًا بالأعلام المنتشرة في كل مكان والملصقات على جدران الممرات، والتي تتباهى بعظمة النظام. كانت هناك أمور لا يستطيع النازيون مسها. الموسيقى والفنون والكتب التي تخبئها الآن تحت سريرها، والمساحات الخلابة وسط الغابة والجبال التي تحيط بها. كانت تمشي لمسافات طويلة في نهاية كل أسبوع مع صديقاتها، ولكنها تبتعد عندما يشرن إلى "أدولف الوسيم" ويتغزلن وهن يضحكن وتتورد خدودهن خجلًا. قيل إن النساء يفقدن الوعي في وجوده، ولكن "فرانكا" وجدت صعوبة في تصديق هذه الجاذبية المزعومة. وعمد بعض الفتية في البلدة إلى تربية شوارب صغيرة تقليدًا لـ"الفوهرر"، لكن حتى أكثر مؤيدي النظام تعصبًا كانوا ينفرون من شارب كهذا. ولم تدم هذه الموضة طويلًا.

تغلغلت الأيديولوجية والبارانويا النازية في كل علاقة إنسانية، لدرجة أنه لم يعد من الممكن الوثوق بالأصدقاء وتشكك أفراد الأسرة الواحدة في بعضهم بعضًا لصالح القضية. انهار المجتمع القديم قطعة قطعة. حتى أكثر مؤيدي النظام التزامًا كانوا تحت المجهر النازي في جميع الأوقات. وفي "فرايبورج"، كما هو الحال في كل

مدينة وبلدة في ألمانيا، عُيِّن ممثل للنازي في كل مبنى سكني وفي كل شارع. كانوا معروفين باسم "بلوك فارت"، وكان "بلوك فارت" الشارع الذي تقطنه "فرانكا" هو الهير "دوكين"، وهو بستاني انضم للحزب في العشرينيات عندما لم يكن أكثر من مجرد مجموعة من أصحاب الأصوات الصاخبة الذين يعتنقون الدعاية المعادية للسامية ويسخرون من "مجرمي نوفمبر"، الذين وقعوا الهدنة في نهاية الحرب العظمى. كان هير "دوكين" جارًا يحمل رخصة أن يكون فضوليًّا، ومتطفلًا بأجر ويتمتع بقوة مرعبة. وكان يستمتع بذلك. الآن هو رجل مهم، يحترمه ويخافه جيرانه. وظيفته الإبلاغ عن أي سوء سلوك يشهده أو أي إشاعات قد تُنقَل إليه. وقد أبلغ عن جيران لمجرد أنهم نسوا تعليق علم الصليب المعقوف في المناسبات الاحتفالية، أو أنهم لم يشاركوا في حفل بالحماس المطلوب. وأدركت "فرانكا" أن الأفكار التي في رأسها بمنزلة جرائم ضد الدولة، فكانت تبتسم في وجه "دوكين" كلما رأته في الشارع. هناك العشرات من "البلوك فارت" في جميع أنحاء المدينة وفي المناطق الريفية المحيطة بها. وأصبح الكوخ الصيفي الملاذ الوحيد.

عاد "دانيال" من الخدمة أكثر التزامًا من أي وقت مضى بقضية الوطن، وتجاه "فرانكا". انزعجت من محاولاته المتعثرة لكسب ودها، ولكنها كانت حذرة من محاولات آخرين غيره الآن. وهي تعرف القوة التي يمتلكها "دانيال"، ولم ترغب في إثارة المشكلات لأي فتى مسكين رغب فقط في أن يصطحبها لتناول البيرة أو العشاء. أوضح لها "دانيال" ذات مرة، في محاولة مضللة لإقناعها، أن "الجيستابو" هو القوة الحقيقية في الدولة الألمانية. انتشر آلاف العملاء في جميع أنحاء البلاد، جنبًا إلى جنب مع "البلوك فارت" الذين يقدمون تقاريرهم باستمرار عن كل مواطن ألماني. قريبًا سيكون لدى "دانيال" القدرة على تدمير حياة مَن يشاء لمجرد نزوة. وكان انتقاد النظام، أو محاولة التعبير عن نقد، كافيًا لتبرير الاعتقال أو السجن أو التعذيب أو حتى الموت. حتى أن "فرانكا" اندهشت من أنها انجذبت إليه ذات يوم من الأساس، وازدادت تصميمًا على ألا يطالها من جديد.

تساءلت عما كان يمكن أن يكون عليه لو لم يفسده النازيون. ماذا كان سيصبح لو كرس مواهبه لقضية عادلة؟ لقد كانت مأساة، واحدة من ملايين المآسي المتزامنة التي تحدث في جميع أنحاء ألمانيا.

أمضت معظم صيف عام 1938 في الكوخ مع عائلتها، وكان هذا هو المكان الوحيد الذي تحدثوا فيه بحرية. لم يكن أي مكان آخر آمنًا. ظاهريًّا، كان "توماس جربر" مواطنًا مخلصًا، وعلى الرغم من أنه لم يكن نازيًّا ملتزمًا بأي حال، فقد دفع مستحقاته من حيث المال والاحترام للحزب. المقاومة عديمة الجدوى؛ فهي تعني السجن. كانت مسؤوليته تجاه عائلته تحتم عليه ذلك، خاصة أن أي اعتراض عديم الجدوى ويفاقم مشكلاتهم. أعرب بعض أصدقاء العائلة عن الآراء نفسها في همسات خفية. لم يشترك الجميع في الأساليب النازية، ولكن لم يتحدث أحد عن ذلك. أولئك الذين لم يتفقوا مع النازيين ذهبوا لأداء أعمالهم اليومية وحسب، كما فعل "توماس" و"فرانكا". حاولوا العيش بشكل مستقل عن نظام يعتبر الاستقلال أمرًا خطيرًا. يعلمون أن العقاب في انتظارهم عند التصريح بأي كلمة. قالها "هتلر"

بنفسه: "يجب أن يعلم الجميع أنه إذا رفع يده لضرب الدولة، فإن الموت المؤكد سيكون نصيبه". ليس هناك من شيء يمكن القيام به.. إنه الكبت. وتعلمت "فرانكا" أن تبدو هادئة بينما داخلها يضج الدنيا صراخًا. الكلمات الشجاعة التي قالتها هي ووالدها خلف الأبواب المغلقة مجرد كلمات. وعندما أخبرته أن عليهما محاولة إجراء نوع من التغيير، ضحك في وجهها.

- مستحيل، النازيون مثال للدقة، وفي حين أنهم غير متعلمين ومتخلفين، إلا أن لديهم موهبة فطرية للدعاية والقمع. النظام الذي أقاموه مثالي في وظائفه المختلة. الجميع جاسوس على الجميع، حتى يمكنني أن أحصي على أصابع يد واحدة الأشخاص الذين يمكنني الوثوق بهم في هذا العالم بأسره.

- ولكن ما فائدتنا إذًا؟ بالتأكيد هناك شيء يمكننا فعله، مهما كان صغيرًا.

- لن يأتي الاحتجاج بخير. فكرة حرية التعبير ميتة تمامًا. كيف يمكننا تحقيق أي شيء حتى وإن كان الاختلاف العلني مع أي قرار يتخذه "الفوهرر" يعد جريمة خيانة؟ في الأسبوع الماضي، سُجن رجل لمدة عامين لرفضه فكرة طرد جميع الأطفال اليهود من المدرسة. عامان!

انتبه إلى الحزن في وجه ابنته، ولكنه استمر.

- أنا فخور بك لرغبتك في المقاومة، "فرانكا"، لكن أفضل شيء تفعلينه هو الانتظار. لن يدوم حكم النازي إلى الأبد. إنهم يقودوننا نحو الحرب. إنه أمر لا مفر منه وبديهي؛ مثل شروق الشمس في الصباح أو حلول الظلام في الليل. سوف يستغرق الأمر الكثير للإطاحة بهم، لكنهم سيخسرون في النهاية. وعندما يحدث ذلك، سيكون انتصارنا في بقائنا. ما دمنا نظل صادقين مع أنفسنا ولا ندعهم يخيفون أرواحنا، فسوف ننتصر.

- ولكن بأي ثمن يا أبي؟ لقد سئمت شعور الخوف طوال الوقت.

- سوف نتجاوز هذا، كعائلة. أعدك. وروح والدتك تراقبنا كل يوم.

رغبت "فرانكا" أن توافقه الرأي، ولكنها لم تعد تشعر بوجود والدتها في حياتها. الذكريات تنساب من بين أصابعها.

انهار مظهر التحضر النازي الزائف في ليلة صار التاريخ يسميها "ليلة تهشم الكريستال". استغلوا مقتل دبلوماسي ألماني على يد صبي يهودي عمره سبعة عشر عامًا لإطلاق العنان للغضب المكبوت، وشن هجمات عنف كامل شامل. نظمت وزارة الدعاية سلسلة من التظاهرات التي انتشرت في جميع أنحاء البلاد مثل السرطان. ومن سطح منزلها، شاهدت "فرانكا" برعب متزايد الغوغاء والجنود وهم يهاجمون الشركات المملوكة لليهود. شارك كل نازي في البلدة في رمي الطوب أو القنابل الحارقة للترهيب أو حتى القتل. ورأت "دانيال" وهو يوجه الغوغاء إلى مخبز "جرينبيرج". وسحبوا هير "جرينبيرج" إلى الشارع وضربوه حتى لفظ أنفاسه.

في اليوم التالي، تحدثت الصحف عن الانتقام المبرر لشعب غاضب. أعرب الصحفيون عن سعادتهم بأن اليهود تلقوا أخيرًا العقوبة التي يستحقونها على سنوات من انتهاكات ضد الشعب الألماني. وحذرت الافتتاحيات من الآراء شديدة الحساسية للأشخاص الذين لا يوافقون على تلك الأعمال البطولية للجماهير. وسخروا من الآراء الليبرالية بوصفها حساسة وعاطفية. وطلب الصحفيون من قرائهم إبلاغ السلطات المختصة عن أي مواقف من هذا القبيل، وهاجموا أي ألماني لا يعترف بأن البلاد تعيش أيامًا مجيدة.

بعد يومين، فرضت الحكومة غرامة قدرها مليار مارك على اليهود الألمان مقابل كل ما حدث في ليلة الكريستال من تلفيات.

اقتيد عشرات آلاف اليهود إلى معسكرات الاعتقال؛ وهي سجون غامضة لم يتجرأ الألمان على التحدث عنها. ذكّرها والدها بالقصص التي سمعها عن المعسكر الأول في "داخاو"، القصص التي تيقنت من صدقها الآن. كشف النازيون عن طبيعتهم الوحشية لكنهم لم يفقدوا دعم مناصريهم. لا يزال شباب "هتلر" يغنون أغانيهم وهم يركضون في المدينة. ولا تزال عضوات رابطة الفتيات الألمان يعلقون أعلام الصليب المعقوف ويضحكون على "أدولف الوسيم"، رئيس الوحوش. ولا يزال أتباع النازية يتجولون في المدينة ورؤوسهم مرفوعة وشاراتهم النازية تتلألأ في الشمس. ولا يزال الملايين في جميع أنحاء البلاد يستقبلون بعضهم بعضًا بتحية "الفوهرر". بدا أن الشعب الألماني لا يزال مفتونًا بالقبضة التي سيطر عليه بها النازيون.

استمرت الحياة، على الرغم من الظلم والفظائع التي أصبحت الآن من مفردات الحياة اليومية في ألمانيا. أنهت "فرانكا" تدريبها وحصلت على وظيفة في "ميونيخ". بطريقة ما، كان الناس لا يزالون يتخرجون في الكليات ويبحثون عن وظائف ويفكرون في التنقل بين المدن. ومع كل ما فرضه النظام النازي عليهم، كانت عائلة "جربر" لا تزال تحاول الاستمرار، ولكن حتى هذا المسعى كان على وشك التغيير.

فقد ازدادت حالة "فريدي" سوءًا.

في نهاية ذلك الصيف من عام 1939، تحدثوا معه عن المستشفى؛ لم يعد بإمكانهم تجنب الموضوع بعد الآن. كانت الشمس تغرب، لتشع ضوءًا أثيريًّا على أفق غير محدود، وتغلف أوراق أشجار الغابة في كل مكان حولها بهالة من الذهب. "فريدي" على كرسيه المتحرك، يقارب طوله الآن طول "توماس"، ولكن أطرافه نحيفة ومنثنية، وساقاه مشلولتان تقريبًا. يلهو بقطار لعبة، يحاول تسييره على فخذيه. أصوات قهقهاته تتقطع كل بضع ثوانٍ.

- "فريدي"؟

- أبي، ما بك؟ لماذا تبكي؟

- لأنني أحبك كثيرًا يا "فريدي".

التفت لينظر إلى "فرانكا".

- كلانا يحبك.

- أكثر من أي شيء آخر في العالم.

- وأنا أحبكما.

عانقته "فرانكا"، وشعرت بذراعيه الخفيفتين تتشبثان بها، وبقبلة ناعمة لثم بها خدها. حاولت التحدث لكنها لم تستطع. لم تصدق أنهما كانا بصدد نقل مسؤولية "فريدي" لمستشفى، لم تستطع أن تتصور أن يحدث هذا لو كانت أمها على قيد الحياة. سأله أبوه:

- بماذا تشعر؟

- شعوري رائع.

- ألا تؤلمك ذراعاك؟

- كلا، أشعر أنني بحالة جيدة.

"فريدي" سعيد دائمًا، هذا ما يعرفه. لم يستطع العالم أن يفسد روحه. بقيت ابتسامته خلال الألم، وخلال الإقامة في المستشفى، وخلال أشياء لا يمكن لأحد أن يتحملها. ابتسامته لم تفارقه. الجميع يعرفه في زياراته المنتظمة إلى المستشفى. وأحبته الممرضات، وتوقف بعض الأطباء الذين يحملون شارات نازية على صدرهم عن صده علانيةً، وعن التعبير عن استيائهم من الاضطرار إلى علاج شخص اعتبرته الحكومة "أحمق لا يستحق الحياة".

مالت "فرانكا" نحوه. الشمس لا تزال دافئة حتى مع حلول الغسق. بدا وكأنه يعلم أن شيئًا ما يجري. كان حدسه أكثر حدة من حدسها. همت بأن تحدثه، لكنه بادرها.

- "فرانكا"، أنا أحبك، أنت جميلة جدًّا، أنت أفضل أخت.

- عليَّ أن أتحدث معك عن أمر ما.

اقترب "توماس" منهما.

- لقد ازدادت حالتك سوءًا هذه الأيام، وليس لدى أبي الوقت الكافي لرعايتك.

- أنا آسف على ذلك يا أبي.

- كلا.. لا تقل ذلك يا "فريدي" أبدًا.. هذا ليس ذنبك. أنت أفضل صبي في العالم، وأفضل ابن لأي أب. نحن محظوظان لأنك في حياتنا.. ملاك على الأرض.

سألته "فرانكا":

- أنت تحب الممرضات، أليس كذلك؟

- بالفعل.. لطيفات جدًّا.

- وأنت تعلم أنني سوف أصبح ممرضة مثلهن؟

- أجل.

- منحوني فرصة رائعة للعمل في مستشفى في "ميونيخ"، تعرف "ميونيخ".. بلد ماما.. صحيح؟

- أجل، أتذكر المصاصة التي اشتريتها من هناك.

ضحك "توماس":

- طبعًا، عندما زرناها منذ عامين. اشترينا مصاصات وتناولناها في الحديقة.

- سوف أذهب للعمل هناك.

- ولكنها بعيدة بالقطار.

- بالفعل، بعيدة عن هنا. سيكون عليَّ أن أعيش هناك.

- سوف تكونين أفضل ممرضة في المستشفى كلها. سوف تساعدين الكثير من الناس.

- أتمنى هذا.

كانت تجد الكلمات بصعوبة. ولاحظ "توماس" ذلك، فتحدث:

- ترغب الممرضات والأطباء في هذا المستشفى في أن تعيش معهم، في غرفة خاصة، لكي يمكنهم الاعتناء بك.

- لم يعد بابا قادرًا على رعايتك وحده الآن.

- هل ستأتون إليَّ؟ لن تتركوني هناك وحدي، أليس كذلك؟

- أوه.. طبعًا لا، سوف آتيك كل يوم، و"فرانكا" ستأتي كلما أمكنها ذلك.

- لن يتغير أي شيء. ما زلنا نحبك كل الحب. وسوف نبقى معًا. سوف نعود لنعيش معًا عما قريب.

فكرت "فرانكا" في هذه الكلمات عدة مرات بعد أن قالتها. واقتنع "فريدي"، كما اعتاد أن يقبل بأي شيء تقوله، بابتسامة وقلب مفتوح للحياة. ولكنها تعلم أن الزمن والظروف سيجعل منها كاذبة، وهذا آخر شيء تريده على الإطلاق، خاصة في عينيه. انتقل "فريدي" إلى دار الرعاية في الأسبوع التالي. تركاه للممرضات وابتعدا. وانتقلت "فرانكا" إلى "ميونيخ" في الثالث من سبتمبر، وهو اليوم الذي أعلنت فيه بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا. وبحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى عملها في "ميونيخ"، تحققت نبوءة والدها، وانطلق غضب المحاربين القدامى المجنون عارمًا في أنحاء أوروبا.. مرة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل السابع

يحبس خزان الآلام بداخله رياح عاتية. ذلك أول ما شعر به عندما فتح عينيه مع قدوم الصباح. مد يده بحثًا عن زجاجة الأسبرين، ووضع حبتين صغيرتين من تلك الحبوب البيضاء في فمه قبل أن يبلعهما بماء بارد لدرجة أنه اندهش من عدم وجود طبقة من الجليد فوقه. تساءل عن زجاجة الدواء. هل هي نوع من أنواع مصل الحقيقة النازي؟ لا يهم. كان الخضوع لها هو الخيار الوحيد، وهو يحتاجها. لم تكن هناك طريقة أخرى.

رسم الثلج شبكة عنكبوت من الجليد على زجاج النافذة. كان الباب مفتوحًا، لكن لم يكن هناك صوت في غرفة المعيشة. فكر في أن ينادي عليها، ليسألها عن حالها، أو ليستفسر عن نار المدفأة، لكنه لم يفعل. أعاد الأغطية على وجهه حتى عينيه. استحضر الحكاية التي روتها له في الليلة السابقة، والنظرة المسكونة في عينيها وهي ترويها. إذا كانت من "الجيستابو"، فإنها بحق ممثلة بارعة. وضع يده على وجهه ليطرد النوم من عينيه. يجب عليه أن يتخذ عما قريب قراره بإخبارها الحقيقة. ما زالت ساقاه تمنعاه من الحركة، سيبقى عالقًا هنا ما دامت الثلوج تهطل، وقد يستغرق ذلك أسابيع. ماذا يمكنه أن يفعل بينما هو أسير الفراش؟ على بعد أميال من هدفه؟ شعر بأنه عديم الفائدة وربما كان التعذيب والموت مصيره في النهاية.

مد يده تحت وسادته، يتحسس برودة المسدس. لقد أنقذت حياته. بغض النظر عن أي شيء آخر، كانت هذه هي الحقيقة، وقتلها جريمة. لكن ما الجريمة في خضم حرب؟ لقد قتل رجالًا، ورأى نظرة الرعب في عيونهم عندما أدركوا أنهم على وشك أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة. كان من السهل أن يتجاهل ما فعله، ويفقد الإحساس بأنه قد أنهى حياتهم، ويخفي أفعاله في ضباب الحرب، لكنه استمر يفكر في هؤلاء الرجال كثيرًا، في أغلب الأيام، كانوا أعداء، كانوا سيقتلونه. السبب الوحيد الذي منعهم هو أنه كان أسرع، أقوى، وأفضل منهم. فكر في الرجل الذي قتله عندما علقت الرصاصة في مسدسه، واستحضر شعوره بدم دافئ يسيل على قبضتيه بينما يغرس السكين في صدر الرجل. تذكر ذلك الصوت وهو يسحب السكين. كان يعلم أنه لن يكون هناك مفر من هذا الرعب.. لا مفر على الإطلاق.

أعادته الجلبة في غرفة المعيشة إلى الحاضر؛ قطع حطب توضع في المدفأة، وبعدها صوت وضع الخشب الذي يوشك أن يشتعل. ماذا لو أنها صادقة؟ ولكن ما فرص أن يعثر عليه شخص لم يقع تحت تأثير التنويم المغناطيسي الجماعي الذي صنعه "هتلر"؟

تعلم في تدريبه ضرورة القضاء على النازيين. وكانت مهمته ذات أهمية قصوى، ويجب القضاء على أي شيء أو أي شخص يقف في طريقه. لا شيء أكثر أهمية؛ حتى هو، وحتى "فرانكا جربر" بالتأكيد. استحضر وجهها وجمال عينيها الصادق، لا يمكنه أن يسمح لسحرها بالتأثير عليه. عليه أن يظل قويًّا، سمع صوت خطواتها تقترب من الباب.

- صباح الخير.. كيف حالك؟

- أفضل.. أشكرك.

بدت محرجة بعدما كشفت عن الكثير من الأسرار في الليلة الماضية.

- هل أحضر لك الإفطار؟

- أجل، من فضلك.

خرجت "فرانكا" من الغرفة، وسمع حركتها وهي تتجول في المطبخ لبضع دقائق قبل أن تعود بطبقي لحم بارد وجبن، وفنجان قهوة ساخنة. تركته ليأكل، وعادت لأخذ الطبقين بمجرد انتهائه. اشتاق إلى جلوسها معه من جديد لتخبره ببقية قصتها. أين "فريدي" الآن؟ هل هو شخص حقيقي؟ كان من الصعب تصديق أن تكون هذه مجرد حيلة معقدة لكسب ثقته، ولكنها غادرت الغرفة دون أن تنبس ببنت شفة.

مرت بضع ثوانٍ قبل أن يسمع الخطى على الأرضية الخشبية مرة أخرى، وعادت وفي يدها صندوق أدوات. مرت بجوار السرير دون أن تنظر إليه وجلست بجانب الفتحة الموجودة في الأرض. شاهدها وهي تمسك بمطرقة وتبدأ في رفع لوح الأرضية المجاور للفتحة.

- ما الذي تفعلينه، فرويلاين؟

- ماذا تراني أفعل؟ أصنع فتحة في الأرضية.

لم تنظر إليه، وواصلت عملها. انتظر حتى رفعت لوح الأرضية قبل أن يتحدث مرة أخرى. شعر بخطأ مراقبتها وهي تقوم بكل هذا العمل بينما يرقد بلا فائدة في الفراش.

- لماذا تفعلين ذلك؟

وقفت وأخذت تتنفس بقوة وهي تفرد ظهرها. جثت على ركبتيها ثانيةً وحدقت في الحفرة التي صنعتها. يبدو أنها تقيس العرض. كان عرضها حوالي ثلاثة أقدام وطولها ستة أقدام. وقفت "فرانكا" وغادرت الغرفة، مرة أخرى دون أن تنظر إليه. وبعد دقيقتين عادت ومعها عدة بطانيات. جثت على ركبتيها بجانب الحفرة ووضعت البطانيات، لتبطن الفراغ أسفل ألواح الأرضية. وقفت مرة أخرى. بدا كأنها ستقول شيئًا، ولكنها راحت للركن بين السرير والحائط حيث لا تزال حقيبته وزيه العسكري ملقيين. طوت الزي ووضعته داخل الحفرة.

- فرويلاين، لقد سألتك عما تفعلينه. كما أن هذا الزي يخصني.

- حقًّا؟!

وضعت الحقيبة فوقه، قبل أن تلتقط أحد ألواح الأرضية التي أسندتها إلى الحائط لتعيد وضعه في مكانه.

- فرويلاين "جربر"؟

أعادت اللوحين الآخرين إلى مكانهما، جثت على ركبتيها مرة أخرى ودفعت ألواح الأرضية إلى أسفل بأقصى ما تستطيع. مررت يدها على سطح الألواح، وتأكدت من أنها لم تكن بارزة، ثم وقفت لتفحص عملها، وأصابعها على ذقنها. لاحظت علامات الاحتكاك في أطراف ألواح الأرضية. خرجت، وسمعها تفتش الخزائن لبضع ثوانٍ قبل أن تعود، وفي يدها ورنيش الخشب. أرضيات الكوخ غير مهملة، بل لامعة من أثر الاعتناء بالورنيش. شرعت "فرانكا" في وضع طبقة ورنيش جديدة على أطراف ألواح الأرضية لإخفاء آثار خلعها. وفي غضون دقيقتين أو نحو ذلك، كان من المستحيل تبين أن ألواح الأرضية هذه لم تكن في مكانها منذ ساعات قليلة.

- هذا تحسبًا لحضور "الجيستابو". إذا وجدوك هنا، فهذا يعني الموت لكلينا، ولن يتسنى لي الإنكار، حتى لو فعلت أنت. لن يأتوا بينما الثلج كثيف، ولكن بمجرد ذوبانه سيشرعون في البحث عنك. ربما شاهد أحدهم مظلتك أو سمع صوت الطائرة التي قفزت منها. وكلما أطلت هذه التمثيلية السخيفة، طالت مدة تعريض حياتنا للخطر. وإذا لم تبدأ في الوثوق بي، فسنموت كلانا.

غادرت الغرفة.

كان يرقد وحيدًا خلال ظهيرة كئيبة. سمحت النافذة بدخول القليل من الضوء، وظل الباب مغلقًا. يسمع الأصوات بين الحين والآخر لكنه لم يرها. لم تكن هناك إجابات؛ فقط المزيد من الأسئلة. لم يكن هناك شيء يمكنه فعله محاصرًا هنا في هذا السرير. الألم في ساقيه محتمل الآن، لكنه لن يتمكن من الخروج من هنا لأسابيع. هل يمكنه الوثوق بهذه المرأة؟ هل تمردت على الطاعة العمياء التي زرعها النازيون في نفوس الكثير من الألمان؟ أم أن هناك أمثالها وبأعداد أكثر مما كان يعتقد؟ ما الذي قد تفعله لأجله إن هو وثق بها؟ الضغط يتصاعد بداخله. مرور كل يوم عليه وهو حبيس هذا الفراش يقترب به يوم آخر من الفشل، وهذا شيء لا يمكن أن يقبله. سبَّ ساقيه والنازيين، وحاول أن ينام بطريقة ما هربًا من احتمال أن يفشل في هذه المهمة. عض على قبضته بقوة لدرجة أنه كاد أن يدميها. لن يواتيه النوم، ولم يكن هناك مفر.

دقت الساعة سبع دقات، وبعد بضع ثوانٍ، انفتح الباب. دخلت ووضعت الصينية على حجره وهو جالس. لم يلمس الطعام، رغم أنه شعر وكأنه يتضور جوعًا حتى الموت.

- فرويلاين؟ "فرانكا"؟

كانت الرياح تهب عاتية في الخارج.

- هل لديكِ صورة لعائلتك؟ صورة لـ"فريدي"؟

- أجل، لديَّ بعضها.

- هل بوسعي أن أراها؟ لم أرَ أي صور عندما كنت خارج الغرفة.

- كانت هناك صور، ولكنني رفعتها قبل أن أجدك بأيام.

- ألا تزال معكِ؟

- بالفعل.

عادت بعد دقيقة، وفي يديها صورتان، تحملهما كما لو كانت تحمل طائرًا مصابًا وجدته. تناولهما، الصورة الأولى لأربعتهم يقفون معًا على عتبات ما افترض أنه منزلهم. "فرانكا" أصغر سنًّا، ربما كانت في السادسة عشرة من عمرها في ذلك الوقت، شعرها المجعد قصير أشقر وترتدي فستانًا أبيض، تحيط والدها بذراعها؛ رجلًا قويَّ البنية وسيمًا ذا لحية بنية وعينيه مبتسمتين. شعر والدتها الأشقر الطويل ينسدل على كتفيها، وابتسامتها مشعة وعيناها تتألقان حتى في صورة قديمة بلا ألوان. تحتضن "فريدي"، الذي بدا في الثامنة. برزت ذراعاه وساقاه الضعيفتان من خلال قميصه وسرواله القصير. ينظر إليها بمحبة. قلب الصورة وقرأ التاريخ؛ يونيو 1933. ناولته "فرانكا" الصورة الثانية، التي التقطت خارج الكوخ في يوم صيفي من عام 1935، وكانوا ثلاثة فقط. "فريدي" لا يزال يبتسم وهو جالس في حجر والده، ولكنها ابتسامة مصطنعة لعدسة الكاميرا. "توماس" يحدق في ابنه بحب واضح. وجلست "فرانكا" بجانبهما، محدقة بجدية غير مألوفة بالنسبة لفتاة في ذلك العمر. أعاد الصورتين إليها.

- أشكرك.

أومأت برأسها وغادرته، والصورتين معها. كان على وشك الانتهاء من وجبة اللحوم والخضروات التي قدمتها له عندما عادت إلى الغرفة. جلبت كرسيًّا وجلست بجانب السرير، في انتظار أن ينتهي من الأكل.

- أردت أن أشكرك على ما قصصتِه عليَّ الليلة الماضية.

تناول شربة ماء وهو ينتظر ردها.

- لم أتحدث عن عائلتي منذ وقت. والحكي فتح بعض الجروح التي بالكاد بدأت تلتئم.

"اكبح جماح نفسك. دعها هي تتكلم". وضع الكوب الفارغ على الصينية التي أحضرتها، وأومأ برأسه. حملت الصينية وغادرت دون أن تتحدث.

مرت ساعات، وهو قابع ينصت إلى الريح وهي ترج زجاج النوافذ. حلَّ الظلام في الخارج الآن، وعادت لإضاءة مصباح الزيت بجانب سريره. جلست بجانبه. لم يتكلم، في انتظار أن تبدأ هي بالكلام.

- أود أن أخبرك ببقية قصتي. لقد ترددت، بينما أتساءل عما يجب أن أقوله، وما الذي يجب ألا أقوله، وعما إذا كنت حقًّا مَن أعتقد أنه أنت. ولكن بعد ذلك، أدركت أنه ليس لديَّ أي شيء لأخسره. إذا لم تكن كما أعتقد، وأدى إخبارك بقصتي إلى موتي، فليكن، لكنني لن أتراجع.. ليس بعد الآن. لا يهمني. يمكنك قتلي. فأنتم مَن قتل والدي. والآخرون قتلوا كل مَن أحببت.

كان من السهل جدًا نسيان سبب وجوده هنا. من الأفضل أن يبقى صامتًا، وأن يدعها تكشف عن نفسها الحقيقية إذا كان هذا هو ما كانت مصممة على فعله. تناول من الطعام ما يكفيه ليصمد لأسبوع أو أكثر. وإذا كانت ستغادره، فيمكنه أن يعيش بمفرده. لم تكن مهمته إنقاذ هذه المرأة الألمانية من شياطين ماضيها. لم يكن هناك ببساطة وقت للتعاطف.

استلقى عندما بدأت في الكلام. هدأت الريح في الخارج وحلَّ الظلام. شعَّ في الغرفة ضوء ذهبي من مصباح الزيت المشتعل على المنضدة. لم تحدق في أي شيء، كما لو أن الماضي من حولها وأن عليها فقط أن تمد يدها فتلمسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت برلين العاصمة، وفيها يقيم "هتلر"، لكنه لم يعجب بها أبدًا. "ميونيخ" معقل "هتلر". كثيرًا ما تحدث عن حبه اللامحدود للمكان الذي وصل إليه كفنان مفلس، وكان يرسم بطاقات بريدية ليبيعها في الشارع. ذلك هو المكان الذي بدأت فيه ثورة النازي مع فشل انقلاب "بير هول" في عام 1923، يوم وضعت جثث الذين ماتوا في ذلك اليوم في توابيت حجرية ضخمة، يحرسها رجال من القوات الخاصة يرتدون زيًّا أسود مثل الجرانيت. "ميونيخ" هي المكان الذي وجد فيه "هتلر" أنصاره الأوائل؛ جنودًا محرومين، رافضين، ومنبوذين من مجتمع مزقته الحرب. في تلك الأيام الأولى، خرجوا في مسيرات يرتدون معاطف وسترات واقية من المطر، غير قادرين على تحمل تكلفة توحيد الزي الرسمي. تضاعف عدد أتباعه حتى عُرف باسم "ملك ميونيخ" بعد سنوات قليلة من وصوله. كان شيئًا لم ينسه "هتلر" أبدًا. أصبحت "ميونيخ" له.

خفف الاستيلاء النازي على الحكم من بريق وسحر "ميونيخ" بحلول عام 1941، بل إن انتشار الأعلام النازية في كل مكان أقل مما كان عليه في "فرايبورج". سيطر النازيون على المدينة، كما فعلوا في كل مكان في ألمانيا، ومعهم كان الافتقار إلى الحرية. لكن النازيين لم يتمكنوا من التخلص من كل أشكال الحياة والجمال من هذا المكان النابض بالحياة. وجدت "فرانكا" ملاذًا في الفنون وحضرت الحفلات الموسيقية بانتظام. كان ملاذها النهائي في الموسيقى، وذلك بحد ذاته احتجاجًا. منحت الموسيقى الحياة لجزء منها لم يستطع النازيون مسَّه. وجدت سكينةً في هذا الشكل الخفي من أشكال الاحتجاج، ففي الاهتمام بالفنون معاداة للنازية دون التصريح بذلك؛ فقد احتقر "هتلر" المثقفين، وكل مَن سعى وراء الجماليات. كان إظهار الحب لمثل هذه الأشياء علامة على الضعف، وليس الصلابة الحازمة التي طالب بها النازيون. في قاعات الحفلات الموسيقية ملاذ، وشعرت "فرانكا" بتوحدها مع الآخرين في تلك القاعات.

كان المستشفى الذي تعمل فيه يمثل مزيجًا من البهجة والرهبة والرعب والجمال. ملأ جنود الجبهة الأسرة، وكانت جروحهم لمحات جحيم لم تكن لتتخيله قبل الحرب؛ شباب محطم في كل مكان حولها، وقد ضاع مستقبلهم بالرصاص والقنابل، بأعين أو أرجل مفقودة، ووجوه محترقة، وشريان حياتهم يتسرب على الأرضيات

الرخامية.. خسارة فادحة. جلست مع فتية كانت أمنيتهم الوحيدة أن تمسك بأيديهم وتبتسم. عرضوا عليها صور زوجات وصديقات يأتون لزيارتهم وأزهار في أيديهم ودموع في عيونهم. الانتقال من سرير إلى سرير، والوجود من أجلهم، يشبعها بسعادة اعتقدت أنها مستحيلة. أشعل هؤلاء الجنود شمعة في ظلام داخلها. تحدثوا أحيانًا عن "الرايخ"، وعن آمالهم في المستقبل بمجرد تحقيق النصر النهائي العظيم. ومن خلال أسنان مهشمة وشفاه ممزقة، تحدثوا عن مجد رائع في ساحة المعركة. ولاؤهم للنظام الذي دمرهم لا يتزعزع. قلة منهم أدركوا أنهم تعرضوا لكذبة هائلة. ويبدو أن قلة منهم أدركت التشهير الذي كان ينتظرهم بمجرد كتابة تاريخ هذه الحقبة. ظل أكثرهم مقتنع بأنه على صواب.. حتى النهاية. لم تجرؤ على أن تخبرهم بالحقيقة؛ فلا شيء يمكن أن يكون أكثر قسوة عليهم من معرفة الحقيقة.

ارتدى "هانز شول" زي "الفيرماخت" الرمادي، تميزه كاريزما كانت نادرة جدًّا في تلك الأيام. هو أصغر منها بسنة، بشعر أشقر داكن، ووجه فتى سينمائي. كانت الممرضات ينبهن بعضهن بعضًا كلما مر عليهن وهو يتجول. كان طالبًا في الطب يأخذ دروسًا في الجامعة. لم يستخدم التحية النازية، بل يفضل المصافحة العادية. طلب الخروج معها في موعد، بعد ثلاثين ثانية فقط من لقائها، ولأنها وجدت نفسها عاجزة عن مواجهة سحره، فقد قبلت على الفور. ذهبا إلى حفلة موسيقية معًا في الليلة التالية. أمسك بيدها بينما تصدح سيمفونية "بيتهوفن" الخامسة، وعرفت أنه مختلف. عرفت أنه مثلها. سطع القمر فوق المدينة في تلك الليلة، وجلسا في الحديقة بعد الحفلة الموسيقية، يحتسيان النبيذ الأحمر في هواء الصيف الدافئ. يكفيها هو كي تنسى كل شيء. أضحكها "هانز"، وجعلها تشعر بأنها جميلة. تلمع عيناه في ضوء القمر الفضي. ومعه نست الاستبداد والرعب. ذابت انتقادات الماضي، وعرفت أن شيئًا ما قد بدأ يولد في روحها.

كان من "أولم"، وهي بلدة صغيرة تذكرت زيارتها عندما كانت طفلة، على بعد مائة ميل من "ميونيخ". تحدث عن عائلته كثيرًا؛ والده سياسي محلي ورجل أعمال، وهو ناقد بشدة للحزب النازي، واعتقله "الجيستابو" بتهمة التفكير المثير للفتنة. وتحدث عن أشقائه، وخاصة أخته الصغيرة "صوفي"، التي ستلحقه بالجامعة في العام التالي. كان عضوًا سابقًا في شباب "هتلر". وكان من المفترض أن يصبح أحد نجوم الحركة، ومع ذلك لم يكن يرتدي دبوسًا نازيًّا ويتحدث عن الحكومة بشكل مراوغ، فكان حريصًا دائمًا على تغيير الموضوع. وبدلًا من ذلك، روى قصصًا سمعها من زملائه الجنود الذين خدموا في بولندا. تحدث عن الحريات المدنية والحرية بشغف واندفاع لم يترك لها أدنى شك في ولاءاته. شعرت بحرية في الوجود معه، يمكن أن تناقشه في الفن والسياسة ويتفق معها على أن مصائب النازية ستؤدي في النهاية إلى تدمير الأمة الألمانية. وتوقفت بعض الممرضات الأخريات عن التحدث إليها عندما أصبحت العلاقة بينهما معروفة.

في نهاية صيف عام 1941، دعاها "هانز" إلى اجتماع لمجموعة من أصدقائه. ظاهريًّا - كما قال - كانوا يجتمعون لمناقشة الفلسفة، ولكنهم يلتقون في الواقع للتنفيس عن إحباطاتهم السياسية. لم يكن التجمع في حانة ولكن في أحد المنازل.

وتوزعت فناجين القهوة وأكواب البيرة على الطاولة مع أكوام من الأوراق والكتب. قدم "هانز" "فرانكا" إلى صديقيه "فيلي" و"كريستوف"، وجلست حول الطاولة مع حفنة من آخرين. كانوا جميعًا طلابًا أصغر منها، باستثناء صاحب المنزل، الدكتور "شموريل"، الذي كان ابنه "أليكس" يجلس بجانبه. وبعد مقدمات موجزة، بدأ "هانز" في الحديث.

- لقد سمعنا جميعًا قصصًا من الجبهة. وشاهدت و"فرانكا" الضحايا الألمان لهذه الحرب غير المجدية كل يوم في المستشفى.

نظر الرجال إلى "فرانكا" قبل أن يعودوا بانتباههم إلى "هانز".

- سمعت بالأمس فقط من صديق موثوق به رأى بأم عينيه مشهد البولنديين والروس وهم يُقتادون في معسكرات الاعتقال على الجبهة الشرقية، ليُعدموا أو يعملوا سخرةً حتى الموت.

كان شعورها غامرًا مثل الدوار. لم تسمع "فرانكا" أي شخص يتكلم هكذا بخلاف والدها. ولم يكن "هانز" بمثل هذه الصراحة معها من قبل. اشتعلت نار في داخلها. قال "فيلي":

- يجمعون الفتيات ويرسلونهن إلى بيوت الدعارة لخدمة أسيادهم الجدد ضد إرادتهن. الأمر أكثر من مجرد إخضاع شعب.. إنه اغتصاب وقتل ممنهج، رعب لم يعرفه الجنس البشري من قبل، ويُرتكب باسم الشعب الألماني كافة.

ونهض "كريستوف" بدوره:

- تتعرض الشعوب في الأراضي المحتلة لمعاملة مقيتة. والسؤال هو.. ألن نتحرك؟ هل نبقى جالسين نشاهد ما يجري في صمت؟ من الجيد أن نجلس حول هذه الطاولة، وأن نعبر عن أفكار، لو ذاع سرها، ستضعنا جميعًا في السجن.

التفت إلى "فرانكا"، التي شعرت بأن الكل ينظر لها.

- "فرانكا"، أخبرنا "هانز" بما فعله النازيون بأخيكِ، لقد عانيت بشدة على أيديهم.

ترقب الكل ردها، ولكن الكلمات علقت في حلقها. أخبرت "هانز" بما حدث لـ"فريدي" بجمل متقطعة لم تكشف عن عمق الألم الكامن وراءها، ولم تكن مستعدة لمشاركة التجربة مع هؤلاء الغرباء، رغم أن أفكارهم واحدة.

- لست مستعدة للتحدث عن ذلك هنا، لكن يكفي أن أقول إن النازيين دمروا، أو حاولوا تدمير كل ما كان في يوم من الأيام فاضلًا وحقيقيًّا في بلدنا الرائع، وأنت تسأل هل ينبغي لنا أن نفعل شيئًا؟ جوابي القاطع هو نعم.. إنه واجبنا الأخلاقي.

قال "فيلي":

- ولكن، ما الذي ينبغي لنا فعله؟ إذا كان واجبنا الأخلاقي أن نفعل شيئًا يليق بألمان مخلصين، فما هو إذًا؟ من المؤكد أننا بعيدون عن نطاق الجيش. ونحن لسنا قتلة أو مثيري الشغب. لسنا رجالًا أقوياء عسكريين أو متنمرين مثل النازيين أنفسهم.

بادره "هانز":

- نستغل قوتنا، نسجل أفكارنا على الورق، وننشر الحقيقة كما نراها. يتبجح النازيون بإعلان قوتهم وأن الإمبراطورية التي يبنونها سوف تستمر ألف عام، لكنهم خائفون جدًّا من شعبهم لدرجة أنهم يقمعونه. إنهم مرعوبون من شيء واحد.. ألا وهو الحقيقة. إذا تمكنا من نشر الحقيقة بين الناس؛ حول الفظائع التي يرتكبها النازيون باسمهم، فسوف ننتصر. اليهود الباقون في مدننا مميزون بنجمة ذهبية، ولكن أين الآخرون؟ نحن نعلم الآن.. نحن نعلم، لكن معظم الناس لا يعلمون أو يتظاهرون بأنهم لا يعلمون. فإذا استطعنا إجبار الشعب الألماني على مواجهة الحقيقة، فلدينا فرصة لإحداث تغيير حقيقي ومستدام. يجب أن نكون ضمير ألمانيا، أن نتحدث باسم اليهود والمثليين ورجال الدين وغيرهم ممن قمعتهم الدولة. علينا أن نعرف شعبنا وبقية العالم أن هناك ألمانًا مرعوبين من تصرفات النازيين ويطالبونهم بالكف عنها.

استمر الخطاب السياسي بضع ساعات أخرى، ثم عادت "فرانكا" إلى المنزل منهكة. واستمرت الكلمات التي سمعتها في الاجتماع تدور في رأسها لعدة أيام، وطردت الدعاية النازية التي كانت ستهيمن على حياتها اليومية لولا ذلك الاجتماع.

استغرقت خطوات تحويل هذه الكلمات إلى أفعال وقتًا. في الدولة النازية، كان من الصعب الحصول على مقتضيات مهمتهم؛ مثل الآلات الكاتبة والورق وآلة نسخ دون إثارة الشكوك. وجد "هانز" موقعًا لوضع تلك الأدوات التي حصلوا عليها فيه، وبدؤوا في وضع مخطط لمنشوراتهم. توصلوا إلى خطوط أساسية، سرعان ما نقحوها وصقلوها في اجتماعاتهم.

أطلقوا على حركتهم اسم "الوردة البيضاء"، وكان من المقرر أن يوزعوا أول منشور في صناديق البريد بعد بضعة أشهر، في صيف عام 1942. لم تكن هناك قواعد أو لوائح محددة للاجتماعات أو لعضوية الوردة البيضاء. لم يُضفَ الطابع الرسمي على قائمة الأعضاء، ولم يقسم أحد على السرية أو أُجبر على وضع يده على الكتاب المقدس عند انضمامه، أو ما إلى ذلك من طقوس. كان مفهومًا أن "هانز" هو المحرك الرئيس للحركة، وعلى هذا النحو اتخذ القرارات بشأن الاتجاه الذي تسير فيه. ينضم الأعضاء الجدد، ويُفحصوا دائمًا من قبل الأعضاء الحاليين، بطريقة تقوم على الحدس أكثر من أي شيء آخر؛ فوجود جاسوس لـ"الجيستابو" بينهم يعني الاعتقال والسجن، أو ما هو أسوأ لهم جميعًا. شعروا بوطأة الدولة النازية ثقيلة عليهم، ولكنهم كانوا يضحكون ويستمتعون مثل فتية صغار.

لم تركز أي من أنشطة "الوردة البيضاء" على الجامعة، حيث يدرس معظمهم. المجموعة عبارة عن جزيرة في محيط من الموالين للنازية، وقد رفضوا المشاركة في أنشطة الجامعة، فكلها كانت تحت رعاية أو موافقة النازيين.

تقضي "فرانكا" و"هانز" وقت فراغهما معًا الآن. في حياتهما ما هو أكثر وأكبر من "الوردة البيضاء". لا يزال هناك متسع من الوقت للشباب والحب، حتى وألمانيا النازية تتجه إلى الهاوية.

في أبريل 1942، قبل أسابيع من موعد توزيع المنشور الأول، كانت "فرانكا" و"هانز" عند ضفاف النهر. يمشون وسط بقية المتريضين؛ بعضهم مراهقون، وبعضهم متزوجون ولديهم أطفال يهرولون أمامهم، لكن لا يبدو أن أيًّا منهم يختلف اختلافًا جوهريًّا عن "فرانكا" و"هانز". مرا بزوجين مسنين يجلسان على مقعد ويحدقان في غروب الشمس بنظرات قانعة على وجهين ذابلين.

- هل تعتقد أننا سوف نجلس هذه الجلسة معًا بعد خمسين عامًا من الآن؟

- طبعًا.. أنا لا أتخيل أن أكون مع أحد غيرك.

همت بأن ترد، ولكنه أكمل:

- أغار من بقية الأزواج من حولنا. لا يبدو أنهم يعرفون أي شيء عن طبيعة ما ينتظرنا من مصير مرعب. أتخيل أن في هذا الجهل رحمة.

- لا أتخيلك مثلهم، "هانز". هذه ليست شخصيتك. وشخصيتك من بين الأسباب التي جعلتني أغرم بك.

- هي ووسامتي، صحيح؟

- لم أرغب في أن أصارحك بهذا أولًا. لا أريد أن أبدو سطحية.

- فات الأوان.. فقد عرفت الآن.

- تكون مختلفًا عندما نصبح وحدنا. تصبح روحك أخف، نوعًا ما.

- هذا لأنكِ ترينني على حقيقتي. الشخص الذي أريد أن أكون عليه طوال الوقت.

نظر حوله للتأكد من عدم سماع أحد لهما قبل أن يواصل.

- أنت ترين الشخص الذي سأكون عليه لبقية حياتي بمجرد خلاصنا من بلاء النازية إلى الأبد. هذا كل ما أريده؛ أن أعيش حياة هادئة وبسيطة حيث يمكنني أن أكون على طبيعتي معك.

صدقته.. صدقت كل كلمة قالها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان المنشور من حوالي ثمانمائة كلمة. أمضت "فرانكا" وقتًا طويلًا في قراءته وتأمله مثل جائع انقض على طعام. تشبثت عينا "فرانكا" بالجملة الثالثة التي تقول: "من منا يستطيع أن يتخيل العار الذي سيلحق بنا وأطفالنا عندما تسقط الغمامة عن أعيننا، ونعرف حقيقة الجرائم الفظيعة التي تفوق حدود الخيال البشري؟". كان المنشور يحث كل أولئك الذين يلتزمون بالتقاليد المسيحية الألمانية على "المقاومة السلبية؛ المقاومة أينما كنت، ومنع استمرار آلة الحرب الإلحادية قبل فوات الأوان". وينتهي المنشور بقصيدة عن الحرية، متبوعة بتوجيهات لتمريره ونسخه أكبر عدد ممكن من المرات. وفي أعلى الورقة عبارة "منشورات الوردة البيضاء".

مهمة "فرانكا" أن توزع قسمًا من آلاف النسخ التي طبعوها. استقلت قطارًا إلى "فرايبورج"، والمنشورات في حقيبتها. كانت جريمة كافية لإعدامها. حل توتر الأعصاب محل الفرحة المعتادة التي كانت تشعر بها في عودتها إلى المنزل، لكن رحلة القطار سارت دون عوائق. بمجرد عودتها إلى "فرايبورج"، أرسلت المنشورات بالبريد إلى قائمة العناوين التي تحملها. كان البريد من "ميونيخ" بالجودة نفسها، لكن السلطات لن تكون قادرة على تحديد مكان "الوردة البيضاء" إذا تم إرسال الرسائل من "فرايبورج" وبرلين و"هامبورج" و"كولونيا" وفيينا. وعادت "فرانكا" بعد نجاح مهمتها بعد بضعة أيام. لم يُقبض على أحد. تبع ذلك منشور آخر، ثم آخر. اتبعوا البروتوكول نفسه واتخذوا الاحتياطات نفسها. انتشرت آلاف من منشورات "الوردة البيضاء" في جميع أنحاء ألمانيا. لم تدرك السلطات تأثيرها، لكنها سرعان ما بدأت تسمع همسات في الحرم الجامعي وخارجه؛ الناس يتحدثون عن منشورات "الوردة البيضاء". وبدأ الحراك الذي يتوق إليه الأعضاء. توزعت المنشورات من يد إلى يد، لتخلف في النفوس مشاعر الإثارة والقلق في أعقابها. اندهش كل من يقرأها من محتواها. وقابل بعض الناس المنشورات بالاشمئزاز، والبعض الآخر بدهشة أو عدم تصديق. انتشرت الموجة من "ميونيخ" إلى جميع أنحاء البلاد. وهناك من لجأ إلى "الجيستابو"؛ يبلغهم عما وقع في يده. فلا جدوى من السماح لشخص آخر بأن ينال فضل الإبلاغ عن مثل هذه الكلمات المثيرة للفتنة. وبدأ "الجيستابو" في البحث عن منبع تلك المنشورات، لكنهم لم يتوصلوا إلى أعضاء "الوردة البيضاء". ورأى "هانز" أن هذه مجرد بداية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

التقت "فرانكا" لأول مرة أخت "هانز" الصغيرة "صوفي" بعد أن التحقت بالجامعة في مايو 1942. جاءت لتعيش معه. كان الأمر محرجًا في البداية. فقد اعتادت "فرانكا" على إحساس الحميمية، والذي قاطعته أخت "هانز" الصغيرة في بعض الأحيان. لكنها كانت لطيفة، وأقل جدية من أخيها. لم يتحدث "هانز" أبدًا عن انضمامها إلى المجموعة. كان يعتقد أنه من الأفضل إخفاء أنشطته غير القانونية عنها، ولكن لم يمضِ وقت طويل قبل أن تصادف بعض المنشورات المخبأة في الشقة التي تقاسماها. طلبت منه السماح لها بالانضمام للحركة. وساعدتها "فرانكا" في إقناع "هانز". شجعتها شجاعة "صوفي"، وتصميمها الصريح على الوقوف إلى جانب ما اعتقدت أنه الصواب. كانت مثل تلك المشاعر معدية.

لا جدوى من أي رفض، ولذا استسلم "هانز" بعد أيام قليلة من المقاومة. وفي غضون أسابيع، أصبحت تنافس "هانز" على قيادة المجموعة. تولت زمام الأمور بالكامل خاصة بعد أن ذهب هو و"أليكس" و"فيلي" إلى الجبهة الروسية مع وحداتهم في نهاية ذلك الصيف.

واصلت "فرانكا" العمل في المستشفى، ولا أحد يعرف شيئًا عن حياتها السرية، باستثناء أقرب المقربين لها. طغى الشك والريبة على علاقاتها مع زملائها وأصدقائها العاديين. تفحصت كل كلمة قالوها، كل إيماءة قاموا بها. لا يمكن الوثوق بأحد. وفي هذه العزلة، اشتاقت "فرانكا" إلى وجود "هانز" في حياتها. في رسائلها

المعتادة إليه، كانت ترمز إلى "الوردة البيضاء" بعبارة "مشروع البناء". تحكي له عن كثير. كانت مهمة كتابة ونشر منشورات "الوردة البيضاء" قد توقفت في انتظار عودته، لكن بقية النشاط استمر. أسسوا فرعًا لـ"الوردة البيضاء" في "هامبورج"، للمساعدة في توزيع المنشورات. اختتمت كل خطاب إلى "هانز" بفقرة عنها وحدها. أرادت أن يعرف أنها تفكر فيه كل ساعة من كل يوم، وأنها تحصي الأيام حتى عودته بأمان. هناك أمور تعرف أن النازيين لن يحذفوها في الرسائل الموجهة للجنود في الجبهة.

لم يعد والدها إلى الكوخ في ذلك الصيف. كان الحزن شديدًا عليه. جاء إلى "ميونيخ" في عيد الميلاد، وهو مجرد نسخة شاحبة للرجل الذي كان عليه قبل أن يكسره النازيون. أعطوا وظيفته في المصنع إلى نازي من البلدة في نصف عمره. خفضوا منصبه وفكّر في التقاعد المبكر. التقى الأب وابنته على رصيف محطة القطار. وجهه غير حليق، وبشرته شاحبة، وتفوح منه رائحة الويسكي. ذهبا لتناول العشاء لكنهما لم يتحدثا كثيرًا، فكل منهما يخاف أن يسمع الآخر. وخرجا في نزهات طويلة في المدينة، مرا على أنقاض المباني المدمرة والتي أصبحت منظرًا معتادًا، وتجاوزا ملاجئ الغارات الجوية التي شيِّدت في كل مكان. تحدثا عن الأيام الخوالي، عن تلك السعادة في الكوخ، وعن والدتها.. هذا كل شيء، بالكاد ذكرا اسم "فريدي". الأمر مؤلم جدًّا، لقد استنزف بالفعل الكثير من الحياة في روحهما، ولم يعد لديهما المزيد ليمنحاه.

ودعت والدها في محطة القطار في وقت متأخر من ليل ذلك الأحد من شهر يناير. غلبتها الدموع وهي تعانقه.

- هل ستكون بخير؟

- بالطبع.

لكن عينيه تبوح بحقيقة مختلفة.

- ألن تفكر في الانتقال إلى هنا؟

- لا، أشكرك. سأبقى في "فرايبورج" حيث عملي، حيث كانت والدتك وأخوك. ما زلت أزور قبرها معظم الأيام. أتمنى لو كنت أعرف لمثوى أخيك مكانًا حتى أذهب لزيارته. لن نعرف أبدًا ما الذي فعلته تلك الحيوانات بجسده.

انهار والدها على الرصيف، والدموع تنهمر على وجهه. عرضت عليه البقاء معه، والعودة إلى "فرايبورج" لفترة، وسألته مرة أخرى عما إذا كان يود أن يبقى، لكنه رفض. جلسا على مقعد، في انتظار القطار، يحتضنان بعضهما حتى وصل القطار أخيرًا وودعته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عندما عاد "هانز" من الجبهة الروسية، كان أشد تصميمًا على نشر أفكار "الوردة البيضاء". ففي وقت خدمته كمسعف على الجبهة، شهد كيف تجرَّد الجنود الألمان

من أي فروسية أو رحمة أو إنسانية. ضباط الجيش الذين اتبعوا ذات يوم ميثاق شرف صارم يشتركون الآن بالكامل في العقيدة العرقية النازية نفسها، التي قادت قوات "الفيرماخت" والقوات الخاصة على حد سواء. روجوا للحرب على الجبهة الشرقية على أنها حملة دفاع ضد الشيوعية، ولكنها - كما أخبرها "هانز" - كانت في الواقع حجة تخفي وراءها الرغبة في توفير مجال حيوي وعد به "هتلر" الشعب الألماني. كانت الحملة الحقيقية ضد اليهود. تحدث "هانز" إلى عشرات الجنود الذين شهدوا القتل الجماعي لآلاف المدنيين اليهود، الذين اصطفوا على طول حافة الحفر الجماعية التي ستصبح قبورهم. لقد تغير كثيرًا بعد كل ما رآه. احتضنته "فرانكا" بشدة وهو مستلقٍ يرتجف في السرير في أول ليلة عاد فيها.

كانت الصحف مليئة بقصص الانتصارات البطولية على جحافل الشيوعيين في الجبهة الشرقية. صوروا الروس في الرسوم الكاريكاتورية على أنهم وحوش غير متعلمين، وأنهم كائنات أدنى من البشر ولا يستحقون الوجود. ليس أدنى منهم سوى اليهود. هم فقط أكثر وحشية وأقل شأنًا من الروس، الذين سيهزمهم الجنود الآريون بسهولة. وجاءت معركة "ستالينجراد" لتغير التصورات بأن النازيين لا يقهرون. ولم تكن حقيقة كهذه لتفوت أعضاء "الوردة البيضاء". رفض "هتلر" إعطاء الأمر بالانسحاب، ليحكم على جنوده بالإعدام في مدينة جليدية على بعد ألف ميل من وطنهم.. وهكذا قُضي على الجيش السادس الألماني. ذكرت التقارير الرسمية أن مئات الآلاف قضوا نحبهم مثل الأبطال، وذكرت أن تضحياتهم ستقود "الرايخ" إلى انتصارات أكبر قادمة، ولكن أعضاء "الوردة البيضاء" كانوا يعلمون أن النصر النازي لم يعد حتميًّا، وأن ألمانيا تحدق لأول مرة في عين هزيمة باردة نكراء. ذاق "هتلر" أول خسارة كبيرة. ولن تُفوِّت "الوردة البيضاء" مثل هذه الفرصة.

انتشرت في الصحف قصص عن قيام النظام بقمع أي مقاومة، مهما كانت. أعدموا رجلًا لأنه قال إن "هتلر" يجب أن يُقتل لأنه تسبب في موت الجنود الألمان. قطع "الجيستابو" رأس نادل لأنه سخر من "الفوهرر"، وأعدم رجل أعمال لأنه تجرأ على القول بصوت عالٍ إن الحرب كانت تسير بشكل سيئ بالنسبة لألمانيا. وفي برلين، أُعدِمَ خمسون شخصًا لنقلهم معلومات حساسة إلى الروس، فيما أصبح يعرف باسم "قضية الأوركسترا الحمراء". ولم يُعدم المتورطون بالمقصلة؛ الطريقة الرسمية للجلادين النازيين، بل علقوهم على خطاطيف اللحم وتركوا ليموتوا من بشاعة الألم. وأعدمت النساء - اللائي سبق أن حكمت المحكمة عليهن بالسجن المؤبد - بالمقصلة بعد أوامر شخصية من "هتلر".

عرفت "فرانكا" العديد من الأشخاص الذين اعتقلهم "الجيستابو" بسبب كلمات غير مبالية، أو بسبب كتابات غير حريصة. القبضة النازية على ألمانيا تزداد إحكامًا، حتى وهي تعاني الانكسارات. وبطريقة ما، تمكنت "الوردة البيضاء" من تجنب جواسيس "الجيستابو" وأذرعه مترامية الأطراف، لكنهم شعروا جميعًا بجرأة ما كانوا يفعلونه. شعرت "فرانكا" بالخوف من الاعتقال نتيجة كل ما تفعله الآن. وجميعهم خاف، لكن ذلك جعلهم أكثر إصرارًا على المضي قدمًا. لم يكن هناك حديث عن التراجع.. أو الاستسلام.

كتبوا وطبعوا المزيد من المنشورات. وقامت "فرانكا" بدورها مرة أخرى. قرأت أحدث منشور في أثناء جلوسها في حمام القطار المتجه إلى "كولونيا" لتوزيع أحدث مجموعة من النشرات.

"لن نصمت. نحن ضميركم الذي يعذبكم. لن نترككم تعيشون في سلام!".

أُرسلت آلاف المنشورات بالبريد في جميع أنحاء ألمانيا.

تغلب الرعب على مشاعر الإثارة التي شعرت بها ذات يوم. تعرضها للاعتقال هو بالتأكيد مسألة وقت. وتعلق الأمر بمَن سيستسلم أولًا، "الوردة البيضاء" أم النظام. موجات الحرب تتقلب ضد النازيين؛ "ستالينجراد" وهزائم أخرى منذ ذلك الحين أثبتت الكثير، لكن قبضة "الجيستابو" استمرت هائلة كما كانت في أي وقت مضى. فكرت في ترك الحركة منذ أسابيع. واتخذت قرارها في القطار عائدة إلى "ميونيخ" بأخذ قسط من الراحة والابتعاد لفترة من الوقت، وإقناع "هانز" و"صوفي" بالقيام بالشيء نفسه. كانا يعملان بجهد قاتل. ولذلك عرفت أن طلبها سيكون الجزء الصعب. وبدأ "هانز" وآخرون حملة كتابات ورسوم جرافيتي على جدران جامعة "ميونيخ"، وكتبوا شعارات مناهضة لـ"هتلر" على جدران وطرق الجامعة القديمة.. لقد تجاوزوا كل حدود.

كانوا في فبراير 1943، أمضت قاذفات الحلفاء ليلة من الغارات التي لا هوادة فيها. وتسللت "فرانكا" الشارع في الظلام، ووصلت إلى إستوديو طباعة المنشورات. طرقت الباب بطريقة متفق عليها. فتح "فيلي" لها الباب وحياها بقبلة على خدها. كانت "صوفي" جالسة إلى مكتب في الركن، تكتب. ويشغل "هانز" آلة طباعة الإستنسل، وقد شمر أكمامه واحمر وجهه وتعرق.

- هل يمكن أن أتحدث معك يا "هانز"؟

أومأ إلى "أليكس" أن يحل محله. مشت "فرانكا" أمامه إلى غرفة خلفية.

- أريد منك أن تتوقف.

- ما الذي تقولينه؟

- أنت تعرف أن "الجيستابو" يوشك أن يصل إليكم. يطرحون الأسئلة على كل مَن هم في الجامعة. ويعرفون أننا هنا. وما هي إلا أيام حتى يعثروا علينا. لذا، علينا التوقف والحفاظ على حياتنا. لن تستفيد المقاومة منك شيئًا وأنت ميت.

كانت يده ترتجف وهو يمسك كوب قهوته.

- لا يمكننا التوقف، ليس الآن بعد أن حظينا باهتمام الأمة. ربما يقترب "الجيستابو" منا، لكن هذا لا يؤدي إلا إلى زيادة المخاطر. لدينا فرصة يجب أن نستغلها بينما نستطيع. لم يحظَ أحد بفرصة مثل هذه. لا يمكننا أن نضيعها. هذا بالضبط ما يريده النازيون.

- الجميع معجب بما قمت به.

- ما قمنا به جميعًا. قام كل منا بدوره، وأنت منا، "فرانكا".

- بالطبع، أشكرك. أنا فخورة بهذا، ولكن ما الذي يمكن أن ننجزه إن هم اعتقلونا أو قتلونا؟

- أتظنين أنني لا أعرف هذه المخاطر؟ يعرف أي طفل أن كل مَن يتحدث ضد النظام يموت. لكن ألا يستلزم ذلك عملنا بوتيرة أكبر؟ ألا يعطي هذا مزيدًا من القيمة لما نقوم به؟ نحن الوحيدون الذين ننشر أفكار الحرية في بلد يحتاج إليها أكثر من أي بلد آخر. نحن نطعم عقول الجماهير الجائعة. إذا اختفينا فسوف يختفي الحلم بأمة أفضل.

- هل تعتقد حقًّا أنه يمكنك إسقاط أقوى نظام في أوروبا ببضع منشورات؟

- ألا تقدرين قيمة ما نحاول القيام به هنا؟

- بالطبع أقدر ذلك..

- لا أعتقد أنه يمكننا تغيير أي شيء بمفردنا. لا يمكننا التغيير إلا إذا وقفت الأمة الألمانية بأكملها معنا ضد النازيين. هذا ما يدور حوله عملنا. هذا ما يدور حوله هذا الحلم دائمًا؛ نشر فكرة الحرية وزرع بذور الحقيقة في أذهان الناس.

- لا أريد أن أراك تموت، "هانز". أنا أحبك.

- وأنا أحبك يا "فرانكا"، لكن هذه قضية أكبر منا. نحن نصنع كيانًا لديه القدرة على تحدي أعظم شر في بلدنا، أو ربما في العالم.

- ألا يمكنك التوقف لفترة من الوقت؟

- ليس الآن، ربما يقترب "الجيستابو"، وربما سأموت قريبًا، لكن التاريخ لن يرحمني إذا لم أغتنم هذه الفرصة التي أتيحت لنا. وكيف أترك أختي تفعل هذا بمفردها على أي حال؟ لقد رأيتها. هي متحمسة أكثر مني لهذا الأمر. هناك مسار وحيد بالنسبة لي، ولـ"الوردة البيضاء"، وهو التقدم أكثر وأكثر.

- يبدو أنني عاجزة عن أن أغير رأيك.

حدق فيها بعينين حمراوين.

- عدني فقط بأن تتوخى الحذر.

وقف ليحتضنها. احتضنته بشدة وقبلته لمرة أخيرة. مشى معها إلى الباب بينما يتمنى لها الجميع ليلة سعيدة، ثم أغلق الباب خلفها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ألقي القبض على "هانز" و"صوفي" في جامعة "ميونيخ" يوم 18 فبراير 1943. رآهما عامل مناصر للنازيين يلقون منشورات من الشرفة مثل قصاصات ورق. كان "الجيستابو" قد طلبوا منه مراقبة أي سلوك مشبوه. لا بد أنه سعد للغاية عندما رأى الطالبين يلقيان المنشورات من الشرفة. اعتقلهما بنفسه، وهو بلا شك متحمس

لترقيته القادمة والمكافأة النقدية التي تنتظره. اقتادوا "هانز" و"صوفي" من الحرم الجامعي إلى مقر "الجيستابو" في قصر "فيتيلسباخ" - القصر الملكي السابق لملوك "بافاريا" - في وسط المدينة. ووجهت إليهما تهمة الخيانة العظمى، ومحاولة قلب نظام الحكم وتخريب النازية، والعمل على هزيمة جيش ألمانيا في زمن الحرب، وقُبض على "كريستوف" بعد ساعات قليلة. وجد "الجيستابو" كل الأدلة التي يحتاجون إليها في شققهم، ولم يبقَ سوى المحاكمة الصورية.

انتشر خبر اعتقال "هانز" و"صوفي" في جميع أنحاء الجامعة. كانت "فرانكا" في العمل في تلك الليلة عندما جاء "فيلي" ليخبرها. بكت طوال الليل. لن تكون هناك رحمة، بل انتقام، وكانت مجرد مسألة وقت قبل أن يأتيها "الجيستابو" أيضًا. وتحدثت الصحف عن اعتقال الطلاب الخونة في اليوم التالي. افتتاحيات واثقة في أن العدالة السريعة ستأخذ مجراها، وهذا ما حدث؛ لقد استدعوا "رولاند فريزلر" - كبير قضاة محكمة الشعب سيئ السمعة، الذي نظر فقط في قضايا الخيانة والتخريب - من برلين. بدأت المحاكمة بعد أربعة أيام فقط، في 22 فبراير، وترقبت "فرانكا" والآخرون، آملين في رحمة مستحيلة. استمرت المحاكمة بضع ساعات. وأدين "هانز" و"صوفي" و"كريستوف" وحُكم عليهم بالإعدام. اقتيدوا من قاعة المحكمة إلى السجن، وأعدموا بالمقصلة. لم تعرف زوجة "كريستوف"، التي كانت مريضة في المستشفى في ذلك الوقت، بإعدامه إلا بعد عدة أيام. وعاد والدا "هانز" و"صوفي" - اللذان كانا حاضرين في المحاكمة - إلى منزلهما في مدينة "أولم" بعد إدانتهما، وهما ينويان العودة لرؤيتهما في السجن بعد بضعة أيام. لم يخبروهما بإعدام ابنهما وابنتهما في ذلك اليوم تحديدًا.

كانت "فرانكا" في شقتها عندما حضر "الجيستابو" بعد بضعة أسابيع. حُدد موعد محاكمتها في أبريل، إلى جانب العديد من الأعضاء الآخرين، ويبدو أن حالة الذعر التي طغت على النازيين عند الاعتقالات الأولية قد هدأت. كان استجواب "الجيستابو" الذي خضعت له أكثر اعتدالًا مما كانت تتخيل. أدركت بعد بضع دقائق أنهم وجدوها لطيفة جدًّا وجميلة للغاية، وأنها أجمل من أن يكون لها علاقة بحركة مشينة مثل "الوردة البيضاء". ويبدو أن المحققين قد اتخذوا قرارهم بالفعل بشأنها، وكل ما كان عليها فعله هو أن تسايرهم. يعلمون أن "هانز" و"صوفي" هما القوى الدافعة وراء الحركة، وأن "فيلي" و"كريستوف" و"أليكس" فاعلين رئيسيين، ولكن المحققين أرادوا أن تؤكد "فرانكا" القصة التي صاغوها بالفعل حول المجموعة وحول دورها كصديقة الزعيم التي لا توافقه آراءه، وأنها الفتاة الآرية الموالية التي ضللها المعارضون الخونة. بدا دورها حيويًّا في المسرحية التي كان النازيون يحاولون تقديمها لجمهور ألماني مندهش ومصدوم. ولم يصدق المحامي الذي عينه والدها أن من نصيبها كل هذا الحظ الحسن.

- لا أعتقد أنهم كانوا سيرحمونك لو لم تكوني بهذا الجمال.

قال والدها:

- أهم شيء هو أن نخرج من هنا أحياء. قولي كل ما ينبغي عليكِ قوله حتى تحافظي على حياتك. انكري أي صلة لكِ بهذه الحركة وانقذي رقبتكِ.

أرادت "فرانكا" الدفاع عن القضية، وأرادت إخبار المحكمة بأنها فخورة بما فعلوه، وأن "هتلر" هو الخائن القاتل.

- كيف يمكنني أن أتخلى عن أصدقائي؟ هذا يعني إنكار كل ما أؤمن به. كيف يمكنني العيش أمام نفسي بعدها؟

- لا تفعلي هذا بنفسك. افعليه لأجلي أنا. أحتاج إليكِ الآن أكثر من أي وقت مضى. لا تتركيني.. لأجل خاطري.

وهكذا فعلت. أنكرت أي صلة لها بحركة "الوردة البيضاء" أمام المحكمة، وزعمت أنها ضللت بكلام صديقها المتمرد. كان قلبها يتمزق أكثر وأكثر مع كل جملة تقولها. ابتسم لها والدها في قاعة المحكمة، وحياها عندما أعلنت ولاءها لـ"الرايخ". فكرت في "هانز"، والخطاب الأخير المؤثر لدعم الحرية الذي ألقاه في قاعة المحكمة نفسها هذه، ولكنه كما قال والدها.. مات الآن، وكذلك ماتت "الوردة البيضاء". لم يكن عليها أن تموت معهما، لذلك باعت كل شيء تؤمن به لتحيا من أجله. حكموا على "فرانكا" بالسجن ستة أشهر. وقال القاضي إنه يأمل أن يمنحها السجن وقفة للتفكير في حياتها وطريقة اختيار زوج من المخلصين لـ"الرايخ"، ونصحها بأن يكون جنديًّا يخدم في الجبهة، لتتجب منه العديد من الأطفال لخدمة "الفوهرر". بكت عندما أخذها الحاجب خارج قاعة المحكمة، شعور العار أشد من أن تتحمله. أعدم "فيلي" و"أليكس" والدكتور "هوبر".. الأبطال بحق.

تجنبت "فرانكا" مصيرًا بائسًا في معسكرات الاعتقال المخيفة، والتي أصبحت الرعب المسكون عنه في ألمانيا، وهي الحقيقة التي لم يرغب حتى أنصار النازية الأكثر تشددًا في الاعتراف بها. أرسلوها إلى سجن "شتادلهايم" مع العديد من أعضاء "الوردة البيضاء" الآخرين، وحيث أعدم "هانز". غرقت في اكتئاب عميق. طاردتها أشباح الأبطال الذين سقطوا من "الوردة البيضاء" في أحلامها. ومر الوقت ومعه زاد اكتئابها. يراسلها والدها بانتظام، وكان الوعد بالرسالة التالية هو الشيء الوحيد الذي أبقاها على قيد الحياة. كلماته اللطيفة المفعمة بالأمل هي العلامة الوحيدة على الحب أو الجمال في عالم جُرد من مثل هذه الأشياء. ولكن الرسائل انقطعت في أكتوبر. لقد قُتل والدها بقنبلة طائشة أسقطتها طائرة تابعة للحلفاء. كان من المقرر إطلاق سراحها بعد ثلاثة أسابيع. وهكذا، أصبحت عائلتها ضحية كلا الجانبين في هذه الحرب المجنونة التي سلبتها كل شيء.

مكثت في "ميونيخ" لأسبوع أو أسبوعين بعد إطلاق سراحها. لا تتذكر سوى القليل عن تلك الفترة. لم تعد تنتمي إلى هناك بعد الآن. لم يعد بإمكانها التظاهر بأنها جزء من مجتمعهم بعد الآن. لا تزال الأعلام ترفرف فوق المباني التي تعرضت للقصف، ولا يزال الصليب المعقوف يزين عددًا لا يحصى من التوابيت التي شُحنت إلى الوطن من الجبهة الشرقية. وصلتها رسالة من محامي والدها في "فرايبورج". كانت وصية والدها جاهزة. لن يحضر أي شخص آخر. كان ذلك في اليوم الذي

قررت فيه الانتحار. لم يبقَ لها شيء. يبدو أنه من المناسب الآن العودة، لتنتحر هناك في مسقط رأسها، بالقرب من المكان الذي سعدت فيه كما لم تسعد أبدًا في حياتها.

سمعت المحامي يقرأ وصية والدها، بينما تتحمل نظراته الرافضة من مقعده تحت صورة "هتلر" المعلقة فوق مكتبه، وفي اليوم التالي، زارت قبور والديها. كانا يرقدان بجانب بعضهما بعضًا على تل يطل على المدينة التي كانا يعيشان فيها. وبعد ذلك مباشرة، راحت إلى الكوخ. تنهشها أسوأ الذكريات في الليل، حتى صار النوم عذابًا لا يطاق. الألم أشد من أن تتحمله. وانطلقت في تلك الليلة من دون هدى، ولم تفكر أبدًا في أنها ستمشي كل هذه المسافة، ولكنها أخذت تصعد التل تلو الآخر، وتتجاوز صف أشجار من بعد صف، حتى صادفته.

انتهت "فرانكا" من قصتها. وانتبهت إلى أن الشمعة تكاد تذوي تمامًا. لا يزال الليل على صمته المطبق في الخارج.

- "فرانكا".. ما الذي حدث لـ"فريدي"؟ كيف مات؟ ماذا فعل النازيون به؟

- لا يمكنني التحدث عن هذا الآن. عليَّ أن أذهب.

أغلقت الباب خلفها، لتتركه وحده في الغرفة المعتمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن

مر أسبوع منذ أن عثرت عليه. تراجعت آلام ساقيه الآن، لكنه لا يزال مقيدًا إلى هذا السرير، محاصرًا في هذا الكوخ. ضوء النهار في الخارج يحتضر، والشمس ترسل أشعتها البرتقالية الحمراء الواهنة على زجاج نافذة غرفته المكسو بالثلج. استعرض في ذهنه قصة "فرانكا" مرارًا وتكرارًا، باحثًا عن التناقضات التي لم تكن موجودة. لم يرها منذ الليلة الماضية، منذ أن خرجت بعد أن أخبرته بشيء من ماضيها. من الصعب ألا يخبرها بما يعرفه عن أنشطة "الوردة البيضاء". تذكر تدريبه وأساليب الاستجواب التي تعلمها. تبوح عيناها بحقيقة عميقة. يعلم أنها لم تكن تكذب، لكنه يعلم أيضًا أنها كانت تخفي شيئًا ما. أخبرته بمعظم قصتها، لكن هناك شيئًا آخر، حلقة مفقودة. وبغض النظر عن كل ذلك، كان من المستحيل أن يتخيلها عميلة في "الجيستابو". إذا عرفت أنه ليس ألمانيًا وأبلغت عنه، لكان في غرفة الاستجواب الآن. هي ببساطة ضد النازية، وقضت وقتًا في أنشطة ضد النظام، ولم تفلت من المقصلة إلا بسبب أن مَن حاكموها استهانوا بها.. فهل عرفت هويته الحقيقية بطريقة ما؟ ولكن كيف؟ مد يده ليشرب من كوب الماء البارد بجانب سريره. إن هي حدست أنه ليس ألمانيًّا، فما الذي حدسته خلاف ذلك؟

طقس اليوم صحو. لم يكن من السهل معرفة ذلك من خلال النافذة المغطاة بالثلج، لكن الثلوج لم تتساقط اليوم. من المحتمل أن يكون الوصول إلى الكوخ أسهل الآن. نظر حوله. لم يكن هناك مكان في الكوخ يسمح بالتجسس لرجال "الجيستابو" السريين الذين يتلصصون عليه من خلال ثقوب في الحائط. سمعها بوضوح عندما أحضرت الحطب، وعندما صنعت لنفسها فنجانًا من القهوة في المطبخ. سمعها تستحم في وقت سابق وعرف أنها كانت تقرأ على الكرسي الهزاز بجوار النار في غرفة المعيشة الآن بينما تستمع إلى الراديو. تتصرف على طبيعتها تمامًا. تستمع إلى محطات إذاعية أجنبية محظورة، وتحدثت في كثير من الأحيان عن ازدرائها للنظام. ولو أنه ضابط في طيران النازي - كما تقول أوراقه - فيمكنها أن تتوقع معاملة قاسية من "الجيستابو" إذا أبلغ عن نشاطها غير القانوني. وهذا يعني أنها كانت تقول الحقيقة عندما قالت إنها تعرف. لم يكن هناك تفسير آخر.. لقد عرفته بطريقة ما.

عرف من أصوات غرفة المعيشة أنها نهضت من مقعدها وصارت في المطبخ. اقتربت خطواتها نحو بابه، تبعها طرق. فتحت الباب. كان وجهها شاحبًا. من النادر أن يراها في أثناء النهار ما لم يكن لديها سبب محدد لدخولها الغرفة. كانت تأتي عادة في أوقات الوجبات فقط، ولكن لا يزال هناك ما لا يقل عن ساعة حتى موعد العشاء.

- أنت بخير؟

- أنا مرتاح جدًّا، فرويلاين.

كان نظامًا، سلوكًا مكتسبًا، أن يقاوم غرائزه، وألا يكشف عن نفسه. سمع صرير سريرها طوال الليل والآن يرى آثار السهاد تحت عينيها.

- "فرانكا"؟ ليس لديكِ ما تشعرين بالذنب حياله.

- ماذا؟

- ليس خطأك أنكِ على قيد الحياة وهم ليسوا كذلك. ولا يجب أن تشعري بالخجل من أنكِ لا تريدين أن تموتي.

جاءت الكلمات بدون تفكير أو دافع خفي، حتى أنه فوجئ بنفسه. خاطبته بصوت كالهمس، وهي تحدق في الأرض:

- لقد تخليت عن كل ما آمنت به. لا شيء لديَّ في هذه الحياة. ولو أنني تحدثت بكل صراحة على الأقل لكـ..

- لكنت ميتة الآن، وكذلك أنا. فما المنفعة التي ستتحقق بعد ذلك؟ مَن سوف يستفيد من موتك؟ لقد مات "هانز"، ولكن هذا لا يعني أن تموتي أنتِ أيضًا.

- هذا عبث. لم أبُح بمثل هذا القدر لأي شخص من قبل. أنا حتى لا أعرفك.

- يصعب على المرء أن يجد مَن يأتمنه على سره في هذه الأيام.

هل يمكن أن يثق بها؟ هل كانت قصتها حقيقية؟ ما فرص العثور على شخص مثلها؟ أراد أن يصدقها، لكنه لم يستطع، ليس وهو يعلم أنها تخفي عنه أمرًا.

- "فرانكا"؟ هل هناك مانع في أن أناديك باسمك؟

- كلا، طبعًا.

- أريد أن أشكرك لأنك أخبرتني بقصتك.

- هل ستبلغ عني؟

- لماذا؟

- لأنني أستمع إلى المحطات الإذاعية المحظورة؟ ولأنني أحرض ضد "الفوهرر"؟

- أنا لست نازيًّا.

- مَن أنت إذًا؟

- ليس كل ألماني يرتدي الزي العسكري نازيًّا، لا بد أنكِ تعرفين هذا أفضل من غيرك.

- وليس كل مَن يرتدي زي النازية ألمانيًّا.

- لا مجال لانتقاد الحكومة في وقت الحرب.

شعر أن كلماته بلا معنى.

- ولكن هذه لم تكن قناعة "الوردة البيضاء".

- أتظنين أنكِ وطنية حقيقية لمجرد معارضة الحكومة؟

- كان هذا في الماضي. لم أعد أستحق هذا الآن. ليس بعد ما فعلته.. "هانز"، و"صوفي"، و"فيلي"، و"أليكس".. هؤلاء هم الوطنيون بمعنى الكلمة.

خيَّم الصمت ثقيلًا على الغرفة. هذا هو الوقت المناسب.. ها هي الفرصة سانحة أمامه.

- هناك أمر تخفينه عني.

- ما الذي تتحدث عنه؟

- أنا أعرف مكنون الناس، هذا جزء من عملي. دربوني حتى أدرك أن مَن يقف أمامي يخفي أمرًا.

- وماذا عنك، هير "جراف"؟ ما الذي تخفيه؟

- لا يتعلق الأمر بي.

- أوه.. حقًّا؟

يعي أن المسدس تحت وسادته وهو يعرف تأثير الوصول إليه على هذا الحوار، بل على الموقف كله.

- هناك سر لم تخبريني به.

صاحت فيه:

- وأنت لم تخبرني بشيء!

- لا يمكنني الكشف عن تفاصيل المهمة التي أقوم بها.

- أعرف، من أجل مصلحة "الرايخ". تصل إلى كل أسراري، وعندما أتحدث عنها تطلب المزيد. أنت تقول إنك لست نازيًّا، لكنك مثلهم تمامًا. ربما تكون أنت مَن لديه سر.

أغلقت الباب خلفها بقوة، لكنه لم ينغلق. أسرعت الخطوة بقوة نحو المطبخ. سمعها تسحب كرسيًّا إلى الطاولة ثم سمع صوت بكائها.

قاوم إحساس الشفقة بداخله.

إنها تبكي.. وحيدة.

ماذا بوسعه أن يفعل وهو أسير الفراش، في هذا الكوخ، في قلب الجبال؟ هل يمكن أن يثق بها؟ كان السؤال نفسه مرارًا وتكرارًا، ولم يتغير.. هل تستطيع أن تفعل ما لم يستطع فعله الآن؟ صحيح أنها كشفت كثيرًا من أسرارها، لكن بإمكانه أن يدرك أن هناك سرًّا كبيرًا خفيًّا. إنه يشعر بها. ماذا حدث لـ"فريدي" شقيقها؟ كانت تتجاهله

في القصة كما لو أنه قد تلاشى من الحياة. لماذا لم تكن تزوره إن كان في دار قريبة؟ كان قطعة الأحجية الأخيرة. بمجرد الكشف عن الأسرار، فلن تكون هناك أي أسرار، وقد يكون المسدس تحت وسادته ملاذه الوحيد. كان عليه أن يتأكد. حياتها تعتمد عليه.

مرت الساعات. لم يأتِ العشاء. نفد كوب الماء، وبقي سطل البول في ركن الغرفة. يسمعها في الخارج، ويسمع كل خطوة، لكنه لم يصدر أي صوت. يعلم أنهما في نقطة تحول، وعليها أن تتخذ الخطوة التالية. ولقد انتظر. دقت الساعة إحدى عشرة دقة. حوَّل سواد الليل البهيم النافذة إلى مرآة تعكس وهج مصباح الزيت الأصفر.

هذا وقع خطواتها. وقفت عند الباب لبضع ثوانٍ، وكان ضوء مصباح الزيت يتراقص على عينيها الزرقاوين. لم يتكلم. قالتْ بصوت خافت باهت:

- سوف أخبرك بما تريد أن تعرفه، لكن ليس من أجلك. لقد كنت أكتم هذا منذ زمن. "هانز" الشخص الوحيد الذي أخبرته، وحتى هو أخفيت عنه بعض التفاصيل.

حدقت في المجهول، بينما توالت الكلمات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان "فريدي" في الرابعة عشرة عندما أخذوه إلى الدار في عام 1939. صار حجم جسده عبئًا عليه؛ طوله ستة أقدام تقريبًا، ومع نمو جسده، بدت أطرافه تذبل. أصبح لا يمشي، وكان "توماس" يجد صعوبة في حمله إلى داخل كرسيه المتحرك وإنزاله منه كل يوم. كانت "فرانكا" ذاهبة إلى "ميونيخ" لتبدأ حياتها الجديدة. شجعها والدها إلى حد أنه كاد يجبرها بالقوة على قبول الوظيفة. أصر على أن لديها حياتها الخاصة لتعيشها وأن "فريدي" سيكون عبئًا ثقيلًا لن يتسنى لأي منهما تحمله. من الأفضل أن يعتني به محترفون. قبلت "فرانكا" رغبات والدها دون اعتراض، لكنها عرفت في أعماقها أن أنانيتها هي التي تدفعها بعيدًا، ورغبتها في أن تعيش حياة منفصلة ومستقلة؛ فقد كانت في الثانية والعشرين. "دانيال" هو الحب الوحيد الذي عرفته على الإطلاق. وقد أرادت المزيد من الحب. بدت "فرايبورج" مساحة مسمومة بالنسبة لها. وفي "ميونيخ"، المدينة الكبيرة، أمل جديد.

"فريدي" أفضل من أي شخص عرفته على الإطلاق؛ لم يعرف الكراهية، الحقد، الانتقام، والبغض؛ تلك المشاعر التي كانت ركيزة النازية. لم يعرف سوى الحب. أولئك الذين عرفوه شعروا فيه بإشراق هذا الحب. من المستحيل مقاومته. تلقى بتفاؤل وروح طيبة خبر رحيله عن المنزل، وقال إنها فرصة لتكوين مئات الأصدقاء الجدد.. وكانت كذلك بالفعل. وعندما عادت "فرانكا" لزيارته في نوفمبر 1939، بعد أسابيع قليلة من انتقاله للدار، بدا الأمر كما لو أنه كان هناك طوال حياته؛ الجميع يعرفه ويحبه، وقضى ما يقرب من ساعة في تعريفها بأصدقائه الجدد هناك، والممرضات اللائي استقبلنه بابتسامات مبتهجة، والمرضى الذين لا يستطيعون الحركة أو التحدث الذين استقبلوها بإيماءة أو بيد مرفوعة. لم يكن لأحد إلا أن يحبه.

تزوره "فرانكا" كلما استطاعت. تعود إلى "فرايبورج" كل ثلاثة أسابيع أو نحو ذلك، حيث كانت تزور "فريدي" في كل مرة مع والدها، الذي أصبح جميع الموظفين يعرفونه. بدا "فريدي" سعيدًا وفي أفضل مكان. كرر والدها ذلك الوصف كثيرًا حتى كادت تصدقه، ولم تعد تشعر بالذنب لانتقالها إلى "ميونيخ". استقرت حالته. لم يتحدث الأطباء عن أي أمل في العلاج، لكن حدة تآكل أطرافه تباطأت. وكان بإمكان "فريدي" أن يتجول حول الدار بسهولة على كرسيه المتحرك، وهو مشغول دائمًا ومبتهج.

تعرفت "فرانكا" على العديد من الممرضات منذ فترة وجودها في الكلية، وظلت على اتصال معهن بشأن تقدم حالة "فريدي" في الفترات بين الزيارات. كلما مر الوقت، ارتاحت "فرانكا" ووالدها. حياتهما الجديدة مع "فريدي" أفضل من أي وقت مضى. ارتاح بال والدها للمرة الأولى منذ سنوات. ومع ارتياح "فرانكا" بشأن حياة "فريدي"، انطلقت في حياتها الجديدة بحيوية وشغف. بدا الأمر كما لو أن تحقيق التوازن في الحياة صار ممكنًا في النهاية.

أتاهما الخبر دون سابق إنذار. في أبريل 1941، اتصلوا بـ"فرانكا" في عملها. حدثتها إحدى ممرضات الدار، وهي تبكي.

جاءت شاحنات قوات الأمن الخاصة النازية السوداء، وحدات "إس إس"، بغتةً بعد ظهر يوم الثلاثاء. كان الطقس صحوًا، وأُخرج جميع المرضى، حتى أولئك الذين يعانون حالة الجمود. طلبوا من المرضى الأكبر سنًّا الذين كانوا قادرين على الوقوف أن يصطفوا. اعترضت كبيرة الممرضات ولكنهم اعتقلوها. قام رجال يرتدون المعاطف البيضاء والذين لم يعرفوا أنفسهم كأطباء بفحص أفواه المرضى الأكبر سنًّا، أكدوا للموظفين على أنه إجراء روتيني سينتهي قريبًا. وضعوا المرضى في مجموعات، وميزوا بعضهم بختم حبر على صدورهم. سمحوا لمجموعة واحدة بالعودة إلى الداخل، بينما اقتادوا مجموعة أكبر إلى حيث كانت الشاحنات. وضعوا المرضى في الشاحنات، بعضهم على كراسيهم المتحركة، والبعض الآخر على عكازين، والبعض الآخر على نقالات. سأل أحد الأطفال قائد القوات الخاصة إلى أين هم ذاهبون، فقال لهم إنهم ذاهبون إلى الجنة. ذهبوا إلى الشاحنات وابتسامات مطمئنة على وجوههم.

اضطربت أعصاب "فريدي". كما لو أن غريزته أخبرته أنهم يكذبون. وقاومهم "فريدي"، مستغيثًا بالممرضات، وتوسلهم السماح له بالبقاء. منعوا الممرضات الباكيات اللائي حاولن مساعدته، وطرحوا بعضهن أرضًا. وضع أحدهم يده وهو يبتسم على كتف "فريدي" وأخبره أنهم سيعودون قريبًا وبجعبتهم قصص رائعة ليحكوها، وأنهم ذاهبون إلى مكان يقدمون فيه الآيس كريم مجانًا. وبدأت أعصاب "فريدي" تهدأ. حرك الجندي كرسي "فريدي" إلى الشاحنة السوداء حيث رفاقه. وبدأ رجال القوات الخاصة يغنون مع الأطفال كما لو كانوا في رحلة ليوم واحد. لوح "فريدي" للممرضات بيده بينما كان الباب يغلق خلفه، وارتفعت أصوات الأطفال بالغناء وهم يبتعدون.

بحث والد "فرانكا" في جنون عن مكان ابنه، ولكنه اصطدم بجدار من التجاهل والإنكار. ومرت بضعة أيام مؤلمة قبل إبلاغه برسالة أن "فريدي" تُوفي بنوبة قلبية وحُرقت جثته. كانت الرسالة مرفقة بشهادة وفاة، وفي ذيلها تحية "هتلر" الرسمية.

كان القرار من "هتلر" نفسه. اتسم "الفوهرر" بالكسل وانعدام الكفاءة وبأنه ميال لإعطاء توجيهات غامضة، يتوقع تنفيذها سريعًا. تحدث في الماضي عن "البشر الآكلين عديمي الفائدة" في المنازل والذين يهدرون الموارد من أجلهم، بينما تضحي زهرة شباب ألمانيا بأرواحها في ساحة المعركة. وقرروا إخراج الأشخاص "الذين لا يستحقون الحياة" من المستشفيات لإفساح المجال للجرحى العائدين إلى الوطن من الجبهة، أو للأمهات اللواتي سوف ينجبن، أملًا في أن يعوض المواليد خسائر المعركة. ما فائدة المعوقين جسديًّا وعقليًّا، وكبار السن في زمن الحرب؟ من شأن "حرمانهم من الحياة" أن يصنع أمة أكثر قوة وصحة، وأن يؤمن مستقبل العرق الآري. وهكذا، عيَّن "هتلر" لجنة من الأطباء الذين سيقررون مَن يجب أن يعيش ومَن يجب أن يموت. وكان مصير آلاف لا حصر لها هو الموت.

انهار "توماس جربر" تمامًا. امتص موت "فريدي" من روحه أي حياة أو حب أو فرح. اختفت الحيوية والبهجة التي كان معروفًا بها من قبل. ولم تسمعه "فرانكا" يضحك بعد ذلك. كما لو أنه لم يعد يعرف كيف يضحك أو يبتسم. فقد وظيفته بعد فترة وجيزة وتقوقع حول نفسه مذهولًا مخمورًا. عمق الألم أكبر من أي شيء شعرت به "فرانكا" في أي وقت مضى. بكت لأيام، غير قادرة على الأكل أو النوم، وتعتمل كراهيتها للنازيين مثل الزجاج المنصهر بداخلها. لقد كرموا قتلة "فريدي" وعدُّهم أبطالًا، وصار المسؤول الرئيس عن كل هذا نصف إله. لم يكن هناك مفر؛ قتلة "فريدي" في كل مكان. كل مَن كان يرتدي شارة النازية أو يرتدي دبوسًا نازيًّا.. كل رجال قوات الأمن الخاصة، وكل آري مخلص. كل شباب "هتلر" وكل هستيري بعينين جاحظتين يصرخ بالتحية النازية في تجمعات لا حصر لها. مَن يعرف عدد الآلاف الذين قُتلوا في إطار برنامج النازي للقتل الرحيم، أو أُخضعوا لأنهم يهود، أو غجر، أو شيوعيون، أو قادة نقابيون، أو معارضون سياسيون، أو مجرد مواطنين ضُبطوا وهم يقولون ما ليس على الهوى؟ أدركت "فرانكا" أنه قد أصبح هناك حد فاصل في المجتمع الألماني بين الجناة والضحايا. الآلاف شركاء في ذنب جماعي، كما قال "هانز"، ولكن هناك الكثير من ضحايا النظام.. أولئك الذين أُرسلت عائلاتهم إلى معسكرات الاعتقال أو قُتلوا بوصفهم "لا يستحقون الحياة". عاشوا حياتهم كلها في سجن مفتوح هو ألمانيا النازية تحت حكم أولئك الذين ارتكبوا جرائم شنيعة.

لم يتسلما جثمانًا ليدفناه، ولن يحاكم أي شخص بتهمة قتل "فريدي". زارت "فرانكا" الدار، على أمل أن تجد في ذلك العزاء، وانهارت الممرضات بكاءً عند رؤيتها. سقطت صديقة "فرانكا" التي اتصلت بها في حضنها، متوسلة المغفرة لعجزها. ولم تبقَ "فرانكا" طويلًا. يعتقد الموظفون أنها مسألة وقت فقط قبل أن تعود قوات الأمن الخاصة لأخذ بقية المرضى. عادت "فرانكا" إلى "ميونيخ"، وحاولت الانغماس في

الموسيقى والعمل وأي شيء يصرفها عن الألم الدائم بداخلها. والتقت "هانز"، وجمعهما الغضب، وأصبحا على استعداد للموت في سبيل الشعب الألماني.

لم يفارق "فريدي" مخيلتها قط. ترى وجهه كل يوم، وتسمع ضحكته أينما ذهبت. كان طيبًا جدًّا.. نقيًّا جدًّا وسط مستنقع من التحيز والكراهية غرقت فيه البلاد. لم تعد أرضًا للملائكة، بل سكنها حاملو رايات الكراهية والخوف.

هزت الرياح النوافذ، ثم خمدت. مرت دقيقتان من الصمت منذ أن أنهت قصتها، ولم يملأ المكان سوى صوت بكائها.

- لقد تحدثت بالكثير. حان الوقت لأن أتركك لتنام قليلًا. ليست هناك فائدة من الـ..

- "فرانكا"؟

كانت تسير باتجاه باب غرفتها لكنها توقفت عندما ناداها.

- اسمي "جون لينش"، من "فيلادلفيا"، ولاية "بنسلفانيا"، وأحتاج إلى مساعدتك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع

جزيرة "جوادالكانال"، المحيط الهادي، قرب أستراليا، نوفمبر ١٩٤٢

هبت الرياح، فكانت بمنزلة راحةً من موجة حارة شديدة. خلع "جون" خوذته ومسح بمعصمه العرق عن جبهته، ولكن العرق كان يغطي جسده بالكامل. أنزل الرجال من حوله حقائب الظهر والبنادق، وجلس الكثير منهم على خوذاتهم. كان العشب الطويل على التل فوقهم يتراقص مع النسيم. أخرج "جون" بعض الطعام من جيب سرواله. يداه جافتان تؤلمانه وترتجفان وهو يقرب الماء من شفتيه. شرب ما يكفي فقط لإرواء عطشه وأغلق الزمزمية مرة أخرى. لم يصلهم مدد منذ عدة أيام، والمياه تنفد. لا يبدو أنهم يمثلون أولوية لكبار الضباط. يعاني جسده آلاف العذابات الصغيرة، حتى أن جلوسه القرفصاء ترف بعد مسيرة يوم. أسند بندقيته إلى جدار التل الذي تستريح عنده فصيلته. انشغل بعض الرجال بتناول ما تبقى في المعلبات بأصابع قذرة. وهبت رائحة السجائر. بعضهم يتأوه والبعض يتحدث. يعرفون ما هو آتٍ. ويعلمون أن هذه ليست سوى راحة قصيرة. لا بد من تجاوز هذا التل.

قدم "ألبرت كينج"، وهو مزارع من كانساس، سيجارة له، ولكن "جون" هز رأسه رافضًا.

- أتستحقر نوع السجائر الذي أدخنه؟ أرى أن تلك الملعقة الفضية التي تدسها في مؤخرتك تمنعك من الجلوس.

- أنا في انتظار مَن سيأتي ليركن لي سيارتي. أصبحت الخدمة سيئة للغاية هذه الأيام.

سمعوا صوت الرائد، قبل أن يروه يطارد صف الجنود المنهكين، وينظر إليهم كل على حدة. توقف حيث كان يجلس "جون" و"كينج". قال الرائد "بينيت":

- أنا بحاجة إلى متطوعين. بحاجة إلى خمسة رجال ليصعدوا ويلقوا نظرة على ما يجري على هذا التل.

مشى بضعة أقدام، والرجال يشعرون بوطأة نظراته.

- نحن هنا هدف سهل. ولو كان في يد العدو سلاح هناك، وهو ما أعتقده، فسوف يحصدنا حصدًا. لذلك أحتاج خمسة رجال للاستيلاء على كل ما يوجد هناك. دخلت المدفعية في وقت سابق، لذلك ربما لن تجدوا هناك سوى جثث صفراء. مَن يريد هذه المهمة؟

ارتفعت أيادٍ متعبة ومترددة، ومن بينها يد "جون". اختاره "بينيت" أولًا. تجمع الخمسة حول الرائد.

- "لينش" سيقودكم. إذا كانت هناك أسلحة، اجمعوها. وعودوا إليَّ مرة أخرى.

تبع الرجال "جون" بينما كان يتطلع إلى ما بعد التلال. تدفقت موجات العشب مع الرياح لمسافة ثلاثمائة قدم حتى قمة التل. الشمس تغرب. وتحولت السماء إلى لون مزيج من البرتقالي والذهبي تنثره ريشة رسام سماوي. بدا أن الضوء يتكاثف، كما لو كان بإمكانهم الوصول إليه والشعور به. مسح "جون" كفيه المتعرقتين على ثيابه الباهتة وأشار للآخرين أن يتبعوه. جثم، وعيناه بالكاد أعلى العشب الكثيف الذي يصدر صوت هسهسة حولهما. انتشر الرجال، فكان "كينج" و"كاربنتر" على يساره، و"سميث" و"مونيزا" على يمينه. تحركوا في صمت، وأرجلهم تخوض في العشب الكثيف. مائة ياردة فصلتهم عن بقية الفصيلة الآن. أشار إلى الرجال بالتوقف. جثموا كأنهم رجل واحد على الفور. أخرج المنظار من حزامه. لا شيء. كانت قمة التل بعيدة عن رؤيته، مختفية وسط سلسلة من التلال.

أشار "جون" إلى الأربعة أن يتبعوه وهو ينهض ويتقدم ببطء إلى الأمام. تقدم الرجال على صف واحد معه على الجانبين مسافة ثلاثين ياردة. لم تعد فصيلتهم ظاهرة الآن، فهي هناك عند منحدر التل. شعر "جون" بأنفاسه خشنة وبقلبه ينبض أسرع. كل خطوة أشد إيلامًا من سابقتها. قدماه متقرحتان وجواربه مخضبة بالدماء. لم يكن هناك شيء. يمكنهم أن يشيروا للآخرين ليصعدوا. عليه فقط أن يرى ما وراء التلال أمامه. كانت قمة التل في أفق الرؤية تقريبًا. استدار لينظر إلى الرجال معه، وفي ذلك الجزء من الثانية، تغير كل شيء. دوَّت نيران المدفع الرشاش في الهواء، وأصاب الرصاص صدر "مونيزا" لتتفجر منه نافورة قرمزية اللون. وأصابت رصاصة بندقية رأس "سميث"، فتخبط جسده إلى الوراء قبل أن يخر صريعًا. ألقى "جون" بنفسه على الأرض. يهطل الرصاص على التراب أمامه، وتدحرج بجسده إلى الجانب، حيث كان "كينج" جاثمًا على بعد عشر ياردات. زحف "جون" إليه، ودوي المدفع الرشاش يصم أذنيه. صاح "كينج":

- سأموت هنا.

رقد على ظهره في إنهاك شديد، وسالت دماء من جراح في صدره.

- لن تموت. سوف أخرجك من هنا.

رفع "جون" رأسه مرة أخرى، بما يكفي لرؤية المخبأ على بعد مائة ياردة. أمسك المنظار، فرأى الرشاش. انهمر الرصاص على الأرض أمامه مرة أخرى، فخفض رأسه سريعًا في التراب. مرت بضع ثوانٍ قبل أن يجرؤ على رفع رأسه ثانيةً. لقد مات الآخرون. كانت جثة "كاربنتر" على بعد ثلاثين ياردة إلى اليسار، وجثة "مونيزا" بجانبه. وتدحرجت جثة "سميث" أسفل التل. تصبب العرق على وجه "جون" وهو يفتح قميص "كينج". كان الجرح في الجانب الأيمن من صدره، تحت رئتيه. لم تكن إصابة مميتة، شريطة أن تتجده الوحدة الطبية. كيف له أن يهبط به إلى أسفل؟ سوف يصوبون الرشاش عليهما بمجرد تحركه. بإمكانه الزحف إلى أسفل وحده، ولكن ماذا عن "كينج" والرجال الذين ستلاحقهم الرصاصات نفسها لاحقًا؟ كان عليهم الاستيلاء على التل، ولا سبيل للتقدم غير ذلك. أمسك يد "كينج":

- عليَّ أن أصعد وألقي نظرة. سوف أعود، ولسوف أجعلهم يدفعون ثمن ما فعلوه بك والآخرين.

وهنت قبضة "كينج"، وزحف "جون" نحو قمة التل، متجاوزًا جثة "سميث". رفع رأسه، واستطاع رؤية المخبأ، لكنه لم يتعرض لرصاص. أطلق المدفع الرشاش بضع طلقات عشوائية باتجاه المكان الذي كان يرقد فيه "كينج"، وأطلقت بعض البنادق رصاصها، ممزقة الأرض حيث كان "جون". لم يأتِ أحد تجاه مكمنه. صعد فوق التلال وبدأ بالزحف إلى الأمام، متسترًا بالعشب الذي يبلغ ارتفاعه قدمين. يداه ترتعشان، وحلقه جاف للغاية لدرجة أنه يتوق للعودة إلى جثة "سميث" والبحث عن مياه في زمزميته. لقد ترك زمزميته في حقيبته مع الفصيلة. تجاهل كل غريزة تصرخ بداخله أن يركض نحو أسفل التل؛ فكل حركة إلى الأمام جنون، ولكنه استمر يتقدم.

انتقل "جون" إلى ما كان يأمل أن يكون مساحة مفتوحة على اليمين. حسب معلوماته، ستكون هناك كتيبة كاملة من اليابانيين هناك، وستكون هذه هي الثواني القليلة المتاحة له على الإطلاق. تذكر "بينيلوب"، وتذكر كيف تسقط أشعة الشمس على بشرتها فتنيرها في غرفة الفندق تلك في "هونولولو"، قبل أن يلتحق بالجيش. كاد يشعر بلمستها مرة أخرى، ويكاد يسمع صوتها. فكر في والده، والدته، أخيه، وأخته، وقاوم المرارة التي يشعر بها. لم يكن يريد أن يستسلم لهذا الشعور. ليس الآن. تذكر خريف "بنسلفانيا"، وكيف تغطي أوراق الشجر الحمراء الفناء الخلفي لمنزل والديه، وكيف كان يلهو بها مع "نورمان" وهما صغار.

لم تستقبله زخات الرصاص. زحف إلى الأمام على مرفقيه وبندقيته في يده. ظهر المخبأ بشكل أوضح، على بعد مائة ياردة على يساره، وبجانبه مباشرة، موقع مدفع الهاون. كانوا ينتظرون. سوف يمزقون الفصيلة إلى أشلاء. جلس ثلاثة جنود يابانيين مستعدين في موقع الهاون، محدقين في مكان "كينج" والآخرين. بنوا المخبأ في الأرض، وبرز مدفع رشاش ثقيل من فتحته المظلمة. ينقل اليابانيون الرشاش من جانب إلى آخر، بحثًا عن أي حركة. تدحرج "جون" على ظهره وحمل البندقية فوق صدره. فكر في "كينج".. هل يعود إليه ويحاول إعادته إلى باقي الفصيلة؟ لم ينتبه له اليابانيون وهو يتدحرج. وضعه الآن مثالي لمباغتتهم. لن يكون المدفع الرشاش قادرًا على الوصول إلى حيث كان. ولو أنه تراجع فسوف يقنصوه. سوف يحرص اليابانيون على قتله قبل أن يبلغ عن مواقعهم.

زحف حتى أصبح على بعد خمسين ياردة من الهاون. لا يزال الجنود اليابانيون يحدقون نحو أسفل التل، غير منتبهين له. كان قريبًا بما يكفي لسماع حديثهم وضحكهم. قفز "جون" من مكمنه وحمل بندقيته على كتفه وأطلق النار. ركض نحوهم، وضغط على الزناد مرة أخرى. سقط أحد الجنود وأصيب في رقبته. وصل الاثنان الآخران إلى بنادقهما عندما بدأ هدير المدفع الرشاش من جديد، ولكنهما لم يتمكنا من إطلاق النار. أصابت رصاصات "جون" جنديًّا في صدره. رفع الجندي الأخير بندقيته، لكن "جون" أصابه في رأسه مباشرةً. استمر "جون" يركض، والأنفاس الساخنة تتلاحق في رئتيه. مد يده ليخرج قنبلة يدوية من حزامه، وتوقف

عند موقع الهاون ليلقي بها في كوة المخبأ. هوت في اللحظة التي حاول فيها جنديان يابانيان الخروج، وسرعان ما اختلطت أشلاؤهما بركام الانفجار.

ركض إلى المخبأ، وألقى قنبلة أخرى في الكوة من على بعد ستة أقدام. ألقى بجسده بعيدًا عندما ارتجت الأرض من حوله، وكاد الانفجار يقتلع سقف المخبأ. دوى صراخ بينما خرج جندي يتعثر، وهو يرفع سيف الساموراي، وعيناه المجنونتان جاحظتان في وجه أسود. أطلق "جون" رصاص بندقيته، ولكنها كانت فارغة. تعثر الجندي المحترق الملطخ بالدماء وهو يتجه نحوه بسيفه، فتدحرج "جون" بعيدًا ومد يده إلى سكينه. لقد ذهب الانفجار بنصف وجه الرجل، وتدلى جلد وجهه بشكل بشع. ضرب بسيفه نحو "جون" مرة أخرى، لكنها ضربات واهنة. أمسك "جون" بذراعه وسحبه نحوه قبل أن يغمد سكينه في بطن الرجل. اندفعت الدماء الساخنة واتسعت عينا الجندي وانحسرت الحياة من جسده. وخيم الصمت. دفعه "جون" بعيدًا عنه. ونهض على ركبتيه ودماء الياباني تخضب زيه. أنصت إلى هسهسة الريح في العشب مرة أخرى وسط عتمة المساء، وبالكاد لمح ظلال جنود الفصيلة التي تتقدم إلى أعلى التل.

**

العاصمة واشنطن، فبراير ١٩٤٣

بالغوا في ضبط قميصه.

قالت "بينيلوب"، المتوهجة في فستانها الأحمر:

- توقف عن شد الياقة. سوف تفسدها أيها الأحمق.

- لا بأس، "بيني". ما المشكلة؟

- المشكلة أن أنظار الناس مسلطة عليك.

أمسكته من يده وقادته إلى قاعة الرقص. شعر بأنه غير مرتاح، كما لو أنه لم يكن هنا من قبل على الإطلاق. رجال فصيلته في تفكيره دائمًا. وبدا أنها ذكريات تسحبه نحوها. لا يزال الجزء الأهم من ذاته هناك، وسيبقى هناك.

تطلع إلى زوجته. جميلة كما كانت في أحلام يقظته. وعلى الرغم من أنهما معًا الآن، ويمسك بيديها، فإنها بدت بعيدة. هناك شيء ما يكمن وراء ابتسامتها، وراء الكلمات اللطيفة التي قالتها عندما التقته في محطة القطار. يستغرب هوسها برأي الآخرين أكثر من أي وقت مضى.. هل كانت على هذا النحو عندما التقيا لأول مرة في الكلية؟ تذكر ذلك المساء في "برينستون". كان لقاء عائلتين كبيرتين. بدا الأمر قسريًّا في البداية؛ رُتِّب حفل في القصر القريب لوالديها تقريبًا خصيصًا للقائهما. وكاد يرفض كل شيء، لكن جمالها، وإلحاح والديه، جذبه. وأحبها لبعض الوقت؛ حتى أدرك أن الرجل الذي تريده ليس هو الرجل الذي يريد أن يكون عليه. شعر بقبضتها على يده تتراخى وهما يتقدمان بين الطاولات إلى حيث كان والداه في انتظارهما.

كان والده صديقًا لأعضاء مجلس الشيوخ وأعضاء الكونجرس، وكان قد التقى الرئيس ذات مرة في عام 1938، عندما قام بجولة في مصانع "فيلادلفيا". لا تزال الصورة معلقة فوق مكتبه. وقد استخدم علاقاته لمنح "جون" إجازة لمدة شهر، برغم أنه لم يطلب ذلك مطلقًا.

لا يزال جسد "جون" يحمل آثار الوقت الذي أمضاه في الأدغال، فبعض الجراح لم تلتئم بعد. لقد استغرق أيامًا حتى ينظف جسده تمامًا، ويخرج الأوساخ من تحت أظافره، ليبدو حسن المظهر.. "أنظار الناس عليك"، استقبله والده بمصافحة قوية. عانق أخته، "بيرل"، وصافح شقيقه "نورمان"، رغم أنه لم يستطع النظر في عينيه تمامًا. كانت هذه هي المرة الأولى التي شوهد فيها معهم في أماكن عامة منذ عودته. هذه فرصتهم للتباهي به أمام أقرانهم. قبَّلت "بينيلوب" أهل زوجها وانتظرت أن يمسك "جون" كرسيها قبل أن تجلس. وجلست "بيرل" إلى جانبه و"بينيلوب" إلى الجانب الآخر. زوج "بيرل" يعمل في سلاح الجو المتمركز في إنجلترا. وقد بدأت غارات القصف على أنحاء أوروبا. خانت عينيها مشاعر القلق التي كانت تعمل جاهدة على إخفائها.

حان وقت إلقاء الكلمات، حيث أعلن كل متحدث عن الحاجة الملحة لشراء سندات تمويل الحرب. وجاء دور والد "جون"، فأشار إلى ابنه ليقترب من المنصة، وطلب منه الوقوف. لقد قام بواجبه، حاملًا النجمة الفضية التي حصل عليها بعد موقعة "جوادالكانال" وإنقاذ حياة "كينج". وقف جميع مَن في القاعة وقد يزيد عددهم على مائتي شخص ليصفقوا له. شعر بيد "بيرل" على كتفه، ورأى "بينيلوب" تقف إلى الخلف وتصفق مع البقية. جلس بمجرد انتهاء التصفيق، وقد تخلص من حمل ثقيل.

انتهى العشاء، وتدفق عليه أصدقاء العائلة والمهنئين - الذين كان يعرف بعضهم - لمصافحته والتعبير عن مدى إعجابهم بالعمل الذي كان يقوم به في الجبهة، وكيف أنهم يتمنون لو أنهم معه لولا لعنة السن. أوجعه معصمه من فرط المصافحة. وتألم وجهه وهو يبتسم. ونجحت "بينيلوب" في إقناع الكبار بفتح دفاتر شيكاتهم.

صدحت الموسيقى عندما ناداه والده. كان يقف بجانب رجل ذي شعر فضي، بدين إلى حد ما، في الستينيات من عمره، يرتدي بدلة سهرة "توكسيدو".

- "جون"، أود أن أعرفك على "ويليام دونوفان".. "بيل"، هذا ابني "جون".

قال "دونوفان":

- يسعدني أن ألتقيك.

صافحه بقوة ظاهرة.

- "جون" يريد شيئًا أكثر مما يمكنني أن أقدمه له.

- ما الذي تتحدث عنه يا أبي؟

كان لدى "جون" إحساس بمسار هذه المحادثة؛ كانت تلك المحادثة التي دأب عليها هو ووالده في كثير من الأحيان، والتي خلفت فيه دائمًا شعورًا بالذنب.

أوضح والد "جون":

- لقد خططت أن يتولى أعمالي، لكنه لم يكن يريد ذلك؛ كاد أن يحطم قلبي. لكن ابني الآخر، "نورمان"، يقوم بعمل رائع.

- لماذا لا ترغب في الانخراط في أعمال أبيك يا بني؟

- إنها لا تناسبني.

- خسارة.. لكن "جون" لم يرغب أبدًا في العمل في الصناعة، رغم أنني ربيته وأهلته لقيادتها. يريد أن يشق طريقه كما يرغب.

- هل يمكن أن نتحدث في هذا الأمر لاحقًا؟

- أجل، سيكون ذلك مناسبًا. سوف أترككما لتتحدثا.

انتظر "دونوفان" حتى ابتعد الأب.

- أود في البداية أن أشكرك على خدمتك لوطنك.

- أشكرك.

- أتعرف من أنا يا "جون"؟

شعر "جون" من نبرة "دونوفان" أنه في حضرة رجل عسكري، رغم أنه يرتدي زيًّا مدنيًّا.

- لست متيقنًا، سيدي. ولا أود أن أفترض، ولكن والدي بدا حريصًا على أن نلتقي.

- هناك سبب وجيه لهذا، بني. أنا صديق قديم لأبيك. خدمنا في الحرب السابقة معًا. كنت رضيعًا وقتها.

- ولماذا لم نلتقِ من قبل يا سيدي؟

- لم أتواصل مع والدك لفترة من الوقت. لم نرَ بعضنا بعضًا منذ سنوات، حتى التقينا في حفل عشاء مثل هذا قبل عيد ميلاد العام الماضي.

مد "دونوفان" يده في جيبه ليخرج علبة سجائر وعرض سيجارة على "جون". وعندما رفض، أعادها "دونوفان" إلى جيبه دون أن يشعل واحدة لنفسه.

- أخبرني والدك عنك وعن مآثرك المذهلة في خدمة بلدنا. قال لي إنك وطني حقيقي.

- هذا أنا يا سيدي.

- أنت تتحدث الألمانية أيضًا، أليس كذلك، تعلمتها خلال وقت خدمتك هناك؟

- عشنا في برلين لبضع سنوات في العشرينيات، قبل أن تصبح الأمور مجنونة للغاية هناك. أنشأ والدي بعض المصانع بها.

- وكيف هي لغتك الألمانية الآن؟

- قد تكون متعثرة بعض الشيء، لكنني أتقنها. كنت المترجم لعائلتي في أول عامين هناك. "بيرل" و"نورمان" أكبر مني. مكثا في مدرسة داخلية هنا وكانا يحضران إلينا في الصيف.

- لماذا تخدم في مناطق المحيط الهادئ بينما لديك الكثير من الخبرة في أوروبا؟

- كل ما أريده هو أن أخدم يا سيدي. كنت أعلم أن على الأرجح أن ينضم شخص ما بخلفيتي إلى نخبة الضباط. كنت أعرف ذلك، لكنني أردت..

- أردت أن تثبت أنك قادر على تقديم ما هو أفضل في ظروف أصعب.

- هذا وصف معقول يا سيدي.

- هل سمعت عن مكتب الخدمات الإستراتيجية.. الـ"أو إس إس"؟

- سمعت بعض الأشياء.

الآن يتفهم السبب الحقيقي لاستدعائه إلى الوطن.

- سمعت كلامًا عن وكالة أنشئت من أجل الجواسيس.

- الأمر أكبر من ذلك، لكن التجسس جزء مما نفعله؛ لقد أنشأنا "أو إس إس" العام الماضي لدمج إدارات المخابرات المختلفة في الجيش والبحرية والقوات الجوية. مهمتنا هي تنسيق أنشطة التجسس خلف خطوط العدو لجميع فروع القوات المسلحة. ولدينا أكثر من عشرة آلاف رجل وامرأة تحت إمرتنا.

- ما الذي كان موجودًا قبل "أو إس إس"؟

- عدد قليل من السيدات كبيرات السن اللائي اعتنين ببعض خزائن الملفات في وزارة الدفاع.

يعرف "جون" أكثر مما كشف الرجل. سمع عن "وايلد بل" ومشروعه الأثير، لقد استغرق الأمر بعض الوقت فقط ليدرك مكانة الرجل الذي يتحدث إليه. كان "أو إس إس" مكانًا يجمع أصحاب العلاقات القوية والنفوذ في حالة حرب. واستخدم "دونوفان" علاقاته لتوظيف الأفراد في هذه الوكالة، حيث يشكل الموظفون مزيجًا من خريجي مدارس "آيفي ليج"، وشركات المحاماة المرموقة، والبنوك الكبرى. يبدو أنه نادٍ لطبقة متميزة يحاول "جون" التملص منها.

- نحن متورطون في كلا النزاعين في الوقت الحالي. لدينا عملاء في المحيط الهادئ ووراء خطوط العدو في أوروبا. يتطوع هؤلاء الرجال والنساء للمخاطرة بحياتهم ومن دون دعم هناك، وغالبًا ما لا توجد منازل آمنة أو أصدقاء في أكثر المناطق عدائية يمكن أن تتخيلها. هؤلاء هم أشجع وأرقى رجال وسيدات القوات المسلحة، ويزودوننا بمعلومات حيوية بشكل يومي.

اقتربت سيدة شيباء الشعر ترتدي ثوبًا أسود من "دونوفان" وربتت على كتفه، فاستقبلها بقبلة على خدها. أخبرها "دونوفان" أنه سوف يلتقيها في غضون بضع

دقائق، وانتظر ذهابها لمواصلة التحدث.

- هذه حرب من نوع جديد. لقد ولت الأيام الخوالي لترتيب القتال في الميدان منذ زمن طويل. هذه الحرب يفوز بها الجانب الذي يعرف المزيد عما يفكر فيه الطرف الآخر، ومَن يعرف ما سيفعله قبل أن يفعله.

- ولماذا تخبرني بكل تلك الأمور يا سيدي؟

- لقد تحدثت إلى والدك كثيرًا خلال الأشهر القليلة الماضية. تلمع عيناه بفخر عندما يذكر اسمك. أخبرني أنه يريد ترك مقاليد أعمال العائلة لك، ولكنك تريد شيئًا آخر. كما حكى لي عن الصراع بينك وبين أخيك.

تساءل "جون" عن مدى معرفة هذا الرجل به. يمكن أن يكون هناك سبب واحد فقط لفضول "دونوفان".

- أخبرك والدي أنني لا أوافق على ما كان يفعله أخي في شركته؟

- هذا ضمن أشياء أخرى. تحدثنا عنك مطولًا. قال إنك لست مرتاحًا مثل أخيك في عالم الشركات هذا. أعلم أنك انضممت إلى مشاة البحرية لأنك أردت أن تثبت أنه يمكنك تحقيق ذاتك بنفسك. أعرف هذا لأنني أرى نفسي فيك. كنت محاميًا قبل الحرب الأخيرة، لكنني أردت المزيد. أردت أن أخدم بلدي، وأن أثبت شيئًا ما لنفسي.

لا يمكن إنكار كاريزما الرجل. كان رقيق الكلام لكن في نبرته سطوة لا جدال فيها.

- هل تعتقد أنك مهتم بالانضمام إلى الـ"أو إس إس"؟

- أي نوع من الرجال تبحث عنه يا سيدي؟

- أبحث عن لص صاحب ضمير. أحتاج إلى رجل يُحكِّم عقله قبل قلبه. نزيه لكنه مخادع، حذر ولكنه جريء. شخص متهور وهادئ، الشيء ونقيضه في آن واحد. ومن خلال مجموعة مهاراتك هذه والطريقة التي أثبتَّ بها نفسك بالفعل في هذا المجال، أرى أنك ستكون مناسبًا تمامًا لنا.

- أفترض أنك اطلعت بالفعل على سجلات خدمتي؟

- نحن دقيقون، "جون"، علينا أن نكون كذلك. دورنا في هذه الحرب أهم من أن نترك أي شيء للصدفة.

استدار "جون". كان والده على بعد أربعين قدمًا منه، واقفًا عند البار، والكأس في يده. "دونوفان" محق.. إنه فخور به فعلًا.

**

وصلته رسالة "بينيلوب" بعد ثلاثة أشهر من بداية عمله مع "أو إس إس"، حيث كان يتدرب في ريف "فرجينيا" متنكرًا في زي ضباط "الرايخ". كان المدربون يعلمونه هو والمجندين الآخرين كيفية النجاة خلف خطوط العدو. وبدون منشأة

تدريب، استحوذت الوكالة الوليدة على أجزاء من "برينس ويليام فورست بارك"، وحولت المعسكرات الصيفية السابقة إلى مناطق تدريب سرية. كان "جون" يرتاح بعد عدة ليالٍ من التدريب القاسي. حتى صار أخذ حمام ساخن والفراش حلمًا. جاء البريد، وتسلّم رسالة. كان الختم البريدي على الظرف يشير إلى أنها مرسلة قبل أسبوعين. جلس "جون" على سريره وفتحها. لم يسمع منها منذ ما يقرب من ستة أسابيع، وبالكاد افتقدها. كان يعرف ما فيها قبل أن يفتحها. لو أنه في مكانها لفعل الشيء نفسه. قرأ أول كلمتين من الرسالة وكاد يضحك. تذكر أن موقفه هذا يمثل "كليشيه" أفلام الحروب بالتمام.

عزيزي "جون"،

التقيت رجلًا، نقيبًا في سلاح الجو. أريد الزواج منه. أطلب منك الطلاق كآخر تعبير عن الحب بيننا. لم أعد أحبك. أنت لست الرجل الذي تزوجته. أحب شخصًا آخر. أرجوك ساعدني على أن أتركك في سلام. من فضلك، افعل هذا من أجل الحب الذي جمع بيننا ذات يوم. أعلم أننا سنهتم دائمًا ببعضنا بعضًا. حب قوي مثل الحب الذي يجمعنا لا يموت أبدًا. لكن وقتنا معًا انتهى. لديك حياة أخرى الآن، منفصلة عن حياتي. لم تعد روحانا مرتبطتين كما من قبل، ولم تعودا واحدًا كما من قبل.

آسفة. أرجوك سامحني وامنحني الطلاق الذي أحتاجه لأتركك من دون أن تتأذى روحي.

المخلصة،

"بينيلوب"

مرت سنوات منذ آخر مرة بكى فيها. لم يكن يعرف حتى أنه لا يزال قادرًا على البكاء. شعر أن مشاعره غريبة في مكان مثل هذا، ونظر حوله ليتأكد من أن أحدًا لا يراه. لا تزال الرسالة في قبضته. لم يستطع أن يلقي بها. لم يكن يدري أنه لا يزال يحبها. يعلم أنه أخفى مشاعره تجاهها حتى أصبح من المناسب إعادة النظر فيها.. ربما بمجرد انتهاء الحرب، ربما تكون هناك فرصة ليحبها مرة أخرى. ولكن فات الأوان. مد يده إلى القلم الرصاص الذي احتفظ به بجانب سريره وكتب بضع كلمات على ورقة. لا يمكن أن يكرهها أبدًا، ليس وهو يعلم أنه المخطئ. قرأ الرسالة وأعاد قراءتها ثم أعاد كتابتها.. "يمكنك الحصول على الطلاق".. أرسلها بالبريد في اليوم التالي.

**

ديسمبر ١٩٤٣، جنوب غرب ألمانيا

صمَّ هدير المحركات الآذان عن أي صوت آخر. يشعر "جون" بكل رجة في جسده كله. أعصابه مشدودة كالأوتار، وقلبه ينتفض بقوة. تذكر كلمات ضابطه، الذي تحدث بصدق واضح عن حقيقة أنهم لم يكونوا متأكدين من سلامة المستندات المزيفة التي يحملها، ولا من براعة القصة الملفقة التي حَفظوه إياها. لم تكن لديهم سابقة للحكم على الظروف الحالية، فلم يسبق لـ"الأو إس إس" أن أنزلوا بالمظلة أي

عميل إلى ألمانيا من قبل، ناهيك عن كونه وحيدًا بلا عون. كان يدرك المخاطر. وتطوع وتغلب على العديد من العملاء لنيل شرف إنجاز هذه المهمة.

صاح قائد الطاقم بأعلى صوت:

- اقتربنا من الهدف. سنكون هناك خلال ثلاثين ثانية.

أومأ "جون" برأسه، واختفى قائد الطاقم داخل قمرة القيادة. انتقل "جون" إلى النافذة، على بعد بضعة أقدام من المكان الذي يجلس فيه. شاهد الغيوم في الليل المظلم، ولم تكن هناك سوى القليل من البقاع المضيئة في الأرض تحته. مرَّ بيديه على زي الطيار النازي الذي يرتديه وعدَّل قبعته للمرة الألف. شعر كما لو أن روح "فيرنر جراف" استولت على روحه. شعر أن "جون لينش" هو الستار، أو في أفضل الأحوال ذكرى لحياة كان يعرفها من قبل. يبدو أنه لا فائدة من كونه "جون لينش" بعد الآن. قد يؤدي تذكر ذلك إلى تعريض المهمة للخطر، وقد يكلفه حياته. سيعود إلى نفسه ذات يوم، عندما يكون قد انتهى من "فيرنر جراف".

ارتجت الطائرة عندما صادفت مطب هواء، فاندفع إلى الأمام، لكن حزام مقعده أبقاه في مكانه. حذره أحد مدربيه من أن "الجيستابو" يتحقق من وجود كدمات على صدره وفخذيه. طرد هذه الأفكار بمجرد بزوغها، لا فائدة في القلق.. لا فائدة على الإطلاق.

سمع قعقعة فوق ضجيج المحركات. رفع رأسه. صوت آخر، ثم صوت آخر. عرف "جون" أنهم فوق ألمانيا الآن. لم يتصور أبدًا أن قذيفة ستسقط الطائرة قبل أن يصل إلى منطقة هبوطه. فكر في كل سيناريو آخر عدا هذا. تدرب على كل سؤال يمكن تصوره، وتدرب على لهجته وقصته مرات أكثر من أن يتذكرها، لكنه لم يتخيل إسقاط الطائرة. أخبره رئيس الطاقم أنهم يتعرضون للهجوم من كلا الجانبين. رفع "جون" إبهامه لأعلى بمعنى أنه سمعه. كان الرجل يغلق باب قمرة القيادة مرة أخرى عندما وقع انفجار قوي في الهواء. فتحت قوة الانفجار ثقبًا في جانب الطائرة على بعد أمتار قليلة من المكان الذي كان يجلس فيه "جون"، واندفع الهواء البارد إلى الداخل. قبض "جون" على حقيبته، وشحبت أنامله. تمزق الجناح مثل ورقة. وتدفق الدخان من المحرك، الذي تحشرج مثل عجوز يتنحنح بقوة. تحسس "جون" "الباراشوت"، وهو يعلم أن منطقة الهبوط ربما كانت على بعد مائة ميل. ارتجفت الطائرة وسقطت مع انفجار مزيد من القذائف على جانبيها. كانت الانفجارات أعلى فأعلى، والطائرة تهتز مع كل ارتجاج، ليندفع "جون" إلى الأمام والخلف في مقعده. استمرت القذائف دون توقف.

فتح قائد الطاقم الباب مرة أخرى، وأخذ ينظر إلى الأضرار مع استمرار سقوط الطائرة. بدأ القصف يهدأ، والانفجارات متفرقة الآن. نظر "جون" من النافذة مرة أخرى. دخان أسود كثيف يتصاعد من المحرك. عاد الرجل إلى قمرة القيادة، قبل أن يعود إلى "جون" ثانيةً.

- لن نتمكن من الوصول إلى نقطة الهدف. الإصابات جسيمة. لن نتمكن من العودة. سنحاول الوصول إلى سويسرا. لو أردت أن تقفز فلا بد أن تفعلها الآن.

أومأ "جون" برأسه وفك حزام الأمان.. هل كانت الطائرة عالية بما فيه الكفاية؟ بدت الطائرة وكأنها تفقد الارتفاع في كل ثانية. كانوا على بعد أميال من الهدف، لكنه يمكن أن يصل إلى هناك فقط إذا سقط على الأرض بسلام. أما إذا بقي على متن الطائرة، فإن هذا يعني فشل المهمة قبل أن تبدأ. توقف القصف، ويبدو أنهم تجاوزوا المدينة التي كانت القذائف تنهمر منها.

صافح رئيس الطاقم "جون". ضاعت أمنياته الطيبة في هدير الريح عندما فتحت كوة القفز. اقترب "جون" من كوة القفز، وشعر بشدة تيار الهواء. تأكد الجندي المسؤول من سلامة "الباراشوت" قبل أن يرفع إبهامه لأعلى. ارتج وميض الضوء الأخضر في الطائرة. أجبر نفسه على التركيز على المهمة التي يقوم بها، وتذكر القفز بشكل مستقيم، والساقين متلاصقتين، وذقنه في صدره. شعر بالطائرة وهي تتباطأ، بينما الجندي يربت على كتفه كي يقفز.. وقفز. اصطدم به الهواء البارد وكأنه مياه شلال عارمة. شعر بشدٍّ في فخذيه وإبطيه عندما انفتح المزلق. اختفت الطائرة وراءه في الظلام. الليل ساكن وهو وحيد. تلاشى هدير المحركات، ولم يتبقَ سوى أصوات تنفسه والهواء العارم. رفرفت المظلة وهو يندفع نحو الأرض السوداء العميقة تحتها. من المحال تحديد نقطة هبوطه، لكن الظلام أخبره أنه في مكان ما بعيد وغير مأهول، وقد يمنحه ذلك فرصة نجاح. أدرك أنه ينخفض بسرعة كبيرة، لكن لم يكن هناك شيء يمكنه القيام به. كان يعتقد أنه يتلو صلاة، لكن شفتيه الخدرتين تلعثمتا بالكلمات بينما اندفع نحو الأرض؛ مثل قطار سريع صامت غير مرئي. شعر بالألم في ساقيه لحظة أن اصطدم جسده بالأرض المغطاة بالثلوج. فتح عينيه، ليجد الثلج في كل مكان حوله، وشعر أن جسده يتراخى رويدًا رويدًا..

ويتلاشى كل شيء.. إلى لا شيء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر

قبعت "فرانكا" متجمدة في كرسيها. كانت نيران مدفأة غرفة المعيشة قد خمدت، وبرد الكوخ بشكل ملحوظ. كان بلا حراك أمامها، عاجزًا. لقد عرفت الحقيقة الآن. شعرت بأنها مقنعة. لن يُجن جنونها. كانت شكوكها صحيحة. هذا الرجل في كوخ والدها، والذي أنقذته من الثلج، جاسوس أمريكي. حدست أنه أمريكي أو إنجليزي، وكانت متأكدة من هذا خلال الأيام الماضية، ولكن الأمر مختلف عندما تسمع ذلك منه. فكرت في "دانيال" و"الجيستابو". لن يكون هناك تساهل هذه المرة؛ إيواء الجاسوس يعني المقصلة، ولكن بعد تعذيب يجعل من الموت رحمة. ولكنها شعرت وبطريقة ما بأحاسيس بالحرية. لأول مرة منذ أن وزعت تلك المنشورات، ورأت الحماس والفخر في عينيَّ "هانز"، شعرت وكأنها تعيش مرة أخرى. تعيش بحق. ليس فقط للأكل والنوم والتنفس. لم تعد حياة لتضييع الوقت.

- عليَّ أن أشعل النار من جديد.

تتضارب الأفكار داخل عقلها وتتصادم. لقد عرفت كل شيء الآن، كل شيء ما عدا السبب. لماذا هو هنا؟ ما مهمته؟ ما هذه المساعدة التي طلبها منها؟ تصدعت قطع الحطب وهي تقذفها على الجمر المتوهج في المدفأة. وقفت لبضع ثوانٍ، وهي تدفئ يديها قبل الذهاب إلى المطبخ. كانت جائعة. بقي القليل من الطعام. وزادت مهمة إحضار الطعام لشخصين صعوبة الآن بعد أن نفد احتياطي المعلبات. فكرت في الذهاب إلى البلدة غدًا. لا حاجة للذهاب إلى "فرايبورج". توقفت عند طاولة المطبخ، وذراعاها معقودان إلى صدرها. أغمضت عينيها، ثم عادت نحو غرفة النوم.

- الآن تعرفين كل شيء.

لم تتغير لكنته، لكنها الآن تستطيع تبين الأخطاء فيها. تساءلت كيف سيصمد أمام أي استجواب، تساءلت عما إذا كان أولئك الذين تدرَّبوا على استخلاص المعلومات سيلاحظون لكنته بسرعة أكبر مما لاحظتها هي.

- ألمانيتك ممتازة، وليست سيئة على الإطلاق.

- كانت سيئة قبل فترة وجيزة من تدريبي، ولكنني استعدتها بسرعة.. هذا هو الجزء السهل.

- وما الجزء الصعب؟

- تعلم مقاومة أساليب الاستجواب. محاكاة التعرض للتعذيب.

- لقد استجوبني "الجيستابو".

- بالطبع.

- لم يكونوا بحاجة لتعذيبي. لقد عرفوا كل شيء بالفعل.

توقفت لبضع ثوانٍ وذهبت إلى النافذة.

- هل ما زلت تفكر في عائلتك، وفي منزلك في أمريكا؟

- حاولت ألا أفعل. حاولت أن أكون "فيرنر جراف"، لكن "جون لينش" ظل يظهر لي برأسه القبيح.

- كنت مقنعًا تمامًا.

- فكيف تشككتِ فيَّ؟

- سمعتك تتحدث في نومك عندما عثرت عليك. كنت تهذي بالإنجليزية.

- لم أتصور أنني يمكن أن أقابل شخصًا مثلك على الإطلاق. لم أكن أعرف بوجود شخص مثلك.

سمعت "فرانكا" عن صراحة وصدق الأمريكان. ولكن التجربة في الواقع مختلفة.

- لديَّ سؤال لك.. لماذا كنت ضد أخيك في تولي أعمال والدك، وأصررت أنك لم تكن تريد توليها بنفسك؟

- لم يعجبني ما كان يفعله. كان سيخرب كل شيء ويعرض شركة والدي للخطر.

- إذا كان هذا يهمك إلى هذا الحد، فلماذا لم تتولَ الأمر بنفسك؟ لم يكن لك الحق في انتقاد قرارات "نورمان" ما دمت رفضت عرض والدك.

- لا يفوتكِ شيء، أليس كذلك؟

- أنت لم تجب عن سؤالي.

- لم أكن أرغب في أن تقتصر حياتي على جني الأموال، أردت لها شيئًا أهم.. مَن يدري ماذا كان سيحدث لولا اندلاع هذه الحرب؟ ربما كنت سأبقى هناك، أعمل مع "نورمان".

- بدلًا من الشجار معه.

- كنت أحاول أن أساعد.

شعرت "فرانكا" أنها ضغطت عليه بما فيه الكفاية.

- لا بد أنك جائع، لم تأكل طوال اليوم.

- أتضور جوعًا.

- يكاد الطعام ينفد، سأحتاج إلى الذهاب إلى البلدة غدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ذهبت إلى المطبخ، وسخنت ما تبقى من طعام أمس ووضعت قطعة خبز كانت قد احتفظت بها لأجله. التهم كل شيء في أقل من دقيقتين. انتظرت حتى انتهى من طعامه قبل أن تسأله..

- لماذا أنت هنا؟

مسح "جون" فمه بالمنديل الذي كانت قد وضعته على حافة الصينية.

- يحق لكِ أن تعرفي. لم يكن من المفترض أن أكون هنا. كانت منطقة الهبوط على بعد أميال قليلة خارج "شتوتجارت". حددنا الطريق الأكثر أمانًا للوصول بنا إلى هناك، وتجنبنا المدن الكبرى حيث علمنا أن مدافع الدفاع الجوي تتركز حولها. ولا أعتقد أنهم توقعوا وجود تلك المدافع حول "فرايبورج". لا بد أنها وُضعت منذ فترة قريبة.

- قاموا بنشرها بعد غارة قتلت والدي. لم تكن المدينة قد عانت كثيرًا من قبل. ولكنها كانت مسألة وقت فقط قبل أن تنضم "فرايبورج" إلى المدن الألمانية الأخرى التي سواها الحلفاء بالأرض.

- أنا آسف على مقتل والدك. عادة ما يكون الأبرياء ضحايا الحرب.

- كان نائمًا في فراشه عندما سقطت القنبلة. لا أظن أنه عرف ما الذي أصابه. لم يعرف قط مَن قتله.

- موت والدك كان حدثًا مؤسفًا.

لكنه ندم من فوره على اختياره للكلمات.

- مؤسف؟ لقد كان آخر شخص لديَّ في هذا العالم، وسلبتموني إياه.. والآن تطلب مساعدتي؟

- النازيون هم أعداؤك، وليس الحلفاء. ومَن قاموا بالغارة على "فرايبورج" في تلك الليلة لم تكن لديهم أي فكرة عن..

- هل ستخبرني أنهم لا يعرفون أنهم يقصفون المدنيين؟ ماذا عن الغارات على "هامبورج" و"كولونيا" و"ماينز"؟ آلاف الأبرياء قُتلوا في غارات بالقنابل الحارقة.

- تمامًا كما مات الآلاف في لندن و"برمنجهام" وفي جميع أنحاء الأراضي المحتلة.

- لكنك تلمح إلى أن الحلفاء هم أصحاب القضية العادلة؟ كيف يمكنكم تبرير قتل مئات الآلاف من المدنيين الألمان؟

- الحرب وحش قذر. الحقيقة أنني لا أعتقد أن حياة المدنيين الألمان مهمة لدى الجنرالات الذين يرسلون تلك القاذفات، تمامًا كما أن حياة المواطنين البريطانيين أو السوفيت لا تهم الألمان.

- وماذا عنك؟

- ما قصدك؟

- هل تهمك حياتهم، "جون"؟ لقد عشت هنا ذات يوم.

- "فرانكا"، لقد رأيت في السينما تلك النشرات الإخبارية التي عرضت لقطات مواطنين ألمان يصرخون بالولاء لـ"هتلر". كلنا هناك رأيناها. والغرض من غارات الحلفاء هو كسر إرادة الشعب الألماني لنوقف الحرب.

- ألا تدركون أن إرادة الشعب الألماني لا تهم؟ لقد أخضع النازيون إرادة الشعب الألماني منذ سنوات. لم تعد العبارة تحمل أي معنى.

- قد يكون هذا هو الحال، لكن النازيين هم من بدؤوا الحرب. بدؤوا القصف العشوائي لوارسو ولندن قبل أن تدخل الولايات المتحدة الحرب. فإذا كان النازيون يستخدمون الشعب الألماني درعًا، فهذا أمر مؤسف، لكنه لن يعيق جهود الحلفاء لتحقيق النصر.

- هل كنت لتساعدني لو أن القاذفات الألمانية قتلت والدك؟

- لا أتصور هذا.

- ولكن ماذا لو حدث ذلك؟ ماذا لو تمزقت ولاءاتك بين الحكومة والشعب؟ أن تعارض إرادة حكومتك من أجل مصلحة الشعب الذي من المفترض أن تخدمه؟

- هذا لا يمكن أن يحدث أبدًا.

- ولم يتصور أحد أن ذلك يمكن أن يحدث في ألمانيا.. الدولة الصناعية الحديثة.. معقل العلم والفنون.

- إذا سألتني عما إذا كنت سأناور ضد حكومتي كما فعلت، تحت وطأة الموت، فإن الإجابة هي أنني لا أعرف تحديدًا.

- هل تساعد عميلًا أجنبيًّا ضد إرادة واضحة لشعبك؟

- إذا كان كل مَن أحببتهم قد مات بسببهم، وإذا قاموا بتشويه المبادئ التي جعلت أمريكا عظيمة ونبيلة، عندئذ أفعل ذلك.

- قالها "روبسبير".. لا أحد يحب المبشرين المسلحين.

- أنا لست عدوك، "فرانكا". ما كنت لتنقذي حياتي وتبقيني هنا خلال الأيام الماضية إذا كنتِ تعتقدين أنني كذلك. هناك سبب دعاكِ إلى ذلك. وربما في يوم من الأيام يقدر الشعب الألماني جهود الحلفاء.

- هذا إن بقي هناك شعب.

- قد يبدو الأمر مثيرًا للسخرية، لكن الحلفاء هم الأمل الوحيد المتبقي لألمانيا. عليكِ أن تستفيدي مني، "فرانكا". امنحيني فرصة مساعدتكم في تخليص هذا البلد من النازيين.

نهضت "فرانكا" من أمامه في عصبية. وقعت الشوكة على الأرض، فاضطرت إلى الانحناء لالتقاطها.

- أنا أكره النازيين. لا أريد أن أفكر في ذلك، لكنها فكرة مستقرة في عقلي. أفكر فيما فعلوه..

علا صوت "جون" حادًّا وهو يقاطعها:

- تخلصي من الكراهية. افعلي شيئًا من أجل مستقبل الشعب الألماني، من أجل والدك و"فريدي".

- أنا متحيرة. ماذا تريدني أن أفعل؟

- أمرًا بسيطًا، أمرًا يمكن لأي كبير أن يفعله.

- أحتاج وقتًا.

راحت إلى المطبخ ووضعت الصينية على الطاولة. شعرت بقلبها كالحجر. غطست يديها في الماء المتجمع في الحوض قبل أن ترفعهما لتنثر الماء على وجهها. فكرت في كل الأشخاص الذين عرفتهم والذين أغراهم النازي بأكاذيبه. لم تكن مثلهم. كانت مجرمة، عدوًا مدانًا من قبل الدولة، وهي الآن تأوي عدوًا آخر. من المستحيل أن تسلمه.. تفضل الموت على ذلك. فماذا إذًا؟ يمكنها أن تتركه يسير في طريقه وتلتزم الصمت وهو يتسلل إلى قلب "الرايخ"، لكن إلى أين ستذهب بعد ذلك؟ ماذا ستفعل؟ هل ستعود إلى الغابة لإتمام ما بدأت به تلك الليلة التي وجدته فيها؟ أم أنها ستبذل قصارى جهدها لتحيا من أجل حقبة ما بعد الحرب؟ هذا الرجل يعرض عليها ما هو أكبر.

قالت وهي تعود إليه:

- أكمل قصتك، أخبرني لماذا أنت هنا. فأنا بحاجة إلى معرفة كل شيء، إذا كنت تريد مساعدتي؟

- أصابت القذيفة الطائرة التي كنت على متنها، وسقطتُ فوق الجبال. ثم وجدتِني..

توقف لثانيتين مرتا كأنهما دهر قبل أن يردف:

- مهمتي تتلخص في العثور على رجل. اسمه "رودولف هان". عالم.. أحد ألمع العقول ذكاءً في هذا العالم. صاحب عمل رائد في مجال جديد للفيزياء، يمكن أن يغير مسار الحرب لصالح ألمانيا. تسلل أحد جواسيسنا الألمان إلى مختبره وتواصل معه. وافق "هان" على الهروب إلى أمريكا. وأنا هنا لإخراجه من ألمانيا.

- ولماذا لم يفعل ذلك الجاسوس الذي وصل إليه؟

- إنه دبلوماسي، ولا يستطيع تنفيذ العناصر الأكثر خطورة في المهمة. كما أن عين "الجيستابو" كانت عليه، لذلك كان عليه أن يتوارى عن الأنظار. و"هان" لا يزال في منصبه. لم يعتقلوه بعد.

- إذًا كيف تخطط لإخراجه من البلاد؟

- مهلًا.

- أنت بحاجة لمساعدتي، أليس كذلك؟

- أجل، لكن..

- لا يمكنك فعل أي شيء، لأنه على بعد مائة وعشرين ميلًا من هنا، وأنت عالق في هذا السرير بساقين مكسورتين.

تناول "جون" كوب الماء من فوق منضدة فراشه.

- أنت تريد مساعدتي، ولكنك لا تزال لا تثق بي بما يكفي لتخبرني بكل شيء.

- هل يمكنك أن تتعلمي أن تثقي بي وفيما أمثله؟

قابلت سؤاله بالصمت.

- كنا نخطط لعبور جبال "الألب" جنوب "ميونيخ" والدخول إلى سويسرا، لأن الممرات الجبلية توفر أكثر الطرق سرية لعبور الحدود، على الرغم من أن الوصول إلى هناك لم يكن بالأمر السهل. كان لدينا مرشد، ودربني "أو إس إس" على تسلق الجبال، ولكنني لا أعتقد أن هذا سيفيدني الآن.

نظر إلى ساقيه ومرَّ بيديه فوق الجبس الذي يغطيهما.

- وكيف سيغير هذا العالِم مسار الحرب لصالح ألمانيا؟ ما الذي يعمل عليه؟

قال "جون" متجاهلًا سؤالها:

- لا يمكنني مقابلته بنفسي.

- ما الذي يعمل عليه؟

- سوف تجبريني على إخبارك، أليس كذلك؟

- إذا كنت سأخاطر بحياتي من أجلك ومن أجل قضيتك، فأريد أن أعرف السبب، أريد أن أعرف المخاطر.

- يعمل البروفيسور "هان" وزملاؤه على تقنية جديدة تسمى الانشطار النووي. نشروا بحثًا في عام 1939 حول التجارب الجديدة، ويحاول الحلفاء مراقبة تقدمهم منذ ذلك الحين.

- وما الذي يميز هذا الانشطار النووي؟

ارتبكت وهي تنطق المصطلح بصعوبة.

- لن أخبركِ، حتى لو كانوا قد أخبروني، لكنني أعتقد أنه سلاح هائل ويمكن أن يقلب مجرى الحرب. ومن دون "هان"، يموت المشروع.. إنه العقل المدبر. والنازيون لا يدركون ما هم على أعتاب امتلاكه. ويعاني المشروع نقصًا في التمويل والتجاهل من قبل القيادات. "هتلر" مهووس بالمحركات النفاثة فحسب. إنهم أكثر تركيزًا عليها.

- لماذا قرر "هان" أن يتحول بولائه؟

- إنه ساخط على معاملة النظام لليهود. العديد من أصدقائه وزملائه قبل الحرب كانوا يهودًا. واستبعد النازيون جميع اليهود من العمل معه بسبب عرقهم. وكثير منهم مات أو في المنفى الآن. بعضهم لدينا بالفعل. كما أنه محبط من نقص التمويل. وتدرك الولايات المتحدة مدى أهمية عمله. سوف يتلقى كل التمويل والدعم الذي قد يحتاجه بمجرد وصوله إلى الولايات المتحدة.

- إذًا يمكن للأمريكيين تطوير هذه التكنولوجيا الجديدة بأنفسهم؟

- علينا تطويره قبل أن يضع النازيون، أو حتى السوفيت، أيديهم عليه. إنه سباق يمكن أن يحسم نتيجة الحرب. وإذا أدرك النازيون ما يمكن أن يكون في أيديهم، فقد يغير هذا كل شيء. لن يحدث ذلك إذا اختفى "هان". ونحن بحاجة إلى معرفته وخبرته. كما نريد أن نعرف إلى أي مدى وصلوا في تجاربهم.

- وما هو دوري؟

- كان الترتيب هو أن أقوم بالاتصال بـ"هان"، وكسب ثقته، ومن ثم نقله عبر الحدود إلى سويسرا.

اتسعت عينا "فرانكا" في دهشة وهي تسأله:

- هل تريدني أن أنقله عبر الحدود؟

- كلا، أنا فقط أريدك أن تلتقيه، لتخبريه بما حدث لي، وبعد ذلك..

من الصعب عليه أن يتصور أن موقفه قد وصل إلى هذا الحد.

- ماذا؟

- ثم تحضريه إلى هنا حتى أتمكن من اصطحابه عبر الحدود بنفسي بمجرد أن أتعافى.

- لن تتمكن من المشي مرة أخرى قبل شهر، ولن تستطيع بالتأكيد أن تتسلق الجبال وقتها.

- دعي هذه التفاصيل لي.

- أود أن أقول إن هذا أكثر من مجرد تفاصيل. تريدني أن أذهب إلى "شتوتجارت" لمقابلة هذا الرجل، أليس كذلك؟

- لا أجد سبيلًا آخر.

- لم أتدرب على التجسس. لم أفعل شيئًا كهذا من قبل.

- إنها مجرد مقابلة.. تستمعين إليه وتوصلين إليه رسالة.

- ماذا لو لم يتحدث معي.. ماذا لو أُلقي القبض عليَّ؟

- لا أتخيل حدوث هذا، ما لم تسلمي نفسك، وسأعطيك كلمات السر التي سوف تقنعه بالاستماع لكِ. هل ستفعلين هذا؟ هل تساعدينني؟

- لا أدري.. تبدو مهمة خطيرة.

- الأمر أبسط بكثير مما يبدو. وأنتِ تستطيعين فعلها. يمكنك أن تحدثي الفارق.

أغمضت عينيها وقالت في تسليم:

- حسنًا.

قال وهو يمسك بمرفقها في امتنان:

- أشكرك.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يتلامسان فيها، وشعرت بقشعريرة تسري في جسدها بغتة. وجدته إحساسًا سخيفًا.

- كان الترتيب لمقابلته في حديقة عامة. كان عليه أن يجلس على مقعد ويقرأ في جريدة.

- في هذا الطقس؟

- كان من المفترض أن يبقى هناك لفترة قصيرة، بين الخامسة وخمسين دقيقة والسادسة مساءً، في يوم واحد فقط في الأسبوع.. يوم الإثنين. أعتقد أنه انتظرني اليوم.

- إذًا فإن اللقاء التالي يوم الإثنين في الأسبوع المقبل؟ هل يجب أن أذهب حينها؟

- مع حلول عيد الميلاد يوم السبت؟ لا أعتقد ذلك. من المحتمل أنه سيعود إلى منزله في برلين هذا الأسبوع. أعتقد أن من الأفضل أن نذهب في الأسبوع التالي، في الثالث من يناير. بهذه الطريقة سيكون لديَّ المزيد من الوقت للتعافي، وستكونين مستعدة بشكل أفضل. لن تضطري إلى القيام بأي شيء خطر، عليكِ فقط مقابلة الرجل وأن تخبريه بما حدث لي.

- كيف سيعرف أنني لست من "الجيستابو"؟

- كلمات السر. بمجرد أن يسمعها، سيعرف أنكِ معي. تحتاجين فقط إلى الاتصال به وربما أن تعرضي عليه المجيء إلى هنا بمجرد أن أكون أفضل حالًا، ولكن يمكننا أن نقرر ذلك لاحقًا. لدينا متسع من الوقت.. أسبوعان.

- عليَّ أن أحضر لك عكازين. لا فائدة من تقييدك في هذا السرير، وإلا سوف تصاب بقروح الفراش. أفضل شيء بالنسبة لك هو النهوض والحركة. وأنا بحاجة إلى الذهاب إلى البلدة للحصول على طعام غدًا. سأجلب العكازين معي.

- هل يمكن أن تجدي عكازات في المتجر في ظل أزمة السلع هذه؟

- كلا، لا أعتقد ذلك، لكن لديَّ معارف في المركز الطبي هناك. سأحضرها لك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاء الصباح باردًا كالعادة، ولكنه هذه المرة مختلف. نامت طويلًا في الليلة السابقة. ولا تزال العديد من الأسئلة دون إجابة. لا حاجة بها لأن تطارد "جون" بالأسئلة الآن. لديهما شئون أخرى أهم.. الطعام أولها. أخذت القسائم التموينية التي أعطاها لها "جون". تعلم أنها مزورة، لكن هل سيلاحظ صاحب المتجر هذا؟ بدونها، لن يكون معها سوى قسائمها هي، وهي لن تكفي. كانا يتضوران جوعًا. رفعت القسائم إلى النور، وتفحصت كل حرف مطبوع على الورقة. بدت مقنعة بدرجة كافية، على الرغم من أن التزوير يتضح عند الفحص الدقيق.. ستحاول. الخيار الآخر الوحيد هو شراء الطعام من السوق السوداء. هناك أفضل طعام ومتاح لمن معه ثمنه، ولكن هذا قد يجذب انتباه الشرطة. مخاطرة كبيرة للغاية!

كان "جون" مستيقظًا عندما أحضرت له الإفطار.

- صباح الخير، فرويلاين.

- أرى أنك نمت جيدًا.

- بالفعل. أفضل ليلة نوم منذ فترة طويلة. ما شعورك حيال ما ناقشناه؟

- متوترة، مذهولة. أشعر أنني قبلت مسؤولية كبيرة.

- لم أكن لأخبرك بهذا الأمر ما لم تكوني قادرة على القيام به. وأعلم أنني اتخذت القرار الصحيح.

جلست معه وهو يأكل وجبة إفطار من الجبن وبقايا الحساء. لم تخبره أنه لم يكن هناك ما يكفي من الطعام لكليهما. تحدثا عن الطقس، الرحلة التي من المفترض أن تقوم بها في ذلك اليوم، وعن صحته. يبدو أنه لا يوجد شيء آخر ليقوله عن هويته أو مهمته. في الليلة السابقة، وعدت نفسها بأنها لن تضغط عليه.

ذهبت "فرانكا" إلى الباب الأمامي وفتحته قبل أن تخطو إلى الخارج. لم تتساقط ثلوج جديدة في آخر يومين، لكن الأسابيع السابقة كانت كافية لأن تدفن سيارتها تحت الثلوج، والطرق مسدودة. تنفث أنفاسها أمام عينيها. أشرقت الشمس باردة، اضطرت إلى ارتداء نظارتها الشمسية بسبب قوة انعكاس بياض الثلج.

شبح "دانيال بيركل" يخيم على "فرايبورج". مسقط رأسها بقعة خطيرة للغاية. حتى لو لم تقابله هناك، إلا أن الكثير من الأشخاص يمكنهم التعرف عليها، والكثير منهم سعيد بمساعدة "الجيستابو". لم تكن هناك حاجة للذهاب إلى الصيدلية في المدينة مثل المرة السابقة. "سانكت بيتر" على بعد بضعة أميال فقط. بلدة صغيرة ولكن كان بها محل بقالة ومركز طبي. من شأن ذلك أن يفي باحتياجاتهما هذه المرة. ارتدت الزلاجة وانطلقت. فكرت في "جون لينش"، وفي "فيلادلفيا". فكرت في "رودولف هان"، وماذا ستقول له.

لم ترَ أحدًا حتى وصلت إلى طابور الانتظار خارج محل البقالة. أسندت زلاجاتها إلى جدار المحل. لم تجد وجوهًا مألوفة. معظم الأشخاص الذين تعرفهم هنا كانوا إما

في جبهة حرب أو ماتوا بالفعل.. من المريح أن تبقى مجهولة! خلطت قسائم حصصها التموينية مع تلك التي أعطاها لها "جون" حتى لا ينتبه البقال. وبالفعل، لم ينتبه. أخفت ابتهاجها بينما تغادر المحل وحقيبة ظهرها ممتلئة بالقدر الذي سمحت به قسائم التموين.

الشوارع الضيقة في بلدة "سانكت بيتر" الصغيرة هادئة للغاية. خفضت "فرانكا" رأسها وهي تمشي على طول الرصيف وصولًا إلى المركز الطبي. نظر إليها مراهق ذراعه مجبرة وهي تفتح الباب. يجلس بجانبه شابان فقد أحدهما عينه والآخر ذراعه، أحدهما على كرسي متحرك والآخر يستند إلى عكازين. أصاب وبال الحرب كل المجتمع الألماني. لم يعد أحد محصنًا ضدها. جلست عجوز شاحبة الوجه خلف مكتب خشبي باهت مغطى بالأوراق. توجهت "فرانكا" إليها وانتظرت دورها خلف أم تحمل طفلًا بين ذراعيها. وبمجرد أن جاء دورها، نظرت المرأة القابعة خلف المكتب إليها بعينين متعبتين.

- أنا هنا لألتقي "مارتينا كروجر"؛ إنها ممرضة هنا.

- ماذا تريدين من الممرضة "كروجر"؟

- صديقة قديمة.. لقاء شخصي.

- الممرضة "كروجر" مشغولة، لماذا لا..

- لن يستغرق اللقاء أكثر من بضع دقائق.

تنهدت المرأة في فروغ صبر.

- ربما تحتاج إلى استراحة.. دقيقة واحدة.

اختفت المرأة عبر باب خلفها.

مرت دقيقتان قبل أن يفتح الباب مرة أخرى وابتسمت "مارتينا" وهي تقترب بخطوات مسرعة وتحتضن "فرانكا". صديقتان منذ الطفولة. التقيتا في رياض الأطفال وذهبتا إلى المدرسة معًا. كانت "مارتينا" معها في رابطة الفتيات الألمانيات. لم ترها "فرانكا" منذ أن غادرت إلى "ميونيخ" في عام 1939. لم تتغير تقريبًا؛ جميلة، بشعر بني طويل وعينين خضراوين مشرقتين. حدقت العجوز في "مارتينا"، التي قادت "فرانكا" إلى الخارج. أشعلت سيجارة وعرضت واحدة على "فرانكا" التي هزت رأسها ترفضها. تحدثتا عن عائلة "مارتينا" لبضع دقائق. لديها ابنتان، وزوج مع الجيش في فرنسا. وثقت "فرانكا" بها، ولكنها ثقة لا تكفي لأن تطلب منها مورفين، أو أي شيء قد يسبب لها مشكلات في عملها، ولكن ليس من الصعب بالتأكيد أن تجد لها عكازين قديمين.. أليس كذلك؟

- ماذا تفعلين هنا؟

تساءلت "فرانكا" عن مدى معرفتها بما جرى.. ربما تعرف كل شيء.

- عدت لسماع وصية والدي.

- أسفت جدًّا عندما عرفت أنه مات، قرأت اسمه في الصحيفة.. لم أصدق ذلك.

- أشكرك. كانت غارة عشوائية على مدينة لم تتعرض لذلك من قبل. إنه قدره.

- المزيد من القنابل قادمة. إنها مسألة وقت فقط قبل أن يحاول الحلفاء قتلنا جميعًا.

تجاهلت "فرانكا" التعليق، على الرغم من أنها شعرت بنوبة غضب حادة.

- يؤسفني ألا أراكِ لفترة طويلة ثم أحضر لأطلب منك معروفًا، لكنني بحاجة إليه.

أشعلت "مارتينا" سيجارة أخرى.

- بالطبع، ما هو؟

- أنا أعيش في كوخ والدي القديم في الجبال. تتذكرينه، أليس كذلك؟

- أجل، طبعًا.

- أقيم هناك مع صديقي.

التمعت عينا "مارتينا".

- لم تخبريني أبدًا أنك على علاقة برجل. هل هي علاقة جادة؟

- أعتقد ذلك.. إنه مسعف، لكنه عاد من الجبهة. سنقضي بعض الوقت معًا بينما نستطيع ذلك، لكن لدينا مشكلة.. لقد كسرت ساقه في أثناء التزلج، بسبب كثافة تساقط الثلوج هناك.

- أوه.. لا.

- لم يكن الأمر سهلًا. تمكنت بنفسي من وضع جبيرة على ساقيه.

- أعتقد أنك قلتِ إنها ساق واحدة؟

- كلا، بل الساقين. قصدت أن أقول ساقين.

شعرت "فرانكا" بقلبها ينبض بقوة. لقد صارت ملامح "مارتينا" جادة للغاية.

- إنه بخير، ولكنه عاجز عن التنقل وحده. أحتاج عكازين. وكنت أتساءل عما إذا كان لديك أي منها. أريد استعارتهما لبضعة أسابيع إلى أن يذوب الثلج.

- ألا تحتاجين إلى طبيب؟ إن كان لي أن أسأل.

- كلا، لن يكون ذلك ضروريًّا، أنا فقط بحاجة إلى عكازين، لقد تمكنت من تجبيس ساقيه، ويتعافيان بشكل جيد.

سكتت "فرانكا". أنهت "مارتينا" سيجارتها وسحقت عقبها تحت قدمها. نظرت حولها لترى ما إذا كان أي شخص قريب.

- متى تريدين العكازين؟

- الآن، إذا أمكن.

- امهليني بضع دقائق، وسأرى ما يمكنني فعله.

انتظرت "فرانكا" بالخارج في البرد لربع الساعة، حتى بدأت تتساءل عما إذا كانت صديقتها ستعود، لحظة أن ظهرت "مارتينا" ومعها عكازان.

- قديمان، لكنهما كافيان للغرض. لا أعتقد أنهم سينتبهون إلى عدم وجودهما.

قالت "فرانكا" وهي تتناولهما من "مارتينا":

- شكرًا جزيلًا، هذا معروف سيمتن له "تومي" كثيرًا.

مكثت "مارتينا" مع "فرانكا" لبضع دقائق أخرى قبل أن تودعها وتعود إلى عملها. ربطت "فرانكا" العكازين إلى حقيبتها وأخذت طريقها خارج البلدة. أوضحت للحارس الذي أوقفها في نقطة التفتيش أنهما من أجل صديقها المقاتل. لم يطرح عليها المزيد من الأسئلة وأعاد لها الأوراق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وصلت "فرانكا" إلى الكوخ، حاملة العكازين مثل كأس بطولة. استند "جون" إليهما ونهض. الحركة لا تزال صعبة، وعليه أن يجر رجليه خلفه، ولكن وضعه الآن أفضل بكثير من أن يبقى سجين الفراش. كانت رحلته الأولى إلى المطبخ. جلسا إلى المائدة معًا بينما تعد "فرانكا" وجبة من الحساء والخبز والجبن، وتناولاها كأنها الوجبة الأخيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

في وقت لاحق من ذلك اليوم، جلست "مارتينا كروجر" تفكر طويلًا في لقائها مع صديقتها القديمة. لماذا لم ترغب "فرانكا" في عرض صديقها على طبيب؟ حتى لو كانت العظام تلتئم جيدًا، فمن المؤكد أن الاستئناس برأي طبيب أفضل.. أليس كذلك؟ انشغلت بتلك الفكرة معها طوال أيام عيد الميلاد، وحتى في بداية العام الجديد 1944. لم تستطع التخلص من الطريقة التي نظرت بها "فرانكا" إليها ومدى غرابة طلبها. وبشيء من الأسى، ذهبت إلى مكتب "الجيستابو" للإبلاغ عن صديقتها. ربما لم يكن هناك شيء، كما قالت لهم، وبالتأكيد لم يكن لدى "فرانكا" أي شيء لتخفيه، لكن كان من الأفضل أن تضع الأمر بين يدي أصحابه. كبتت أي مشاعر لديها تجاه صديقتها، لأنه لا مصلحة تعلو على مصلحة "الفوهرر"، خاصة في أوقات الحرب. تعرف أن لـ"فرانكا" سابقة من قبل، فلا يمكن لها أن تخاطر وتتورط معها في أي شيء. لديها عائلتها التي تهتم لها. وقد شكرها عميل "الجيستابو" على اتخاذها الخطوة الصحيحة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حلَّ عيد الميلاد، وأمضياه معًا. كانا يتحدثان بالساعات. حدثته عن كل فكرة نشرتها حركة "الوردة البيضاء"، وأخبرها أنه سمع من قبل عن تلك المنشورات التي وزعها طلاب "ميونيخ" في كل أنحاء ألمانيا. كانت هذه بمنزلة هدية عيد الميلاد بالنسبة لها؛ انتابها ذلك الشعور بالرضا عن أن ما قاموا به لم يذهب سدى. حكت له

عن طفولتها في الجبال. لديهما الوقت لتحكي له عن كل صيف أمضوه هنا، وعن كل ذكرى. علمها بعض العبارات الإنجليزية.. عبارات عسكرية في أغلبها. وحكى لها عن "فيلادلفيا" ومنزل والديه والأيام المشمسة على الشاطئ خلال الصيف. حدثها عن أعمال والده ومدى عدم ارتياحه من الحياة الرغدة التي تربى فيها. ولكن الطريقة التي تحدث بها عن ذلك كانت مختلفة عن سابقتها. لم تكن لتحنق عليه بسبب ذلك. هناك أشياء أكثر أهمية بكثير لكي يحيا المرء ويموت من أجلها.

أخبرها عن لقائه زوجته في "برينستون"، وعن مدى سعادة السنوات القليلة الأولى معًا. تزوجت من ذلك الطيار بعد أسبوع من انتهاء إجراءات الطلاق، وقبل شهر من خروج "جون" إلى مهمته. لم يخبر أحدًا عن حكايته بهذه الدقة من قبل؛ زوجته السابقة، طفولته، والديه، والمكان الذي نشأ فيه. لم يكن لديه الوقت، لقد استعرض كل التفاصيل التي يمكن تصورها والتي يمكن أن يتذكرها عن "رودولف هان"، وأخبرها بكل ما يعرفه عن عمله، والذي لم يكن كثيرًا في الواقع. هناك أجزاء من المهمة سرية حتى عليه. ولم يكن بحاجة إلى معرفة كل شيء عن المهمة، بل دوره وحسب.

تحدثا عن كيفية إحضار "هان" إلى الكوخ. سيكون من الأفضل الانتظار حتى تلتئم ساقا "جون"، قرب نهاية يناير. عندها فقط يمكن أن ينطلقوا صوب الحدود. ومع كل ما تحدثا عنه، وفي كل الساعات التي أمضياها معًا، لم يذكرا المستقبل أبدًا. لم يتحدثا أبدًا عما ستفعله "فرانكا" بمجرد أن يصل "جون" إلى سويسرا مع "هان". المهمة هي المهمة الآن. كرر تلك العبارة مرارًا وتكرارًا في ذهنه، حتى أصبحت تعويذة.. كلمات تعني حياته.

حركت "فرانكا" سريره بحيث يكون فوق بقعة الألواح في غرفة النوم. وتدربا على ما يتوجب عليهما فعله إذا جاء "الجيستابو" بحثًا عنه. تدربا على الخطوات عشرات المرات. جرس الإنذار الوحيد هو صوت سيارة تقترب. وفي هذه الحالة، كان على "جون" أن يذهب إلى غرفة النوم على الفور ويختبئ في الأرضية تحت الألواح، في المساحة الموجودة تحتها والتي جعلتها مريحة قدر استطاعتها. سيغطي السرير ألواح الأرضية، والتي بدورها ستغطيه. لن يكون هناك من مخبأ إن أجرى "الجيستابو" بحثًا شاملًا، ولكن ما السبب الذي قد يدعوهم إلى ذلك؟ لم ترد أي كلمة في الصحف المحلية عن طياري حلفاء أو جواسيس مفقودين. يبدو أنهم لم يعرفوا أنه في المنطقة، ناهيك عن اختبائه في كوخ والدها.

أقبل العام الجديد. لم ترَ أحدًا غيره منذ رحلتها الأخيرة إلى البلدة قبل أسبوعين تقريبًا، يوم أن التقت "مارتينا"، والضابط الذي طلب أوراقها، والأشخاص الذين يعملون في المتاجر المختلفة التي زارتها. وصار "جون" يقضي وقتًا أطول خارج الغرفة. وعندما تعود من جولتها اليومية، تجده جالسًا إلى كرسي هزاز بجوار المدفأة، يقرأ أحد الكتب المحظورة. أراد أن يقرأ الكتب التي كان النازيون يلقون الناس في السجن بسببها. كلما كانت الجملة أقوى، أراد قراءتها أكثر. كان كتاب "الجبل السحري" لـ"توماس مان" على المنضدة حيث تركه، تبرز منه علامة عند الصفحة التي توقف فيها. استمعا إلى محطات إذاعية أجنبية ممنوعة، مستمتعين

بحرية عزلتهما. فتِنت عندما أخبرها بما كان يحدث في جبهات الحرب المختلفة، وعن المعارك في روسيا وإيطاليا، والقتال في المحيط الهادئ.

اعتادت طهي الحساء في معظم الليالي، وساعدها في تقطيع الخضار إلى شرائح رقيقة لدرجة أنها تذوب في فمها عند تناولها. اعتادا تناول الطعام معًا منذ ليلة عيد الميلاد، وقد أصبحت عادة الآن.

كانا صامتين عندما تناولا الطعام في تلك الليلة من يناير. كان يتحلى بآداب مائدة رائعة. حاولت أن تتخيله جالسًا مع زملائه الجنود ويأكل من طعام الجيش بالطريقة التي وصفها بتلك التفاصيل. وجدت أن من الصعب أن تتصوره وهو يأكل بيديه.

رفع منديله ونفض فتات الخبز على جانبي فمه قبل أن يواصل تناول وجبته.

- أراكِ تنظرين إليَّ بهذه الابتسامة على وجهك. بم تفكرين؟

- أحاول فقط أن أتخيلك مع زملائك الجنود.

كانت فخورة بنفسها وهي تستخدم العامية الأمريكية التي علمها إياها.

- لقد استغرق الأمر بعض الوقت حتى يتقبلني بعضهم في التدريب الأساسي. بمجرد أن أدركوا أننا جميعًا في الجانب نفسه، حتى عرفوا أن التحيز ضد أي شخص قد يكلفه حياته.. أود أن أعتقد أنني اكتسبت احترامهم.

وضع شوكته جانبًا، ولم يكمل وجبته.

- أعلم أنكِ متوترة بشأن الغد. كل شيء سيكون على ما يرام. ما عليكِ سوى التحدث معه لبضع دقائق. لن يشك أحد في شيء. على حد علمنا، فهو ليس مثار شك.

- على حد علمكم.

- هناك أشياء لا نعرفها بالطبع، ولكنني لن أثق في أحد للقيام بهذه المهمة.

- ليس لديك الكثير من الخيارات.

- بالطبع لديَّ.. يمكنني الانتظار. وقد يغير "هان" رأيه، أو ينهي عمله، أو يُقبض عليه، أو قد يحدث شيء آخر في هذه الأثناء. ولكن لا يمكنني الانتظار، ولا يمكنني الذهاب بنفسي.

مد يده عبر الطاولة وتناول يدها.

- متى ستدركين أهميتك في هذه المهمة؟ لا أصدق أنني وجدتك. لولاكِ لكنت ميتًا بالفعل.

سحبت "فرانكا" يدها بعيدًا وتناولت فنجان القهوة أمامها.

- ما الذي يجعلك متأكدًا من أنني أستطيع القيام بذلك؟

- أرى فيكِ قوة. مَن غيركِ كان بإمكانه فعل ما فعلتِه وما زال يواصل المضي قدمًا؟

- المدفأة تحتاج إلى حطب.

- دعكِ منها. يمكن أن تنتظر بضع دقائق.

تناول يدها مرة أخرى. يداه دافئتان وقويتان.

- تستطيعين فعل ذلك. لديك كل الصفات التي تؤهلكِ لذلك.. أنتِ شجاعة، و..

- لست شجاعة.. أنا جبانة.

شعرت بالدموع وهي تتساقط وخجلت من البكاء أمامه.

- تخليتُ عمن حولي حتى أنقذ حياتي. تظاهرت أنني لا أعرف ما الذي كان يحدث، وماذا كان "هانز" والآخرون يفعلون لأجل هذا البلد.

ابتعدت عنه، وانشغلت بالحطب المكدس في الركن. اشتعلت النيران مجددًا وهي تقذف بضع قطع من الحطب.

- كانوا أبطالًا حقيقيين، وعلى استعداد للتضحية بأرواحهم من أجل ما يؤمنون به.

- كونهم ماتوا لا يجعل منهم أبطالًا أكثر منك. ألا تعتقدين أنهم كانوا سيختارون الحياة لو استطاعوا ذلك؟ ما فائدة موتك؟ ماذا كان سيحققه موت إنسان آخر؟

- كان يجب أن أعترف بصدق بما فعلته وما عرفته. لقد لعبت دور "الشقراء الغبية". لقد مثلت دور "الفتاة الحمقاء".

- لقد فعلتِ ما فعلتِه لتبقي على قيد الحياة. كنت سأفعل الشيء نفسه بالضبط لو كنت في مكانك. كنتِ شجاعة، ذكية، والآن أنتِ على قيد الحياة. وبفضلك، أنا حي. أنتِ شقراء، وامرأة.. بالفعل، لكنكِ بعيدة كل البعد عن صفات الغباء أو الجبن، تمامًا مثل أي شخص قابلتِه من قبل.

لم تنجح كلماته في منع بكائها، الذي أصبح أقوى وسالت الدموع أسرع على وجنتيها. استعان بعكازيه للنهوض من مقعده والاقتراب منها.

- قد تكونين أشجع شخص عرفته على الإطلاق، "فرانكا جربر".

- لقد تخليت عنه.

- ماذا؟

خرجت كلماتها واهنة، مثل رماد في مهب الريح.

- مات بسببي. تركته. لم يكن والدي قادرًا على الاعتناء بنفسه وحده.

- أوه.. لا، هذا ليس صحيحًا.

يشعر "جون" بدفء جسدها على جسده.

- ما كان يجب أن أذهب أبدًا. بسببي مات "فريدي". لو بقيت في "فرايبورج"، لكنا سنعتني به معًا. لم يكن ليوضع في دار الرعاية أبدًا، وما كانوا ليأخذوه أبدًا. كان من

الممكن أن يظل على قيد الحياة.

- لم يمت "فريدي" بسببك. قتله النازيون.

- لماذا كان عليَّ الذهاب إلى "ميونيخ"؟ لماذا تركته؟

- كنت تريدين بداية جديدة. كنتِ في الثانية والعشرين.

- أنت تقول ذلك ولكن..

- موت "فريدي" ليس خطأك. ألم يكن من الممكن أن يأتوا إليكم في منزلكم ليأخذوه؟ لم يكن هناك شيء يمكن أن تفعليه حيال ذلك. ليس هناك من سبيل للتيقن من كل ذلك.

- ما كان ليموت!

- لديك فرصة للنيل من النظام الذي قتل أخاك وصديقك. إنهم لا يدركون مدى أهمية هذا البرنامج النووي. علينا أن نوقفه قبل أن يكتشفوا ذلك. يؤكد "هان" أنهم متقدمون فيه. إذا سمحنا للنازيين بتطوير برنامجهم أولًا، فلن يدفعوا أبدًا ثمن قتل "فريدي" وآخرين كثيرين.

- لقد فات الأوان، وقع الضرر وانتهينا.

- لم يفت الأوان أبدًا، ليس وأنتِ على قيد الحياة؛ ترك النازيون وراءهم ملايين الضحايا في جميع أنحاء أوروبا. وأمامك الفرصة للقتال من أجل العدالة نيابة عنهم جميعًا.

- أو الانتقام؟

- هذا أو ذاك سواء. هناك أسباب مختلفة لما نقوم به. الانتقام سبب من الأسباب. أريد أن أعرف ما إذا كنتِ واثقة من قدرتك على أداء المهمة بنسبة مائة في المائة. فلو كان لديكِ شك ولو واحد في المائة فإن هذا يعني أنكِ تعرضين حياتنا للخطر. فهل أنت معي؟

- معك.. مائة في المائة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

استيقظت "فرانكا" قبل الفجر، وراقبت ظلام الليل وهو ينحسر أمام حلول فجر الصباح. بقيت راقدة لساعة قبل أن تقرر مفارقة الفراش، فتستقبلها برودة الكوخ. المسافة بين "شتوتجارت" و"فرايبورج" ساعتان بالقطار. كانت الطرق لا تزال مسدودة، وتتبع سيارتها لتذكرها بكيفية وصولها إلى هنا وكيف يمكن أن تغادر. لاذت بالقهوة الساخنة. وتفقدت الطعام المتبقي لـ"جون"، رغم أنها كانت تعرف بالفعل كمية الطعام التي لديهما. سمعت صوته عبر الباب، فذهبت إليه ومعها فنجان قهوة ساخن. كان جالسًا في السرير.

- يمكنك القيام بهذه المهمة. إنها مجرد مقابلة رجل في "شتوتجارت".

تحدثا عن الرحلة لبضع دقائق قبل أن تذهب إلى الحمام لتغتسل. كان في المطبخ عندما خرجت، يدغدغ شعرها فروة رأسها بفعل الهواء البارد. جلسا وتناولا الإفطار معًا. راجع "جون" كل شيء مرة أخرى، على الرغم من أنها حفظت كل شيء. كانت مستعدة للذهاب بعد خمس عشرة دقيقة، ورافقها إلى الباب ليصافحها ويودعها. قالت له:

- أراك في الغد.

حاولت إخفاء القلق الذي ينهشها، ولكنها رأت النظرة المضطربة في عينيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تتحرك "فرانكا" عندما دخل القطار إلى محطة "شتوتجارت" الرئيسة. كان عقلها خاويًا، خاليًا من الألوان مثل الثلج الذي سقط في الجبال. عرض الجندي الجالس أمامها مساعدتها في حمل حقيبتها. تمسكت بها بقوة ورفضت عرضه بأدب. رفع قبعته تحيةً لها ووقف لينزل من القطار. أجبرت نفسها على ترك مقعدها، مدركةً شحوب مظهرها؛ لم تأكل، ولم تتحرك منذ صعودها القطار. يداها ترتعشان. دستهما في جيبي معطفها ونهضت. تبعت "فرانكا" بقية الركاب وهم يهبطون من القطار إلى الرصيف. وصل القطار في موعده.. الساعة على الجدار الثالثة والربع. سوف يكون هناك ما يكفي من الوقت للعثور على فندق قبل أن تذهب للقاء "هان". أوقف العديد من رجال "الجيستابو" الذين يرتدون الزي الرسمي أفرادًا من هذا الحشد للتحقق من الأوراق، ولكنهم تركوها؛ فيبدو أنهم أكثر تركيزًا على الرجال في سن الخدمة العسكرية، يبحثون عن الهاربين من الخدمة.

استقبلها الهواء باردًا عندما خرجت من المحطة، كان يومًا غائمًا ضبابيًّا. يرفرف صف من الأعلام النازية الضخمة على أعمدة ارتفاعها خمسون قدمًا، بالكاد يمكن رؤيتها من خلال العتمة، كانت هناك صورة ضخمة معلقة لـ"هتلر" بارتفاع عشرة أقدام عند مدخل المحطة، لوحت "فرانكا" لسيارة أجرة.

أجبرت نفسها على تناول أي طعام، بعد أن حجزت في الفندق الذي تقيم فيه وشقت طريقها نحو ميدان "شلوس"؛ الساحة الكبيرة في وسط المدينة حيث سيكون "هان"

موجودًا خلال الدقائق العشر الحاسمة. تجولت في الحدائق باروكية الطراز في الساحة وصولًا إلى تمثال الإلهة الرومانية "كونكورديا" البارز في قلبها، يرتفع لمائة قدم تقريبًا في السماء. ترك القصف آثاره في المباني المحيطة بالميدان، والتي تلاشت في بعضها بعضًا في ظل تشوش الرؤية. بعضها قيد الإنشاء مرة أخرى والبعض لم يكن كذلك. يرفرف علم نازي ضخم في الهواء، بينما يتجول العديد من الجنود خارج نوبة الخدمة. تصلب جسدها كله عندما نظروا إليها. يبدو أن هناك أعداء في كل مكان، ويمكنها أن تشعر بأن عيون كل عابر سبيل تلتصق بها مثل العلق على الجلد. جلست على مقعد في حديقة مطلة على الساحة، متمنية لو كان معها سيجارة؛ حتى تهدئ أعصابها على الأقل. قاومت الرغبة في النظر إلى ساعة يدها. توقف رجل عبر الميدان، وبدا وكأنه ينظر إليها، ثم واصل سيره. مضت الثواني مثل الأيام.

ثم رأته.. شق رجل في الخمسينيات من عمره، يرتدي معطفًا من قماش لونه بيج، طريقه عبر الساحة وجلس على مقعد في الحديقة على بعد ثلاثين ياردة منها. يرتدي قبعة، ويميزه الشارب الرمادي الذي وصفه "جون". رفع الجريدة أمام وجهه، تمامًا كما قال "جون". هل تذهب مباشرة إليه؟ اختلست نظرات حولها، وكأنها تنتظر وصول شخص. جلس بجانبها رجل في الثلاثينيات من عمره، ورمقها. وتجمد قلب "فرانكا" في صدرها.

- مكان جميل.. أليس كذلك؟

- بالفعل.

خرجت الكلمة متعثرة.

لم تجرؤ على أن تنظر إليه، رغم أنها كانت تعلم أنه كان ينظر إليها. رمقت ساعتها، ثم نظرت إلى الرجل الذي يرتدي المعطف البيج. سيذهب "هان" في غضون ثماني دقائق. مَن كان هذا الرجل بجانبها؟ ملأت رائحة دخان السجائر الحلوة أنفها.

- أتريدين سيجارة؟

مد يده بعلبة السجائر نحوها. هزت رأسها ترفضها. كشفت ابتسامته عن أسنان أمامية معوجة. لديه ندبة عميقة أسفل خده. عيناه رماديتان غامضتان.

- لا أدخن.

أخذ نفسًا عميقًا.

- عادة سيئة. يرفضها "الفوهرر" نفسه.

- أستأذن منك.. معذرة.

وقفت وابتعدت دون أي كلمة أخرى. الرجل ذو المعطف البيج لا يزال يقرأ جريدته ولم يبدِ أي رد فعل وهي جالسة بجانبه. نظر إليهما الرجل الذي عرض عليها سيجارة.

- طقس جميل بالنسبة لهذا الوقت من العام. متعة للأطفال.

أدار "هان" رأسه عند سماع كلماتها. استغرق الأمر منه بضع ثوانٍ لاستعادة رباطة جأشه. بجانبه مظلة، تمامًا كما وصف "جون".

- الطقس جيد للتزلج على الجليد، وليس للمزارعين الذين يحاولون إطعام جنودنا الشجعان على الجبهة.

نطق كلماته بإتقان متعمد. كانت كلمات السر. طوى الصفحة وأبقى الصحيفة أمام وجهه.

عرفت أنها يجب أن تتحدث بعد ذلك لكنها رمقت الرجل الذي يدخن السيجارة. كان ينظر لكنه تجنب عينيها عندما لاحظها وهي تنظر إليه مرة أخرى. سار جندي في زي قوات الأمن الخاصة بجوارهم.

- هل من الآمن التحدث هنا؟

- ربما لا.. أنتِ لست بالضبط الشخص الذي كنت أتوقع لقاءه.

- حدثت مشكلة مع العميل الأصلي. لم يكن قادرًا على القيام بالمهمة.

التفت "هان" إليها وهي تتابع.

- إنه على قيد الحياة وبصحة جيدة. ومع ذلك، لديه بعض المشكلات، ولن يتمكن من التنقل لبضعة أسابيع.

حدقت أمامها وهي تتحدث، مدركة أنه على الرغم من أن جريدته كانت أمام وجهه، فإنه كان ينظر إليها مَن حولها.

- سوف أنهض. سأنتظرك عند ناصية الشارع هناك. تعالي بعد خمس دقائق، ويمكننا أن نتمشى معًا.

طوى جريدته ووضعها تحت ذراعه وهو يقف. حاولت ألا تتحقق من ساعتها أكثر من مرتين. الرجل الذي قدم لها سيجارة كان يتحدث إلى شخص آخر على المقعد الآن، وعلى ما يبدو فهو غافل عنها. بمجرد أن عدت الدقائق الخمس، اتخذت طريقها إلى "هان"، الذي استقبلها بمصافحة.

- أنتِ تعرفين مَن أنا، لكنني لا أعرفك.. بماذا أناديك؟

- "فرانكا".. أنا ألمانية.

- هل تمثلين أصدقاءنا الحلفاء؟ هل يمكنك تقديم الوعود لي نيابةً عنهم؟

- أجل أستطيع.

هذا ما أكده لها "جون".

- تقولين إن الرجل لا يستطيع التنقل. ما مشكلته بالضبط؟

- ساقاه مكسورتان. إنه يتعافى في كوخ بالقرب من "فرايبورج".

انتظر "هان" حتى مرا على جندي وصديقته يتمشيان معًا.

- هناك مشكلة. هناك تغيير في الخطة.

- أي تغيير في الخطة تقصد؟

- أريد أن أُخرج زوجتي معي.

- اعتقدت أنك مطلق، ولديك ابنة تعيش في المنفى في سويسرا؟

- "هايدي" في "زيورخ" بالفعل، ولكن لا يمكنني ترك زوجتي ورائي بضمير مستريح. تصاعد القصف في الأسابيع الأخيرة. يبدو أن الحلفاء لديهم سيطرة مطلقة على سماء ألمانيا الآن. الآلاف يلقون حتفهم والرب يعيننا جميعًا إن دخل السوفيت. لا أستطيع أن أتركها تواجه هذا المصير بمفردها.

- سأرى ما يمكننا القيام به.

- إن لم يمكنها الخروج، فلن أخرج.

حاولت "فرانكا" أن تتخيل "جون" وهو يعرج على ساقيه بينما يحاول قيادة زوجين في الخمسينيات من العمر عبر الغابة المتجمدة إلى سويسرا. لا يبدو ذلك معقولًا.

- سأتحدث مع صديقنا حول هذا الموضوع. لديَّ عدد من الأسئلة لك أيضًا.

نظرت "فرانكا" حولها. لم يكن هناك أحد على مرمى البصر. واصلا المشي.

- أنا على ثقة من أنكم رتبتم أمر المنزل الذي طلبته. أريد منزلًا على الشاطئ، سيارتين، واحدة ألمانية والأخرى أمريكية.

ابتسم "هان" قبل أن يردف:

- أريد أن أكون قائد الفريق الذي أعمل معه، وأريد التحكم في مجريات البحث.

- تم الاهتمام بكل طلباتك. كيف يسير عملك؟

- نقترب من تحقيق هدفنا.

- ماذا عن القيادة النازية؟ هل بدؤوا في الاهتمام بعملك؟

- تلقيت رسالة من "هيملر" الأسبوع الماضي، تشيد بي والتقدم الذي أحرزناه. نسمع أنه يريد أن يجعلنا مشروعه المفضل. سوف يستغل النتائج التي توصلنا إليها لكسب ود "هتلر". وهو بصدد تحديد موعد للزيارة. إذا تمكن "هيملر" من الحصول على موافقة "هتلر"، فسنحصل على كل التمويل الذي نحتاجه، وسنكون قادرين على تطوير سلاحنا.

أزعجتها كلمة "سلاح"، وتضاعفت أسئلتها، لكنها بقيت في إطار المهمة، متذكرة كلمات "جون".

- ألا توجد طريقة يمكنك من خلالها إيقاف هذا التقدم؟

- أنا فرد في فريق. إذا كنت سأرتكب نوعًا من الخطأ المتعمد، فسوف يلاحظ بقية الفريق ذلك. وعندئذ، يمكن أن أُقصى عن المشروع، وفي هذه الحالة، لن يكون لديكم أحد بداخل المركز. لن أستطيع فعل ذلك؛ فقد يضر بسمعتي، وإلى جانب ذلك، يريد رؤساؤك مني مواصلة تقدمي بقدر ما أستطيع قبل أن يأخذوه لأنفسهم. وهم لا يعتقدون أن القيادة النازية ستدعمنا بالقدر الضروري الذي نحتاجه لإنهاء المهمة. كما يعتقدون أن الحرب ستنتهي بحلول الوقت الذي نصل فيه إلى مرحلة امتلاك شيء يمكننا استخدامه بالفعل.

- وهل هم على حق؟

- يمكن، ربما لا.. من الصعب القول. إنها لعبة خطيرة يلعبونها.

- هل يمكن أن يستمر العمل بدونك؟

- أجل، لكنني رأس الحربة والقوة الدافعة وراء تنفيذ الأبحاث. كما أنني واجهة المشروع. ومن دوني، سيفقد أشخاص مثل "هيملر" الاهتمام، وسيُتغاضى عن المشروع لصالح تطوير المحركات النفاثة التي يعتقد "هتلر" أنها يمكن أن تقلب مسار الحرب. مشروعنا هو واحد من العديد من المشاريع التي قد تنقذ ألمانيا. وقد تصادف أنني أعرف الإمكانات الحقيقية لما نقوم به. كان من الصعب إقناع الآخرين بذلك. ويمكن أن يؤدي هذا الاجتماع مع "هيملر" إلى نجاح مشروعنا أو إلى فشله.

كان من الصعب معرفة ما إذا كان معاديًا للنازية أم لا، لقد بدأت في تكوين انطباع بأنهم إذا لم يخرجوه من ألمانيا، فسوف ينجز المشروع لألمانيا، وسيتمكن النازيون من الاستفادة من إمكانات هذا السلاح الذي ذكره. ربما أراد فقط الاستفادة من التسهيلات والتمويل المتفوق للأمريكيين. ربما كان المشروع نفسه هو كل ما يهمه، والاكتشاف العلمي هو أمله، وليس ما سوف يستخدمونه فيه. فالرجل الذي لا ولاء له سوى عمله رجل خطير.

سارا في صمت لبضع دقائق، مرورًا من الساحة إلى الشوارع الخلفية. أحاطت بهما المباني الحجرية المهيبة، وحلَّ المساء. أنارت المصابيح الشوارع، بعضها محطم الزجاج، وبعضها يعمل.

- إذًا.. ما خطتكم؟

- نريدك أن تنتظر لأسبوعين ثم تشق طريقك إلى "فرايبورج".

- وبعد ذلك ستأخذونني أنا وزوجتي إلى أمريكا حتى أتمكن من مواصلة عملي؟

- ما عمر زوجتك، دكتور "هان"؟

- هي في الثالثة والخمسين.

- من شأن إحضار شخص آخر معك، ولا سيما امرأة في الخمسين من عمرها، أن يزيد من صعوبة عبور الحدود إلى سويسرا.. أنا متأكدة من أن رجلًا لامع العقل

مثلك يمكنه تقدير عواقب ذلك.

- لا سبيل إلى رحيلي إلا بهذه الطريقة.

حاولت "فرانكا" تخيل رأي "جون". ربما ينقلهما "جون" واحدًا تلو الآخر، فيأخذ الزوجة أولًا ومن ثم يعود إلى "هان".. احتمال بعيد، لكنه ممكن.

- هل لديك أي طريقة لجلب العمل معك؟

- لقد صنعت ميكروفيلم للمخططات والخطط. لن يكون جلبه مشكلة.

- وأين هذا الميكروفيلم؟

- في مأمن.

كانت على وشك أن تطلب منه توضيحًا أكثر، عندما اخترق الصوت الصارخ لصفارات الإنذار الهواء من حولهما.

لمحت "فرانكا" الخوف في عينيه.

- غارة جوية، علينا الذهاب إلى ملجأ.

- كم من الوقت لدينا قبل أن تهطل القنابل؟

- من الصعب تحديد ذلك. نحن في وادٍ، والطقس ضبابي. يمكن أن تكون الطائرات فوقنا مباشرة. هل ستأتين معي؟

- ليس لديَّ مكان آخر أذهب إليه.

بدأ الناس يركضون، وسحبت الأمهات الأطفال من أذرعهم.

- يوجد ملجأ على بعد بضع دقائق سيرًا على الأقدام.

قاطعته صافرة صاخبة، وهز انفجار قوي الشارع من خلفهما. وانفجرت واجهة متجر على بعد عدة مئات من الأمتار، لتمطر الشارع بالركام والحطام. دق جرس إنذار ضد السرقة. ما زالت صفارات الإنذار تعوي. وانتشر الناس فزعين. نظرت "فرانكا" وراءها فرأت الجثث على الأسفلت. أمسك "هان" بمعصمها عندما صفرت القنابل مرة أخرى. هناك مائة شخص أو أكثر يجرون في الشوارع الآن. من المستحيل معرفة مدى بعد الملجأ. لم تستطع رؤيته، بإمكانها فقط رؤية الأشخاص الذين يركضون. "هان" بطيء. كادت تسحبه عندما سقطت قنبلة أخرى، على بعد مائة قدم خلفها. أطاحت برجل ليرتطم بجانب أحد المباني كما لو كانت يد عملاقة. سقطت قنبلة أخرى، ثم أخرى، لتصيب المنازل على جانبي الشارع. تطاير الزجاج والحطام. استدارت "فرانكا" ورأت رجلًا يجري خلفها، والنيران تلتهم جسده.. سقط جثة هامدة. يركض الناس من حولها، تطاردها صرخاتهم. إنه ذعر أعمى. سقطت قنبلة أخرى، وانفجر المبنى الذي أمامهما مباشرة في الشارع، ليستحيل إلى كومة من الأتربة والأنقاض. هناك قتلى على طول الطريق من أمامها وخلفها. وما زال صفير القنابل يطن في أذنيها. تباطأت حركة "هان". صاحت فيه:

- كم نبعد عن المأوى؟

- نصف ميل.. ربما. عادة ما يكون هناك المزيد من التحذير.. تلك الغيوم.

رجَّ انفجار آخر الهواء من حولهما، ووجدت "فرانكا" أن الشارع الذي ركضا فيه منذ ثوانٍ وقد تحول الآن إلى وليمة للنيران. عدة جثث ملقاة مثل مشاعل متناثرة في الضوء الخافت. السماء فوقها سوداء. لا ترى الطائرات. رأت قنبلة، وشاهدت التوهج الأسود قبل أن تضرب الأرض، لتطمس أثر محل بقالة، وليتناثر الزجاج وصناديق الخضروات الخشبية مثل قصاصات ورق ملون. هوت قنبلة أخرى، وانزلقت جثة امرأة عجوز مشوهة إلى الأسفلت على بعد بضعة أقدام أمامها. احترقت ملابسها، واحترق جلدها تحتها، وتمزق فكها. ركضت "فرانكا" من حولها بينما انفجرت قنبلة أخرى خلفهم. فقدت أثر "هان" لبضع ثوانٍ في ضباب الدخان ثم رأته على بعد حوالي خمسين قدمًا إلى يسارها. وصلت إليه لحظة سقوط قنبلة أخرى، مما أدى إلى تناثر المزيد من الحطام. عشرات المصابين يصرخون. ولا يزال عشرات آخرين يركضون. توقفت "فرانكا"، وفركت عينيها. لقد فقدت "هان" مرة أخرى، وأخذت تبحث عنه على الأرض.

كاد انفجار آخر أن يفجِّر طبلة أذنها، وأخلَّ بتوازنها. المباني المحيطة بها عبارة عن بحر من اللهب ينبعث منه دخان أسود يتصاعد في الهواء. مسحت حبيبات الغبار عن عينيها، وحاولت التركيز على الرغم من طنين أذنيها. تفحصت جسدها. لا يوجد دم. يمكنها التحرك. فقط القليل من الألم. نهضت على قدميها، متخلفة عن معظم مَن يركضون الآن.

انفجرت قنبلة أخرى، ولكن على بعد مئات الأمتار هذه المرة. فكرت أنها صارت وحيدة ولا يزال يتعين عليها الوصول إلى ملجأ من القنابل. كل مَن سبقوها ما زالوا يركضون نحو ملجأ من الغارات، والذي كان بإمكانها رؤيته الآن على بعد عدة بنايات.. أين "هان"؟ شعرت بدفء يتدفق على جانب وجهها، وصدمت بالدماء في يدها. الآن، يمتزج نشاز صفارات الإنذار بأنين الجرحى المؤلم. تعثرت عبر الأنقاض والزجاج المكسور، تبحث عن "هان". أحصت سبعة قتلى على بعد خمسين قدمًا من المكان الذي كانت تقف فيه، وبعضهم فقد أذرعه وأرجله، وآخرون سحقوا تحت الحجارة وقذائف الهاون. دوى صفير القنابل مرة أخرى، بعيدًا الآن. لقد مرت القاذفات، لكن هذا لا يعني أنها لن تعود مرة أخرى. لا تزال بحاجة للوصول إلى مأوى. البقاء في العراء يعني الموت.

صرخت "فرانكا" وهي تراه. كان "هان" على الجانب الآخر من الشارع، مستلقيًا على جانبه في بركة من الدماء. تعثرت وهي تتجه نحوه وصادفت عددًا من الجرحى يستغيثون بها. كان تجاهلهم ضد كل غريزة فيها، لكنها فعلت. ذكَّرها صوت خافت في رأسها بالتركيز على المهمة.

نادت عليه، بدا صوتها وكأنه يتردد بداخلها، كما لو كان داخل كهف أسود عميق. هزت المزيد من الانفجارات الأرض وهي تنحني نحوه. كان الناس لا يزالون يركضون. نادى عليها شاب لتأتي، وحاول الإمساك بها، لكنها تجاهلته. فتح "هان"

عينيه ورفع رأسه. ينزف الدم من جانبي فمه. سعل وهو يحدق فيها. ملابسه مخضبة بالدماء، وازداد سمك البركة القرمزية كثافةً على الأرض. ناشدتها عيناه أن تساعده، رغم أنها كانت تعلم أنه لا يوجد شيء يمكن القيام به لإنقاذه؛ لقد سقطت قطعة خرسانة على ساقيه فثبتت جسده إلى الأرض. فكرت في تركه، لتلوذ بالملجأ. ولكنها تذكرت "جون"، القابع في انتظارها في الكوخ.

- أين الميكروفيلم، "هان"؟

ومضت عيناه، ولم ينجح في محاولته الكلام.

- لا تدع أبحاثك تذهب سدىً في هذا الشارع. قلت إن النازيين لم يقدروا عملك.. دع الأمريكيين ينهون ما بدأته إذًا.

فتح عينيه ونظر إليها وهي تتحدث.

- أين الميكروفيلم؟ امنحني فرصة أن أحافظ على العمل الذي كرست حياتك من أجله.

حاول "هان" أن يتحرك، وحاول تحريك الكتلة الخرسانية عن ساقيه. ساعدته "فرانكا" بكل جهدها. ولكن "هان" استسلم لمصيره واستكان جسده. أنفاسه واهنة، والحياة تنسل عن وجهه. أدركت "فرانكا" أن أمامه ثوانٍ فحسب.

- دكتور "هان"؟ لا تدع عملك يقع في أيدي النازيين، دع الأمريكيين يفعلون خيرًا به.

تبسم "هان" ابتسامة دموية مروعة.

- مثلما فعلوا بنا اليوم؟ هل تدركين حتى حقيقة ما أعمل عليه؟

- الانشطار النووي؟ لا أعرف ما هذا. أعلم أنه يمكن أن يغير مجرى الـ...

- إنها قنبلة.. أقوى قنبلة في التاريخ. قنبلة يمكنها أن تسوي الأرض بمدينة بأكملها.

- قنبلة واحدة تدمر مدينة؟

- يمكنها أن تحرق الآلاف في ثوانٍ.

- لا تدعها تقع في أيدي النازيين. فكر فيما فعلوه بأصدقائك وزملائك اليهود. فكر فيما يمكنهم فعله بهذه القوة الغاشمة.

أغمض "هان" عينيه لثانية ثم فتحهما مرة أخرى، وعرفت "فرانكا" أنها يمكن أن تكون آخر مرة.

- إنه في شقتي.. 433 شارع "كرونين".. بالقرب من هنا.

سعل مرة أخرى.

- احرصي على أن تكتمل التجارب. كل شيء في الميكروفيلم. اذهبي الآن، بينما الغارة مستمرة والشرطة في الملجأ.

- أين أخفيته؟

انفجرت المزيد من القنابل، على بعد بضع مئات من الأمتار فحسب. عرفت "فرانكا" أنها يجب أن تتحرك. سوف تعود القاذفات مرة أخرى. قال بصوت ضعيف:

- صورة أمي..

سقط رأسه إلى الوراء، وشاربه مخضب بالدماء، وعيناه مفتوحتان، تحدقان في اللا شيء.

مرق الناس إلى جوارها. و"فرانكا" الوحيدة التي لا تركض. كانت شقة "هان" تحت المراقبة. وإلا لماذا طلب منها الذهاب إلى هناك الآن بينما تمطر قاذفات الحلفاء المدينة بقنابل الموت؟ قد تكون هذه فرصة "فرانكا" الوحيدة لإحياء المهمة، وللقيام بدورها لهزيمة الشر الذي قتل "هانز" و"فريدي" ووالدها.

استغرق الأمر بضع ثوانٍ مروعة بينما تبحث في جيوبه عن المفاتيح. لم يكن أحد يشاهدها. تركته ملقى هناك وركضت مع الآخرين، حيث ظهر ملجأ الغارات الجوية الخرساني المسلح في نهاية الشارع. وسكن ضباب من الدخان والغبار الهواء. صفارات الإنذار لا تزال تدوي، واشتعلت النيران في العديد من المباني المحيطة بها، وتناثرت الجثث على الطريق. لمحت اسم الشارع.. "كرونين". كان خاليًا؛ لا شرطة، لا جنود، لا "جيستابو"، وبالتأكيد لن تكون فراو "هان" في انتظار زوجها الراحل وهو يعود إلى المنزل.. هذه هي فرصتها السانحة. توقفت للحظة، أنفاسها تتصاعد بقوة، وشعرها مخضب بالدماء. كان ملجأ الغارات الجوية على بعد مائتي ياردة.. ولكن ليس الآن.

ركضت في الشارع، وألقت نظرة خاطفة على أرقام المباني. سقطت القنابل مرة أخرى وهزت عدة انفجارات الأرض من خلفها. وحل الغبار والدخان محل مبانٍ كانت منتصبة قبل لحظات فقط. المهمة.. المهمة.. 411.. 413. سقطت قنبلة على يمينها، وألقت بالزجاج والخرسانة على الطريق أمامها. توقفت لبضع ثوانٍ حتى تأكدت من عدم وجود أي شخص. رأت المبنى وركضت نحو الباب الزجاجي، الذي لم يُمس بعد، وتعثرت بحثًا عن المفاتيح. جربت أحدها.. كان المفتاح الخطأ، ثم آخر.. حتى انفتح الباب إلى درج رخامي. المصعد على بعد أمتار قليلة، ولكن استخدامه الآن شديد الخطورة. عرفت من صناديق البريد على يمينها أن "هان" يعيش، أو كان يعيش، في الشقة 2 ب. صعدت الدرج الخالي بينما ارتج المبنى بأكمله بأثر قنبلة قريبة. البقاء على قيد الحياة مجرد احتمال. جلست على الدرج منتظرة انقشاع الصوت ثم واصلت الصعود. تغطي الدماء وجهها، وتلهث، حتى وصلت إلى الشقة 2 ب. دست المفتاح في القفل وفتحت الباب. فكرت أن زوجته ربما كانت لا تزال هناك، لكن لم يكن هناك وقت للتردد. ركضت إلى غرفة المعيشة، مكررة الكلمات التي قالها مرارًا وتكرارًا.

"صورة أمه"..

تنتشر صور قديمة بالأبيض والأسود فوق كل طاولة، والعديد منها معلق على الحائط.. أيها لوالدته؟ وكيف يخفي الميكروفيلم في إطار صغير مثل هذه الإطارات؟ وجدت بابًا مغلقًا، فركضت نحوه. إنه يفضي إلى غرفة النوم ورأت فوق السرير صورة لامرأة ذات وجه صارم ترتدي ملابس تقليدية. رفعتها "فرانكا" عن الجدار ووضعتها مقلوبة على الفراش. تمزق المزيد من الانفجارات الهواء في الخارج، والآن يمكنها سماع صوت قذائف تنطلق نحو الطائرات في الأعلى. الجزء الخلفي من الصورة مغطى بورق بني، مرتفعًا بقدر بوصة عن الصورة نفسها. مزقت "فرانكا" الورق البني. وجدت علبة سوداء صغيرة ملتصقة بداخل الإطار في الزاوية اليسرى السفلية.. هو الميكروفيلم بالتأكيد. التقطته "فرانكا" في لهفة ودسته في جيبها.

هوت القنابل مرة أخرى بينما تتجه نحو السلم وانتظرت حتى توقف ضجيجها قبل أن تواصل النزول. اندفعت عبر باب المبنى السكني في الشارع المدمر. الرجل الذي كان يطلب مساعدتها قبل دقائق مات الآن. من الصعب ألا تنظر إليه وهي تهرب. حرصت على أن تكون يدها في جيبها بينما تمضي في طريقها، وأصابعها حول الميكروفيلم. أغلقوا الباب الأمامي لملجأ الغارات، فطرقت عليه بقبضة قوية وصرخت حتى يدخلوها. انفتح الباب، فألقت بنفسها في الداخل وهي تلهث وقد غطى الغبار والدم ملابسها. استدار مئات الأشخاص ليحدقوا بها بينما يدها تتشبث بالميكروفيلم في جيبها.

مرت الساعات. انتهى القصف أخيرًا. وكانت الضمادة التي وضعها المسعف على رأسها تسبب لها حكة. أكد لها أن الجرح سطحي، وأن جروح الرأس تبدو دائمًا أسوأ من حقيقتها. تظاهرت بالغباء وهي تومئ وتبتسم. قدم لها الرجل الذي بجانبها معطفه. رفضت وهي تسأل عن الطريق إلى الفندق الذي تقيم فيه، على أمل أن يكون سليمًا. فكرت في طياري الحلفاء وهم يلقون القنابل، وتساءلت عما إذا كانوا يعرفون ماذا يفعلون، وفيما إذا كانوا يفكرون فيمن تقتلهم قنابلهم. هل هم مجرمو حرب كما يقول معظم الناس في الملجأ؟ أم أن أمورًا مثل هذه يكتبها المنتصرون؟ وشكت في أن يكون للعدالة يد تطال معظم مجرمي هذه الحرب. الأرجح أن تكون الإشادة حكرًا على الجانب المنتصر، وأن يذكروا جرائمهم هذه على أنها أفعال بطولية. وهكذا، يسمون الشوارع ومحطات السكك الحديدية في جميع أنحاء العالم على أسماء أشخاص يعدُّهم الجانب الآخر مجرد مجرمي حرب.

أسدل الليل أستاره بينما يخرجون من الملجأ. تحركت "فرانكا" وسط مدينة تغيرت ملامحها، بينما ألسنة اللهب من جراء القصف لا تزال تتطاول في الليل. قال الناس إنها كانت أعنف غارة على "شتوتجارت" حتى الآن. سوف تمر أيام قبل أن يكملوا إحصاء الموتى. سوف تكون "فرانكا" قد رحلت عن المدينة. مضى مواطنو "شتوتجارت" مثل أشباح في شوارع مظلمة، يتجولون حول الأنقاض وأجساد المنكوبين. انتهى عويل صفارات الإنذار، وحل محله العويل.. وشعور الناجين بالذنب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الثاني عشر

جلس "جون" عند النافذة معظم الوقت الذي غابت فيه. يفكر في "بينيلوب".. هي مع شخص آخر الآن. رجل آخر ينتظر رسائلها. تخيل الطيار وهو يقرب الرسالة من أنفه ليشم رائحة عطرها، تمامًا كما فعل هو من قبل. لم يفكر بها كثيرًا منذ أن كتبت له الرسالة الأخيرة، والتي لم تكن معطرة بالتأكيد. تذكر كيف ضحكا معًا، وكيف كان فخورًا بها، وكيف مارسا الحب. تلاشت المرارة التي بداخله. تمنى أن يراها، ويخبرها أنه آسف، وأنها كانت تفعل الشيء الصواب. كانت سعادتها أهم شيء في العالم بالنسبة له ذات يوم، وكان يأمل أن تعيد اكتشافها مع زوجها الجديد. من المستحيل أن يغضب منها. كل شيء كان خطأه. لم يخنها أبدًا ولم يرغب في غيرها، لكنه لم يكن هناك من أجلها. يعلم أنه لن يكون هناك وداع أخير. سوف يلتقيان مرة أخرى، ربما في بعض الحفلات حيث يرمقان بعضهما عبر القاعة. ربما يمكنهما التحدث وتمني التوفيق لبعضهما.. إنه محض أمل.

يتطفل تفكيره في "فرانكا" على كل شيء آخر خطر بباله، محاولاته لمسحها من وعيه عقيمة؛ كانت تعود دائمًا. وجهها موشوم بداخله. حارب القلق الذي شعر به تجاهها. من الأنسب معاملتها مثل أي عميل آخر؛ ولكنه عندما استيقظ ذلك الصباح، افتقدها في ظل برودة الكوخ. شعر بالفراغ. شق طريقه من السرير، وأخرج نفسه من غرفة النوم إلى المطبخ. كانت القهوة على الموقد حيث تركها. لم يمس أي شيء. شعر بأنه غير طبيعي؛ المشاعر التي بداخله سخيفة، هي بالتأكيد نتيجة مباشرة لكونه محاصرًا هنا لفترة طويلة، صحيح أنه لم يرَ امرأة مثل "فرانكا" منذ وقت طويل، فكان من الطبيعي أن يشعر ببعض الألفة تجاهها.. لقد أنقذت حياته. امرأة شجاعة وصادقة وجميلة. لم يستطع أن يلوم نفسه على الأفكار المزعجة التي لا يستطيع السيطرة عليها. عجز عن منع نفسه من تأمل كل تفصيلة في ملامحها. هناك بعض الأشياء الخارجة عن إرادته.

أنهى إفطاره المكون من الفواكه المجففة والخبز القديم والمربى وشق طريقه إلى غرفة المعيشة. كتابه ملقى على الطاولة بجوار الحطب الذي يحتاج إلى من يشعله. قدَّر أن مخزون الحطب يكفي لثلاثة أيام أخرى قبل أن تحتاج "فرانكا" للخروج لجلب المزيد. لا تشعر بالراحة عند إرسالها إلى حيث الثلوج، لكنها لم تشتكِ أبدًا. لم تشكُ أي شيء. استغرق الأمر منه بضع دقائق قبل أن تصبح نار المدفأة قوية بما يكفيه ليجلس ويسترخي. تمنى لو كان بإمكانه التجول في الكوخ، لكنه كان متعثرًا. كان عقبة أكثر منه عونًا.

لم يكن يستغلها؛ لقد تطوعت، كانت ممتنة للفرصة التي أتيحت لها للتأثير على نتيجة الحرب ضد النظام الذي دمر عائلتها والبلد الذي أحبته.. فلماذا يشعر بالذنب؟ لماذا يشعر وكأنه أرسلها وحدها إلى عرين الأسد؟ لقد أخبرها بأن "هان" صعب المراس. كان "جون" متأكدًا من أنها تستطيع أن تتعامل معه بنفسها. كل ما هو عليها التواصل معه وحسب.

جاء وقت الغداء، و"جون" لا يزال بالقرب من النار، وكتابه على الطاولة بجانبه. الشمس مشرقة في الخارج، وبإمكانه سماع تساقط الثلوج مع بدء فترة الذوبان الطويلة. حرك البطانية التي كان يفردها على صدره، ووصل إلى الراديو وأخذ يبحث بين المحطات. سمع اللكنة الملكية لمذيع الأخبار في إذاعة الـ"بي بي سي" عبر الأثير. التقى "جون" بالعديد من الإنجليز. قليل منهم يتحدث هكذا. تحدث قارئ النشرة عن غارات الليلة السابقة. تجمدت الدماء في عروق "جون" عندما ذكر الغارة على "شتوتجارت".

"نفذت قاذفات سلاح الجو الملكي البريطاني غارة خاطفة على المعقل الصناعي في "شتوتجارت" بالأمس. وتقول المصادر إنها الغارة الأكبر على تلك المدينة منذ بداية الحرب".

الغارة صغيرة مقارنة بالطلعات الجوية الضخمة التي دمرت الكثير من عمران "هامبورج" و"كولونيا"، ولكنهم يحتفون بها بوصفها نجاحًا كبيرًا. كم عدد الضحايا؟ لقد أرسلها إلى حتفها بين فكي وحش الحلفاء. استهلكت الأفكار المروعة خلايا عقله. انتقل قارئ النشرة إلى أخبار أخرى، غير مبالٍ بكلماته التي ما زالت تتردد في ذهن "جون".

- إنها حرب دائرة.. تبًّا، فهي تدرك المخاطر.

تسمرت عيناه على ساعة الحائط في الردهة، دقت الواحدة، ومرت الدقائق مثل أشهر حتى بلغت الساعة الخامسة. كان الظلام يحل بالخارج عندما انفتح الباب أخيرًا. لم يستطع "جون" رؤيتها وهي تلقي بالزلاجة في الردهة.. لم ينادِها. ظهرت "فرانكا" في نهاية الردهة، وضمادة بيضاء كبيرة على جبينها. أسقطت حقيبتها ودلفت إلى الداخل.

حاول "جون" ألا يبدي ارتياحه لعودتها.

- هل التقيته؟

- التقيته.

راحت إلى المطبخ، وعادت بعد لحظة وفي يدها كوب ماء.

- حدثت الغارة وقت أن كنت معه. تحولت المدينة بأكملها إلى كتلة من جحيم.

- هل تأذيتِ؟

تحسست الضمادة، وهي تقول:

- إنه مجرد خدش. كنت من بين المحظوظين. لقد راح المئات ضحايا.. ربما آلاف، لفظ "هان" أنفاسه الأخيرة في الشارع.

- ماذا؟ هل أنتِ متأكدة؟

- لقد التقيته. مات أمام ناظري.

ألقت بجسدها في إعياء على مقعد قبالته.

حاول "جون" لملمة خيوط أفكاره. لقد مات "هان".. وهو ما يعني انتهاء عمله مع النازيين. ولكن ماذا لو استمر عمل النازي نحو الانشطار النووي دون توقف؟ من دون العلم الذي امتلكه "هان"، قد لا يتمكن العلماء في أمريكا من اللحاق بالركب إلا بعد فوات الأوان. لن يرضى رؤساء "جون" إلا بالحصول على المعلومات التي كانت بحوزة "هان". استغرق الأمر منه بضع ثوانٍ قبل أن يستعيد رباطة جأشه ويتحدث مرة أخرى.

- ألم تتأذي؟

هزت رأسها أن لا.

- ما الذي حدث؟ كم المدة التي بقيتِ خلالها معه؟

- عدة دقائق فحسب. اتضح لي أنه كان مرتزقًا أكثر منه منشقًا. بدا أكثر حرصًا على إنهاء العمل من حرصه على استخدامه ضد النازيين. لا يبدو أنه اهتم كثيرًا بمن يتوصل إلى السلاح أولًا. وكان مقتنعًا بأن الأمريكيين سيمنحونه التمويل والتسهيلات التي يحتاجها.

- نحن قادرون على ذلك بالفعل. لقد عرفت بأمر القصف. وسعيد بأنكِ على قيد الحياة.. ما الذي جرى؟

حكت له "فرانكا" كل شيء، منذ أن التقت "هان" وحتى لقي مصرعه.

- وماذا عن الميكروفيلم؟

- دقيقة.

راحت إلى الحمام وعادت بعد لحظات تحمل علبة بلاستيكية صغيرة. كان وجهها صارمًا متجهمًا.

حاول أن ينهض، ووجد صعوبة في التعامل مع العكازين. اقتربت منه، فعاد للجلوس إلى مقعده.

- حصلتِ عليه؟!

- ذهبت إلى شقته بعد أن مات.

مد يده إلى العلبة التي في يدها، ولكنها تمسكت بها.

- لقد أخبرني بتفاصيل المشروع.

تراقص ضوء ألسنة اللهب على تقاسيم وجهها.

- لقد أخبرتك بكل ما أعرفه. وطرح الأسئلة ليس من مهام عملي.

- كان يعمل على صنع قنبلة قادرة على محو مدينة بأكملها. كان يعمل على أخطر سلاح مميت عرفه البشر.

اشتدت قبضتها على الميكروفيلم.

- لم أكن أعرف أنها كانت قنبلة. عرفت للتو أنها تكنولوجيا يمكنها تغيير مسار الحرب. علينا الآن تسليم هذا الميكروفيلم إلى الحلفاء قبل أن يدرك النازيون قيمة ما بين أيديهم. فإذا سبقونا إلى تطوير تلك القنبلة.. هل يمكنك تخيل ماذا سيفعلون بها؟ لن يترددوا في استخدامها.. سيموت ملايين الأبرياء.

- ملايين الأبرياء يموتون بالفعل. رأيت ذلك بعينيَّ. شاهدت ما تفعله غارات الحلفاء بالشعب الألماني.

- النازيون هم مَن أشعلوا هذه الحرب.

رآها تتحرك نحو نار المدفأة.

- لا تفعلي ذلك، "فرانكا".

- يبدو لي أنك مثل طفل يتجادل حول مَن بدأ الشجار. هذا ليس شجارًا في ساحة مدرسة. هناك آلاف يذبحون كل يوم.

- ما في يدك يمكن أن يقطع شوطًا طويلًا نحو إنهاء تلك المذبحة. سوف نطور التكنولوجيا. هناك المئات من ألمع العقول في أمريكا يعملون عليها كل يوم. وما في يدك يمكن أن يساعدهم في تطوير تلك القنبلة بوتيرة أسرع.. عندئذ تنتهي هذه الحرب العبثية.

- أو قد يموت المزيد من الملايين.

- ليس لنا يد في حسم هذا الأمر.

- ولكن لنا يد في مساعدتهم على اتخاذ القرار.. الحسم في يدي، وهكذا أكون مسؤولة.

- فكري قبل أن تتسرعي. تدمير الميكروفيلم لن يوقف الأبحاث. لا شيء يمكن أن يوقفها.

- على الأقل لن أكون مسؤولة عن مصرع ملايين الأبرياء.

- نحن في سباق بين الحلفاء والنازي. ماذا لو سبقنا النازي إلى القنبلة؟ هل تعتقدين أنهم سوف يترددون في استخدامها؟ على لندن أو موسكو أو باريس؟

- ومن الذي يجزم بأن الحلفاء لن يفعلوا مثل ذلك؟ لقد رأيت ما أحدثتموه في ألمانيا من دمار.

- ليس لدينا خيار بشأن ما إذا كانت القنبلة ستصنع أم لا؛ يمكننا فقط تحديد مَن نساعده في هذا السباق. مَن الطرف الذي ترغبين في أن يربح الحرب.. الحلفاء أم النازية؟

ناولت الميكروفيلم إلى "جون". قال:

- أنا أعرف حقيقة مشاعرك.

- حقيقة مشاعري؟ كيف يمكنك أن تقول هذا بكل هذا اليقين؟

- ما أعرفه أن القرار ليس بيدنا، وأن علينا أن نثق في مشاعرنا.

- بأن نساعد في تصنيع أشد الأسلحة تدميرًا في تاريخ البشرية؟ اعذرني.. ولكنني لا أجد أي منطق في هذا.

- بل هي مفارقة، مفارقة بكل تأكيد، ولكن امتلاك تهديد مثل هذا كفيل بأن يجبر النازيين على التسليم بأنهم لن يربحوا الحرب.

- هل تعتقد أن التهديد بقتل مدنيين ألمان سوف يوقف النازيين؟ لا يهتم النازيون بمواطني هذا البلد على الإطلاق. لقد استغلوا شعب هذا البلد لتحقيق مآربهم الخاصة. ولن ينهي أي تهديد للشعب هذا المسعى، الذي لن يتوقف إلا بدمار النازيين أنفسهم.

وضع "جون" علبة الميكروفيلم على المنضدة بجانبه. التقط قهوته، التي بردت منذ فترة طويلة، ولكنه تناول جرعة كبيرة على أي حال.

- أشكرك على ما فعلته.. ليس فقط من أجل هذا المجهود الحربي، ولكن لي أيضًا.

- ماذا ستفعل؟

- سيكون عليَّ نقل هذا الميكروفيلم عبر الحدود إلى سويسرا.

رمق ساقيه في الجبس أمامه. ولاحظت "فرانكا" ذلك:

- تعافيك يتم بشكل جيد. ربما يمكننا إزالة الجبس في غضون أسبوعين آخرين أو نحو ذلك.

- ألا توجد طريقة تتيح لنا فكه في زمن أقصر؟

- ليس إذا كنت تريد سلامة ساقيك.. أنا ممرضة، ولست صاحبة معجزات.

- ما أراه يا "فرانكا" هو أنك بالفعل صانعة معجزات.

- أتغازلني؟ أهذا كل ما لديك لتمنحه لي الآن؟

قالتها ومضت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لم تحصل "فرانكا" على الحمام الدافئ الذي تاقت إليه، ولكنها شكرت الرب على الثلاث بوصات من المياه الفاترة التي تمكنت من جمعها. علقت صورة الجثث التي تحترق في شوارع "شتوتجارت" في مخيلتها وهي جالسة في الماء. سوف يستغرق "جون" أسبوعين أو ثلاثة أسابيع أخرى قبل أن يتعافى، ثم يختفي. ماذا ستفعل بعد رحيله؟ تلاشت فكرة الانتحار. تبين لها أنها لا تزال مفيدة ولا يزال بإمكانها إحداث فارق في حياة البشر، ولكن أي مستشفى سيوظفها الآن؟ إنها خائنة لـ"الرايخ"،

وأمضت عقوبة السجن. يبدو أن ألمانيا لم تعد تتسع لها. لديها ما يكفي من المال لسنة أخرى أو نحو ذلك على الأقل، لكن ماذا بعد ذلك؟ ماذا لو لم تستطع العمل؟ لديها عمات وأعمام في "ميونيخ" وأبناء عمومتها منتشرون في المدن والبلدات في جميع أنحاء البلاد، ولكن هل سيقبلونها؟ هل سيعاملونها على أنها خائنة؟ إنها لم ترَ معظمهم منذ سنوات، وأصبح أبناء وبنات خالاتها غرباء عنها الآن.

سوف تنتهي هذه الحرب قريبًا. كل شيء سوف يتغير. وإن هي عاشت بعد فناء "هتلر" ونظامه، ستكون انتصرت، وهو انتصار لن يطاله ملايين آخرون الآن. تتوق إلى اليوم الذي تعود فيه المثل العليا التي تمسك بها "هانز" و"صوفي" قاعدة للبلاد مرة أخرى، يوم أن يُكرَّموا كأبطال.. يكفيها أن تعيش حتى ذاك اليوم.

فكرت في "جون" مرة أخرى. كان الأمر سخيفًا، ولكنها تدرك أنه الآن أقرب رفيق حقيقي بقي لها في هذه الحياة. لم يكن لديها أحد أقرب منه. لم يكن هناك أي شخص كشفت عن نفسها أمامه بالقدر نفسه في هذا العالم بأسره. وسرعان ما سيرحل. فكرت في أمريكا. كان من الملهم أن تجد أحدًا يؤمن ببلده على هذا النحو. ولاؤه لشعب بلاده، وليس لنظام ما يزعم أنه يعمل لصالحهم. إن "الوطنيين" الذين عرفتهم قد دُمِّروا بسبب المثل العليا المنحرفة. الوطنية تجاه الدولة النازية أمر مقيت ومخالف بشكل مباشر لكل ما كان ينبغي أن تمثله تلك القيمة. والوطنيون الحقيقيون هم الذين لديهم شك سليم في الحكومة وكل دافع تعمل على أساسه. الوطنيون الحقيقيون هم أولئك الذين لم يسمحوا للخطاب النازي بأن يهيمن عليهم، أولئك الذين تذكروا مَن هم؛ مثل "هانز" و"صوفي"، مثل والدها. وربما كان الوطنيون الحقيقيون هم الذين سيرحبون بالقوات التي أصبحت مسألة دخولها إلى بلدها مسألة وقت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ورقة التقويم على الحائط تقول إن اليوم هو 20 يناير 1944. كان "دانيال بيركل" جالسًا إلى مكتبه، حيث بدا وكأنه يقضي معظم وقته هناك هذه الأيام. معظم عمله هو خلط الأوراق والتحقق من المصادر والتحقيق في الخلافات بين الجيران والأصدقاء السابقين، لأنه إن أدان أي عمل للجيران، يمكن أن يضعهم قيد الاعتقال ويحتمل أن يؤدي بهم إلى السجن، وجد المواطنون الساخطون أنفسهم في موقع قوة جديدة على الأشخاص الذين يحملون ضغينة ضدهم. في كثير من الأحيان، كان الأشخاص الذين أدانهم جيرانهم كأعداء للدولة مذنبين في أمور تافهة مثل التعدي على أراضيهم، أو سرقة صحيفتهم في كثير من الأحيان. قبل أسبوع فقط، تعامل مع حالة زوج غيور أبلغ عن جاره الوسيم. قام العملاء بتعذيبه بما يكفي لأن يعترف بأنه على علاقة غرامية مع زوجة الرجل. أطلق العملاء سراحه. هناك فن للتعذيب، إذا بالغ العميل، فسينتهي الأمر بالمشتبه به بالاعتراف بمحاولة اغتيال "الفوهرر". يجيد هذا الفن التوازن الصحيح. لكل رجل وامرأة نقطة انهيار. والمحقق ذو الخبرة يعرف متى يتقدم ومتى يتوقف، وما الأساليب التي يجب استخدامها والتراجع عنها. ضربوا الجار الوسيم بالعصي لكنهم لم يصلوا إلى حد تعليقه، وبالتأكيد لم يصلوا

إلى مرحلة توصيل شحنة كهربائية بأعضائه التناسلية. كان ذلك في الحالات الأكثر تطرفًا، لكن مثل هذه الحالات بدت وكأنها هي القاعدة في هذه الأيام.

أصبحت الأوامر العليا أشد قسوة. استعاد "بيركل" في ذهنه الأيام التي سبقت بدء الحرب. كانت الحياة أبسط. كان من الممكن التسامح مع المواقف الليبرالية لبعض المواطنين، على الرغم من عدم تشجيعها أو قبولها قبل الحرب. في تلك الأيام، لم يكن هناك مكان لمثل هذه المواقف في حكم "الرايخ". أصبح البحث عن الليبراليين ومَن يسمون بالمفكرين الأحرار هاجسًا لكبار المسؤولين. من الصعب تصديق أنه على الرغم من عدد أعداء الدولة الذين تخلصوا منهم، لا يزال هناك عدد أكبر منهم بين السكان. كان "الجيستابو" مشغولًا أكثر من أي وقت مضى. تجاهلوا المفاهيم القديمة مثل الأدلة والإجراءات القانونية منذ فترة طويلة؛ لـ"الجيستابو" سلطة مطلقة على السكان، ولم يمل "بيركل" أبدًا من الخوف الذي يزرعه في رجال ربما لم يكونوا ليهتموا له لولا المهمة التي يقوم بها.

"بيركل" فخور بالعمل الذي يقوم به. أسفه الوحيد هو أنه لا يرى العائلة إلا بشكل عابر. ببساطة، لم يكن هناك وقت كافٍ للقيام بعمله بفعالية ورؤية أبنائه بالقدر الذي كان يوده. زين مكتبه بعدة صور. تضحية صعبة لكنه قدمها لبلاده. حياته مكرسة لقضية أكبر سيشكرونه يومًا ما من أجلها. وجيله على استعداد للتضحية بنفسه من أجل مصلحة الجيل التالي، وما الهدية الأعظم التي يمكن أن يمنحها لأبنائه أكثر من "رايخ" مزدهر؟ هذا هو الواجب الأسمى لأي أب والشيء الذي يحفزه كل يوم.

مد يده إلى فنجان قهوته الذي برد، قبل أن يسحبها مرة أخرى لأنه أدرك أنه قد أسقط سيجارة فيه قبل ساعات. مد يده في جيبه من أجل سجائره وأشعل إحداها بالكبريت التي كان يحتفظ به على مكتبه، ولأن منفضة السجائر ممتلئة، استخدم فنجان القهوة مجددًا. يخترق ضوء المصباح على مكتبه الظلام، مسلطًا على أكوام من الأوراق تنتظر مَن يقرأها عندما يكون الوقت مناسبًا، الجو مظلم بالخارج، لكنه أشد دفئًا مما يبدو عليه. الثلج يذوب أخيرًا، وفتحت معظم الطرق مرة أخرى. سمع طرقًا على بابه، فنادى على الشخص أن يدخل.

إنه "أرمين فوجل"، عميل "جيستابو" من مزرعة قرب "إيخباخ".

- "دانيال"، كيف حالك؟

- مشغول، "أرمين"، أحاول تحديد الشخص الذي عليه الدور. هل النادل الذي قال إننا خسرنا الحرب أم القس الذي يقيم قداسات سرية؟

- يبدو لي هذا مألوفًا.

جلس "فوجل" قبالة "بيركل" وأشعل سيجارة. ترك "بيركل" الأوراق، مرتاحًا لأن هناك عذرًا لهذا الفاصل.

- لديَّ شيء أريد أن أخبرك به.

- ما هو؟

- وصل إلى مكتبي تقرير قد تكون مهتمًا له. أذكر أنك تحدثت عن أحد معارفك القدامى الذين قابلتهم في أواخر العام الماضي.. "فرانكا جربر"؟

- أجل، صديقة قديمة من سنوات مراهقتي. ماذا عنها؟

- تلقيت تقريرًا من "سانكت بيتر" قبل أيام قليلة. كانت "فرانكا جربر" تتصرف بشكل مريب هناك قبل عيد الميلاد بقليل؛ أرادت عكازين لصديقها، الذي أصيب على ما يبدو في أثناء التزلج.

- حقًّا؟

سحب "بيركل" نفسًا من سيجارته بعمق.

- أخبرتني أنها ستعود إلى "ميونيخ".

- هاه.. حسنًا، إنها هنا. فحص أحد رجالي أوراقها هنا في المدينة قبل أيام. بدا كل شيء طبيعيًّا، لكنني رأيت أن أخبرك. من المحتمل أنه لا شيء هـ..

- لكن الشك هو عملنا.

- بالفعل، كنت سأحضره إليك عاجلًا، لكنني مشغول مثلك.

- أتفهم ذلك، شكرًا لك. أعرف أين ستكون، يجب أن أقوم بزيارة لها ولصديقها هذا، لأن الطرق شبه مفتوحة الآن، لا حرج في زيارة صديقة قديمة، أليس كذلك؟

- لا حرج على الإطلاق.

نهض "فوجل" وألقى التحية التي ردها "بيركل".

غادر "فوجل"، وقبع "بيركل" في مقعده وانتظر بضع دقائق قبل الذهاب إلى الطابق السفلي. يعرف بالضبط مكان ملفها وذهب إليه مباشرة. وجده خفيفًا في يده؛ مسيرة حياة ملخصة في بضعة أسطر قرأها عدة مرات لدرجة أنه لم يعد بحاجة إلى النظر إليها بعد الآن. لقد قالت إنها ستغادر. ولكنها لا تزال هنا. لماذا احتاجت العكازين؟ على قضاياه الأخرى أن تنتظر الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

جاء شهر يناير أكثر دفئًا مما كان متوقعًا، كادت سيارتها أن تتحرر من عبودية الثلوج. يبذل "جون" أفضل ما لديه في التدريب، عندما عادت "فرانكا" بالحطب. نظفت حذاءها قبل أن تصيح معلنة حضورها، ظهر بعد ثوانٍ قليلة.

- بضعة أيام فقط، وبعد ذلك سنرى كيف تبدو ساقيك. لقد تجاوزت المرحلة الأسوأ.

- الفضل لكِ.

أجابها، قبل أن يذهب إلى الخارج لسحب الحطب إلى الداخل. سحبت الزلاجة المكدسة بالخشب إلى الداخل. بذل قصارى جهده لمساعدتها، لكنها كالعادة أمرته بالجلوس. فرزت الحطب، وألقت بالقطع الجافة في السلة قرب النار. إنه الحادي

والعشرين من يناير. أسابيع الجبس الستة تنقضي في غضون أربعة أيام، وبعد ذلك سوف يرحل، ولن يراها مرة أخرى أبدًا. ستكون مجرد وجه آخر مرَّ في حياته، ثم خرج منها. شق طريقه إليها وبدأ بفرز كومة الخشب الثانية. النار تتلألأ بلون برتقالي، بينما اقترب المساء.

- ماذا ستفعلين بعد أن أغادر يا "فرانكا"؟

- لم أحدد بعد.. ربما أبحث عن وظيفة.

واصلت فرز الحطب وأكملت:

- هناك حاجة دائمًا للممرضات، خاصة مع استمرار الحرب.

- ممرضات بمثل خبراتك؟

- لم أقل إنه سيكون من السهل الحصول على وظيفة، ولكن من المحتمل أن يكونوا في احتياج كبير.

- هل فكرتِ يومًا في الخروج من هنا؟

- من الغابة السوداء؟ لقد فعلت ذلك بالفعل.. عشت في "ميونيخ".

- لا، ليس الغابة السوداء.. أقصد ألمانيا. هل فكرتِ يومًا في الخروج من ألمانيا؟

وضعت غصنًا سميكًا كانت تقبض عليه.

- بالطبع، لكن إلى أين أذهب؟ ألمانيا هي كل ما عرفته، وحتى لو كان لديَّ مكان أذهب إليه، فكيف سأصل إليه؟

- يجب أن أغادر في الأيام القليلة المقبلة. يمكنك أن تأتي معي.

- إلى أين، "فيلادلفيا"؟

- أتمنى هذا، لكنني لن أعود إلى الوطن لفترة من الوقت، لكن يمكنني أن أعبر بكِ الحدود السويسرية. وهناك يمكنك البدء من جديد. سيكون هناك طلب دائمًا على شخص لديه مهارات مثل مهاراتك. ستحصلين على وظيفة، وستكونين في أمان.

- عبور الحدود السويسرية ليست مسألة سهلة. ليست مجرد تقديم أوراق ومن بعدها يتمنى لك "الجيستابو" إجازة سعيدة.. الحدود مغلقة. ليس هناك ما يضمن أننا سنعبرها.

- أعرف بأمر الحدود. ستكون المهمة صعبة، ولا شك في ذلك، ولكن ما الذي عليك البقاء هنا من أجله؟

- "جون"، لقد عشت هنا طوال حياتي. ماذا تقصد بسؤالك؟ هذا وطني.

وجد صعوبة وهو ينهض على قدميه، وكان ساخطًا وهو يتبعها إلى المطبخ. ذهبت إلى الموقد لفرز كومة أخرى من الحطب كانت قد أحضرتها. جلس على كرسي المطبخ على بعد قدمين من حيث كانت تجثو.

- لماذا لا تفكرين في الأمر على الأقل؟

- ماذا أفعل في بلد لا أعرف فيه أحدًا ولا أملك فيه شيئًا؟

- ستكونين حرة، يمكنك البدء من جديد.

- في سويسرا؟

- إذا كنتِ تريدين، أو ربما حتى في أمريكا. يمكنني تقديم التماس للحصول على تأشيرة دخول.

- كيف ستحصل على تأشيرة لمواطنة ألمانية في خضم الحرب؟

- لديَّ بعض الأصدقاء ذوي النفوذ. إذا لم يتمكن والدي من إنجاز ذلك، فإن رئيسي سيحرص على إتمامه.

حل الظلام في الخارج، ونهضت "فرانكا" لإضاءة مصباح الزيت.

- أنتِ أشجع فتاة قابلتها في حياتي. ما الذي تخشينه؟

- لم أذهب إلى أمريكا من قبل. أنت الأمريكي الوحيد الذي عرفته.

- يجب أن أحذرك من أنه ليس كل الأمريكيين رائعين مثلي.

- هل هم جميعًا واثقون من أنفسهم هكذا؟ أنت واثق جدًّا من قدرتك على عبور الحدود، بينما لا يمكنك حتى المشي.

- ساقاي تشعران بالراحة. قلتِ إنهما تتعافيان. لا يمكنني الجلوس هنا بينما أمتلك هذا الميكروفيلم. لا بد لي من تسليمه إلى القنصلية في سويسرا.. عليَّ أن أحاول.

- هل تعرف كم تبدو سخيفًا؟ لا يمكنك الذهاب إلى أي مكان بعد، لا يمكنك المشي.

- دعيني أريكِ، أستطيع أن أفعل أكثر من المشي. تعالي معي.

مدَّ لها يده، وكان العكازان مستندين تحت إبطيه.

- ماذا تفعل؟

- تعالي معي.

خلعت قفازها وألقت به لكنها لم تمد له يدها. هز "جون" كتفيه وأشار إليها أن تتبعه إلى غرفة المعيشة. ذهب إلى الراديو، وشغله. صدح برنامج إخباري باللغة الإنجليزية.

- ماذا تفعل؟

- انتظري بضع ثوانٍ.

أخذ يتنقل بين المحطات.

- أنتِ دائمًا في عجلة من أمرك.

استقر على محطة موسيقية. وضحك وهو يقول:

- أستطيع أن أفعل ما هو أكثر من المشي.

رفع ذراعيه، وسقط العكازان على الأرض.

- أتسمحين لي بهذه الرقصة، "فرويلاين"؟

- لا تكن سخيفًا، في هذا خطورة عليك.

أمسكت بيده وهي تدرك أنها لا تزال ترتدي معطفها الصوفي القديم. قرب جسدها من جسده، ونظر في عينيها، بينما وضع إحدى يديه على خصرها، والأخرى على جسدها.

- كنت بارعًا في الرقص ذات يوم.

كان يتأرجح على قدميه، قادرًا بالكاد على حفظ توازنه، كان جسده متوترًا، وكانت تشك في قدرته على التوازن دون التمسك بها. ضحكت وهي تقول له:

- أستطيع أن أرى ذلك. أنت راقص رشيق للغاية.

- أسمي هذه الرقصة "الجاموس ذا الكاحل المكسور".

ربما كان أطول منها بست بوصات. لم يتحدث أي منهما لبضع ثوانٍ، والضوء ساقط على وجهيهما. انتهت الأغنية فابتعدت عنه.

- هل انتهى الرقص بيننا هذه الليلة؟

سمعت "فرانكا" صوت سيارة تقترب في الخارج، فسقط قلبها في قدميها. همست له:

- سيارة.. هيا إلى المخبأ.

كان العكازان على الأرض، فتناولتهما "فرانكا" من أجله، وأسرعا إلى غرفة النوم دون أن ينبس أيهما ببنت شفة. أغلق الباب خلفه ووضع العكازين على الأرض بجانب ألواح الأرضية المفكوكة وهو يرفعها. توقف محرك السيارة، وخفت ضوء المصابيح الأمامية، وسمعت صوت بابها يُفتح. انسل "جون" إلى داخل الفتحة الموجودة أسفل ألواح الأرضية، وحقيبة الظهر عند قدميه، وبداخلها زي الطيار.

استغرقت "فرانكا" بضع ثوانٍ للرد على قرع الباب. فنجان قهوة "جون" بجوار النار. وكتابه. لا توجد علامات أخرى على أنه هنا. كانا حذرين. جميع متعلقاته معه تحت ألواح الأرضية. أخذت نفسًا عميقًا وذهبت إلى الباب. استقبلها عواء الريح عندما فتحته. كان "بيركل".. وحده.

حياها "بيركل" من خلال وشاح يغطي النصف السفلي من وجهه:

- هايل هتلر.

- هايل هتلر.

لاحظت أن يدها ترتجف فدستها في جيبها. خلع وشاحه، وهو يسألها:

- ألن تسمحي لي بالدخول، "فرانكا"؟

- بالطبع، هير "بيركل".. تفضل.

مرَّ بجانبها ومسح قدميه على الممسحة قبل أن يخلع معطفه الأسود. سلمه لها دون أن ينظر، على الرغم من أنه لا بد أنه رأى شماعات المعطف على بعد بوصات من وجهه. كان يرتدي الزي الرسمي الكامل لـ"الجيستابو"، مزينًا بميداليات الخدمة المتميزة في الدفاع عن "الرايخ". علقت معطفه. توجه من فوره إلى غرفة المعيشة وأخذ يتأمل المكان بينما تلحق به.

قال وهو يهز رأسه:

- مذهل، مرت ثماني سنوات والمكان لم يتغير، باستثناء بعض الصور التي رفعت عن الحائط.

- ثماني سنوات.

- هناك الكثير من الذكريات.

خلع قبعته السوداء.

- أجل، حقًّا.

- ألن تقدمي لي فنجان قهوة؟

- بالطبع، يا لي من وقحة!

تبعها إلى المطبخ ووقف عند الباب.

- كانت مفاجأة كبيرة أن أعرف أنكِ ما زلت هنا، اعتقدت أنكِ ستعودين إلى "ميونيخ" قبل عيد الميلاد.

وضعت "فرانكا" الغلاية على الموقد قبل أن تستدير لإحضار فنجان من الخزانة.

- بالفعل، ولكن خططي تغيرت. كان الثلج كثيفًا جدًّا، لم أستطع إخراج السيارة. قررت البقاء بضعة أسابيع أخرى.

- أرى السيارة وقد تخلصت من الثلج الآن. الطرق مفتوحة منذ عدة أيام.

التفتت إليه، كادت تشعر بعينيه تخترقانها.

- أجل، حان وقت الرحيل.. هذا كسل مني، على ما أظن.

احتبست أنفاس "جون"، الذي أبقى يده على صدره في محاولة لتخفيف شدة نبض قلبه. يسمع صوتهما من المطبخ، ولكن كان من المستحيل تبين الكلام. يده على الحقيبة، ودس يده الأخرى ليقبض على المسدس.

- لا بد أنكِ كنت وحيدة هنا طوال الوقت. بينما كنتِ دائمًا فتاة اجتماعية.

- كنت بحاجة لبعض الوقت لنفسي بعد ما حدث لأبويَّ. الكوخ مكان مثالي للابتعاد عن الناس.

قال وهو يهز رأسه:

- معكِ حق.

راقبها لبضع ثوانٍ، وتركها تصب الماء الساخن في الفنجانين، ينفخ البخار عبر الهواء البارد.

- شكرًا لكِ، "فرانكا".

قالها وهي تناوله الفنجان.

- هل يمكننا العودة إلى غرفة المعيشة؟ لدينا الكثير لنتحدث عنه.

- بالطبع.

يكاد يكون شعورًا مؤلمًا أن تبتسم الآن.

تقدمها إلى غرفة المعيشة، وجلس إلى المقعد المجاور للمدفأة، الذي كان يجلس عليه "جون" قبل دقائق. كان كتابه "كل شيء هادئ على الجبهة الغربية" فوق الطاولة بجانب "بيركل". يكفي أن ينتبه له كي يودعها السجن لعدة ليالٍ. أخذ "بيركل" رشفة من فنجان قهوته قبل أن يضعه بجانب الكتاب. جلست "فرانكا" أمامه وحاولت إبعاد عينيها عن الكتاب. استراح "بيركل" على الكرسي الهزاز وأصابعه أمام بطنه. كان يحتضن قبعته.

- بالفعل.. الكثير من الذكريات هنا. قضينا بعض الأوقات الجيدة، أليس كذلك؟

أومأت "فرانكا" برأسها وشعرت وكأنها مثبتة في مكانها بأسلاك فولاذية.

- كنا صغارًا جدًّا في ذلك الوقت. حتى إن الذكريات تبدو غير حقيقية. يقولون إن حيوية الشباب يهدرها الشباب، لكنني لست متأكدًا من أنني أتفق مع ذلك القول، ما رأيكِ؟

- أنا نادمة على الكثير من القرارات التي اتخذتها في حماقة شبابي. لذا، أعتقد أنني أستطيع أن أتفهم هذا القول.

- لا أعتقد أنني أتفق مع هذا الشعور بعد الآن. أعني، هناك دائمًا حالات لشباب يقومون بأشياء غبية، لكن في وظيفتي أدرك أنه ليس عليك أن تكون صغيرًا حتى تتصرف بغباء. أرى نماذج في كل يوم؛ في الأسبوع الماضي فقط، استجوبت رجلًا، وهو أب لخمسة أطفال وفي الأربعينيات من عمره، ثمل ثم بدأ في الصياح بأن "الفوهرر" لن يتوقف أبدًا حتى يموت آخر واحد من الشعب. وصف "الفوهرر" بالكاذب والوغد.. والقاتل. هل تصدقين أن شخصًا يفعل ذلك؟

- يصعب عليَّ تصور ذلك.

- لحسن حظي، كان هناك عدد كبير من الأشخاص المستعدين للشهادة. تلقيت عشر روايات منفصلة من شهود عيان. من المشجع معرفة عدد الألمان المخلصين، ومدى تفوق الأشخاص الطيبين على عدد التفاح الفاسد بيننا.

تناول رشفة أخرى من القهوة ووضع قبعته على الطاولة حيث كان فنجانه.

- أحد المجندين الصغار لدينا سحق أصابع الرجل بين قضيبين معدنيين وخلع أظافره. اعترف الرجل بسرعة. أعتقد أن رجلي فعل ذلك للحصول على قدر من الانتقام لقول ذلك عن "الفوهرر". نحن نأخذ هذه الأمور على محمل شخصي.

- إنه دور مهم.

تحاول جاهدة إخفاء ارتعاشة يدها.

- إلى حد كبير. نحن القوة الوحيدة التي تقف بين "الرايخ" وأعداء الوطن. بدأت الحرب داخل بلدنا قبل وقت طويل من الحرب ضد قوات الحلفاء، ونحن نفوز بها يومًا بعد يوم.

أرادت "فرانكا" أن تقول شيئًا ما، لكن شفتيها لم تتحركا. الكلمات لم تطاوعها.

- أجل، لقد أصبحنا شخصين مختلفين تمامًا، أنتِ وأنا، أليس كذلك؟

- أتعتقد هذا؟

- أوه.. بالطبع أعتقد هذا. كنا متشابهين للغاية ذات يوم.

"أنا أميز الشر. وأنت تحتضنه، وتصبح مثله".

- لكن الآن، سيقول الكثير من الناس أنكِ تمثلين العلل نفسها التي أحاول القضاء عليها من أجل "الرايخ". قد يقول البعض إنك تمثلين أسوأ ما في مجتمعنا.

قاومت "فرانكا" الخوف الذي يكاد يهيمن عليها. كان لهذا الرجل سلطة مطلقة عليها. يمكنه أن يسحبها من هذا المكان ويلقيها في زنزانة، ولن يعرف أحد. ويمكنه قتلها لمجرد نزوة، ولن يشكك أحد في دوافعه. لم تكن هناك إجراءات قانونية هنا، ولا سلطة أعلى. لقد حول النازيون "دانيال بيركل" إلى إله، وكان يمارس سلطته بالطريقة التي يراها.

- أود أن أؤمن بأن "الرايخ" يسمح بوجود أشخاص مثلي ممن ارتكبوا أخطاء. لقد قضيت عقوبتي.

- لم أقل إنني شعرت بذلك، "فرانكا". أوه، لقد كنت دائمًا فتاة متهورة. فليس من المستغرب أن تضلي الطريق.

- لقد كنت مشوشة. كان من الصعب التأكد من الصواب أو الخطأ بعد وفاة أخي.

قال وهو يحدق في نار المدفأة:

- أجل، لقد سمعت عن ذلك. تصرف مؤسف، لكنه ضروري.

- ضروري؟

شعرت أن مشاعرها الحقيقية تتصاعد بداخلها. كان ذكر "فريدي" بمنزلة وقود أشعل كل مشاعر الاستياء بداخلها، وكابدت حتى لا يحدث الانفجار.

- بالطبع، "الفوهرر" نفسه كان أول مَن أشار إلى أنه سيكون من باب الرحمة إنهاء معاناة المرضى الذين لا يمكن علاجهم، المعوقين، والمجانين. كان من الضروري التخلص ممن يأخذون الطعام من أفواه الجنود الشجعان الذين يقاتلون من أجل مستقبلنا كلنا. لقد كانت سياسة الصحة العرقية خطوة محورية تعيد بلدنا إلى مكانه الصحيح بين أعظم الأمم في العالم.

- معذرة، هير "بيركل".

نهضت وذهبت إلى الحمام. وقفت وظهرها إلى الباب المغلق، وتركت الدموع تنهمر، وجسدها يرتجف. كان عليها تجاوز هذا. لم يعد الأمر يتعلق بها فقط. غمرتها أفكار البارانويا حول ذاك الرجل الذي قدم لها السيجارة في "شتوتجارت". هل علم "بيركل" بأمر الميكروفيلم بطريقة ما؟ هل سيأتي المزيد من رجال "الجيستابو"؟ هل يراوغها "بيركل" قبل أن ينقض عليها؟

"لا.. لا يمكن أن يعرف. إنه لا يعرف أي شيء. الأمر متروك لكِ للتعامل مع هذا الموقف".

تناولت "فرانكا" منشفة ومسحت الدموع. نظرت لنفسها في المرآة. الكراهية التي تتصاعد بداخلها تشوش على عقلها. حاولت التملص منها. كان لا يزال جالسًا بجانب النار عندما عادت. بدت عيناه ملتصقتين بها عندما انتقلت إلى مكانها المقابل له مرة أخرى.

- لماذا شرفتني بهذه الزيارة، هير "بيركل"، خاصة في هذا الوقت من الليل؟

- نحن حماة "الرايخ" نعمل بلا توقف. فالتمرد لا ينام. ورجاءً، ناديني "دانيال" فقط. نحن أصدقاء، وسنكون إلى الأبد جزءًا من حياة بعضنا بعضًا.

شعرت وكأن حشرات مقززة تزحف تحت جلدها.

- حسنًا، "دانيال"، ما الذي يمكنني أن أقدمه لك في ليلة شتوية كهذه؟

- هذه ليست زيارة اجتماعية، على الرغم من أنني أتمنى لو كان لديَّ وقت لمثل هذه الأشياء. هل أنتِ وحدك هنا، "فرانكا"؟

- بالطبع، حسنًا بخلاف وجودك هنا.. لكن أجل، أنا وحدي.

- وكنتِ وحدك طوال الوقت الذي كنتِ فيه هنا؟

- أجل.

تناول "بيركل" فنجان القهوة وأخذ رشفة أخرى.

- إذًا لمن كان العكازين؟

توترت أعصاب "فرانكا"، لكنها قالت وهي تحاول أن تبتسم.

- لصديقي، كان هنا لبضعة أيام، لكنه غادر. كان يجب أن أذكره لك، ولكن عقلي مشتت.

- من المضحك أنكِ تستمرين في الإشارة إلى أن عقلك مشتت. ويجب أن أعترف لكِ أنني أشعر بالعكس تمامًا. أنا أعرفك ولطالما وجدتك أكثر ذكاء وأقوى إرادة. وأنتِ بالتأكيد لستِ بالشخص الأحمق، أو الذي يتوه عقله بسهولة.

وضع فنجان القهوة على المنضدة.

- ومَن هو هذا الصديق؟

- اسمه "فيرنر جراف"، من برلين، طيار حربي.

ماذا لو وجد "جون"؟ أيمكنه الاستمرار في شخصيته المصطنعة هذه؟ كلا، لا يمكن أن يجده في مخبأه تحت ألواح الأرضية. لا يمكنها أن تبوح بأي شيء. الكذب فرصتها الوحيدة، لكن هذا الرجل تدرب على اكتشاف الكاذبين، وكانت متأكدة من أنه كان يرى بعقله كل ما يجري بداخلها.

- طيار حربي.. هاه؟

وفجأة، تغيرت نبرة كلامه إلى النقيض تمامًا.

- أنا مندهش من أن أحد طيارينا الشجعان قد يزدري نفسه ليكون مع عاهرة مثلك.

- لقد.. لقد غادر منذ بضعة أيام.

- وبالطبع أغويته، أليس كذلك؟ خدعتِه واعتقد أنكِ امرأة ألمانية مخلصة، وليست مجرد عاهرة منشقة؟

تناول الرواية من على الطاولة بجانبه.

- حسنًا، لننظر هنا.. أنا أمام عاهرة تقرأ كتابًا ممنوعًا. هل تعلمين أن هذا سبب أكثر من كافٍ لي لأعتقلك؟

- إنه كتاب قديم، "دانيال"، كنت أتصفحه فقط، أنا آسفة جدًّا.

تراجعت في كرسيها ونظرت نحو الباب. كانت تعلم أنها لن تصل إلى هذا الحد أبدًا.

- لقد كذبتِ عليَّ. كيف يمكنني الوثوق بكلمة واحدة تقولينها الآن؟

- لم أكن أريد أن أذكره، بسبب ماضينا معًا. لم أكن أريد أن أجعل هذه الجلسة غير مريحة.

- أنا ممثل "الجيستابو". هل تعتقدين أنني أخلط بين مشاعري الشخصية وتحقيقاتي؟

- بالطبع لا، لكن..

- يجب أن أقول إنني أشعر بخيبة أمل فيك "فرانكا"، ولكنها خيبة منذ فترة طويلة، منذ أن ابتعدتِ عن تعاليم "الفوهرر" وتبنيتِ الفكر الليبرالي.

- لطالما فكرت فيك يا "دانيال"، ولكننا لم نكن مناسبين لبعضنا بعضًا.

- لأنك كنتِ أفضل مني؟ حسنًا، مَن منا الأفضل الآن؟ هل تعلمين ماذا فعلت بالذين كذبوا عليَّ؟ هل تعرفين ماذا يمكنني أن أفعل بكِ، هنا والآن؟

- بالطبع، "دانيال"، لكنني قضيت عقوبتي. تعلمت الدرس. هل لديك صورة لزوجتك وأطفالك؟ أود أن أرى صورة لهم.

وقف أمامها، وصاح في غضب.

- كيف تجرؤين على ذكرهم أيتها العاهرة القذرة؟! كيف تجرؤين على ذكرهم بهذا الفم المقرف؟!

نهضت "فرانكا" وابتعدت عنه، وقد تغلب عليها الرعب.

- "دانيال"، من فضلك..

- ما من أحد هنا سواي وأنتِ. لا أحد آخر هنا ولأميال حول هذه المنطقة.

اقترب منها، وابتعدت عنه، لكن الجدار كان وراءها، مما حال دون هروبها.

- أمعن النظر في قلبك.. أنت رجل طيب، أب ممتاز مخلص لوطنه.. وكذلك لأبنائه، وأنا امرأة ألمانية، لا تفعل بي هذا.

- أنتِ وقحة وضيعة عديمة الفائدة، لا تجيدين سوى أمر وحيد، لا تجيدين سوى العهر. كنتِ أحلى جسد ذقته على الإطلاق.

خُيِّل لها أن جدران الكوخ تنقض عليها، وزاغ بصرها. تعرف أن مسدس والدها القديم في الخزانة بالقرب من الباب الأمامي، لكن بدا ذلك على بعد أميال. صرخت "فرانكا" وهو يندفع إليها، ويمسكها من ذراعيها، ويغرس أصابعه في جلدها مثل مخالب في فريسة.

- أوه، ستكونين عشيقتي. ربما أسمح لكِ بالبقاء هنا، على أن آتيكِ كل بضعة أيام. وإلا سوف أعتقلكِ وألقي بكِ في زنزانة، حيث تكونين في خدمة كل شخص يرغبك. سأترك القرار لكِ.

اقترب منها، وأدارت وجهها، وكادت تتقيأ وهو يلثم في شهوانية خدها. حاولت أن تركله بركبتها إلى أن تملصت منه في النهاية.

- عليك أن تقتلني أولًا.

- هذا أمر بوسعي الترتيب له.

ركضت منه عبر الغرفة، لكنه أمسكها من ذراعيها وجرها نحو غرفة نومها، غرفة النوم التي كان والداها ينامان فيها خلال ذلك الصيف الدافئ من عام 1934.

قاومته، وركلته وخدشت وجهه، وسال الدم على خده. فتح الباب بالقوة وألقى بها على السرير، وأغلق الباب خلفه.

- أوه.. قاومي، أنا أحب هذه الطريقة.

صرخت "فرانكا" مرة أخرى وهو ينقض عليها في الفراش ويمزق ثوبها، ليكشف ملابسها الداخلية، حاولت إبعاده بغرس أظافرها في وجهه، فصفعها بقوة على وجهها. كانت مستلقية على السرير أمامه في حالة من الذهول عندما بدأ في خلع ملابسه. وبغتةً، انفتح باب غرفة النوم، وظهر "جون"، وعكازًا في إحدى يديه، ومسدسه في اليد الأخرى. استدار "بيركل" ومد يده نحو مسدسه، ولكن "جون" بادره بلكمة في وجهه. سقط العكاز أرضًا. أطلق "جون" رصاصة نحو "بيركل"، ولكنها استقرت في الجدار. استند "جون" بجسده على الباب بينما يحاول "بيركل" الفكاك منه. ركل "بيركل" الجبس على ساقي "جون" وأبعد يد "جون" عنه. سقط "جون" أرضًا، وانزلق المسدس على الأرضية لحظة أن بادر "بيركل" بمحاولة إخراج مسدسه من غمده، ولكن "فرانكا" قفزت على ظهره، فسقط على الأرض. انتهز "جون" الفرصة لينقض على ممثل "الجيستابو" ويغرس إبهامه في قصبته الهوائية، لكن "بيركل" تدحرج بعيدًا. هاجمه "جون" مرة أخرى، لكن العميل كان سريعًا جدًّا ووقف على قدميه، ومد يده إلى مسدسه مرة أخرى.

- أهذا هو عشيقك، "فرانكا"؟!

ضحك وهو يخرج مسدسه.

مد "جون" يده نحو مسدسه الذي كان على بعد ثلاثة أقدام، ولكن أصابع "بيركل" كانت مشدودة على الزناد.

ودوت طلقة..

انهمرت الدماء من صدر "بيركل"، سقط السلاح من يده وهو يستدير في ذهول. كانت "فرانكا" تقف خلفه، والدخان يتطاير من مسدس والدها.

- إنه ليس عشيقي، "دانيال"، إنه جاسوس من الحلفاء، وأجل أنت على حق.. أنا أعرف دائمًا ما أفعله.

- أيتها القذرة..

ضغطت "فرانكا" على الزناد مجددًا قبل أن يتمكن من إنهاء آخر جملة تخرج من شفتيه. أصابته الرصاصة في صدره، أسفل النياشين مباشرة. سقط على ركبتيه ثم همد جسده على الأرض.

انفجرت "فرانكا"، تبكي:

- أيها الوغد.. أيها الوغد!

كانت دماء "بيركل" تنساب على الأرض في دائرة قرمزية شبه كاملة، عيناه مفتوحتان، تحدقان في السقف.

- "فرانكا"؟ هل أنتِ بخير؟ هل أصابكِ أذى؟

نهض "جون" واقفًا واستند إلى الحائط بينما يقترب منها. لقد تخشب جسدها، وما زالت تقبض على المسدس الذي تصوبه إلى جثة "بيركل". أخذ "جون" المسدس منها، ألقاه أرضًا وأخذها بين ذراعيه.

قالت وهي تحتضنه بقوة:

- سرعان ما سيأتي "الجيستابو". الآن سيعرفون أنك هنا. لن نخرج من ألمانيا أحياء. لن توصل الميكروفيلم إلى الحلفاء.

- عليهم اللحاق بنا أولًا.

أراحت رأسها على كتفه والدموع في عينيها.

- لقد خاطرتَ بالمهمة بأكملها من أجلي. لماذا فعلتَ ذلك؟

- لا توجد مهمة تستحق أن أتركِ تواجهين مصيرًا كهذا. كنت سأفعل ما فعلته ألف مرة أخرى. لا يمكن أن أسمح بأن يمسكِ إنسان بأذى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر

حدقت "فرانكا" في الجثة التي همدت وسط غرفة المعيشة. شارة النازي على ذراعه مخضبة بالدماء، وزيه العسكري تمزق واستحال قرمزيًّا، تملكتها رغبة في إطلاق النار عليه مرة أخيرة.

تناول "جون" العكاز من على الأرض. وضع ذراعًا على كتفها وقادها إلى المطبخ. كانت ترتجف بينما يساعدها على الجلوس. رفع يده على وجهها، فأسندته عليها، وهي تضع يدها في يده. همست:

- شكرًا.

- لا، الشكر لكِ. أنتِ مَن أنقذني مرة أخرى. أعتذر فقط لأنني استغرقت وقتًا طويلًا للوصول إليكِ.

أخذ "جون" نفسًا عميقًا، ثم أردف:

- أنتِ على حق، رغم ذلك. سوف يأتون للبحث عنه، علينا المغادرة الليلة.

- علينا؟

- لن أتركِكِ وأذهب. لا أستطيع أن أكمل المهمة بدونك.. أنا بحاجة إليك، المهمة تحتاجك.

- ماذا عن ساقيك؟

- أحتاج منكِ إلى تهشيم هذا الجبس. ساقاي قويتان. لم أشعر بأي ألم عندما تشاجرت مع ذلك الحيوان.

- سيبحثون عني الآن. من الأفضل أن تذهب بمفردك. إنهم لا يعرفون أنك هنا.

- أنا مدين لكِ بحياتي. ستأتين معي. لن أغادر بدونك. أفضل الموت على أن أتركك هنا.

أبعدت "فرانكا" يده عن وجهها.

- يجب أن تأخذ سيارتي. أوراقك سليمة. يمكنك محاولة التسلل عبر الحدود بمجرد أن تصل إلى هناك.

- توقفي عن هذا. عليكِ أن تفهمي. لن أغادر هذا المكان بدونك. ولو اضطررت لذلك، فسوف أقتادك عنوة.. لكننا سنرحل معًا.

- حسنًا.. لنذهب معًا.

- جيد، فأنا بحاجة إليكِ.

- وأنا أحتاجك.

- اتفقنا إذا، أول شيء هو التخلص من هذا الجبس، ثم سنقوم بحزم كل ما سنحتاجه في رحلتنا، سيبحثون عنا على الطرق، لذا سنضطر إلى المرور عبر الغابات. إنها فرصتنا الوحيدة.

- في الشتاء؟

- ما من خيار آخر. ومع ذلك، لدينا ميزة أننا نسبقهم. إنها الساعة التاسعة تقريبًا. أعتقد أن من المعتاد أن يسهر صديقنا الجثة هذا خارج منزله طوال الليل دون إخبار زوجته، لذلك من المحتمل ألا تفتقده لمدة اثنتي عشرة ساعة أخرى أو نحو ذلك. لكنني متأكد من أنه أخبر شخصًا ما أنه سيأتي إلى هنا. علينا تنظيف هذا المكان وإخفاء جثته حتى لا يكتشفوا حقيقة ما حدث قبل أن نكون قد رحلنا بعيدًا. نحن على بعد نحو خمسين ميلًا عن الحدود السويسرية. إلى أي مدى يمكن أن نصل على الطرق الخلفية إذا سافرنا خلال الليل؟

- ربما نصبح في منتصف الطريق. سيكون من الصعب تحديد ذلك في الظلام.

- خياراتنا محدودة. وهي مسافة طويلة جدًّا لمن يمشيها. علينا أن نحاول ونصل إلى أبعد ما نستطيع. التضاريس ستكون وعرة. وقد لا نمشي أكثر من عشرة أميال في اليوم.

تناول "جون" يديها، وهو يردف:

- ستكون مهمة صعبة للغاية، "فرانكا"، لكن يمكننا القيام بها معًا.

- أعرف مكانًا يمكننا أن نصل إليه، ومن ثم يمكننا التوقف لبعض الوقت.

- "فرانكا"، لا يمكننا الوثوق بأحد.

- يعيش عمي الأكبر "هيرمان" في قرية تسمى "بورشاو". على بعد خمسة وعشرين ميلًا أو نحو ذلك جنوبًا من هنا، بيننا وبين سويسرا.

هز "جون" رأسه في عدم اقتناع.

- اسمعني، إنه في الثمانينيات من عمره ولم يغادر المنزل أبدًا تقريبًا. لم أره منذ سنوات، لكنه لا يحب النازيين، مات أبناؤه في الحرب الأخيرة. سنحتاج إلى مكان نرتاح فيه لبضع ساعات. لا يمكننا قضاء الليل والبدء في المشي في الصباح، خاصة مع حالة ساقيك.

- سوف أفكر في الأمر.

- سنقود عبر كل الطرق الخلفية، وفي مسار واسع بما يكفي للسيارة، يمكننا الوصول إلى هناك في الصباح ومن ثم ننام.

- ماذا ستقولين له؟

- لقد ضللت الطريق في أثناء التنزه وأحتاج إلى مكان للراحة لبضع ساعات. لن يطرح أسئلة.

- وإن فعل؟

- سأتحدث معه أولًا. إذا كان يشك في أي شيء، فسوف نمضي.

ذهبت "فرانكا" إلى غرفته. كانت ألواح الأرضية موضوعة عبر الفتحة الموجودة على الأرض حيث قفز "جون". أحضرت له عكازه الآخر، وفي طريق عودتها إلى الغرفة مرت بجثة "بيركل". عملت "فرانكا" في صمت، مدركة لمدى أهمية كل ثانية تمر. قطعت الجبس عن ساقيه، مستخدمة المقص. بدت ساقاه نحيفتين مقارنة ببقية جسده الآن، فقد ضعفت عضلاته. كان واقفًا.

- أفضل من أي وقت مضى.

لكنها لم تكن مقتنعة. تحتاج ساقاه إلى أسبوع آخر، لكن الوقت ينسل مثل ماء بين أصابعها.

شعر "جون" أنه طفل في تلك الثواني القليلة الأولى، حيث كان ينعم بحرية الحركة التي منحتها له إزالة الجبيرة. أعاده مشهد جثة "بيركل" الملطخة بالدماء إلى الواقع.

ذهب "جون" إلى غرفة النوم، ثم مد يده من خلال ألواح الأرضية والتقط حقيبة ظهره. كان بحوزته بطانيات وسكين وأعواد ثقاب وبوصلة وكمية ذخيرة كافية. كان زي الطيار في قلب الحفرة، فقام بطيه ووضعه في قاع الحقيبة. كشف سحاب مخفي عن طية من الأوراق؛ هويته الألمانية المستعارة.. عامل رحال. دس "جون" الأوراق في جيوبه، رغم أنه كان يأمل ألا يضطر لاستخدامها أبدًا. سألته "فرانكا":

- معك أوراق؟

- لن أستخدمها، لكن من الآمن إحضار كل ما يشير على وجودي هنا معك.

- ماذا سنفعل بشأن "بيركل"؟

بدا من الغريب الإشارة بالاسم إلى الجثة البشعة التي كانت ملقاة في منتصف الغرفة. كان من الصعب أن تتخيل أنه كان في يوم من الأيام صديقها، زعيم شباب "هتلر" الذي كان مثار إعجاب جميع الفتيات.

- علينا إخفاء الجثة بأفضل ما نستطيع.

- في الخارج؟ هل تريد دفنها؟ من المرجح أن الأرض لا تزال متجمدة.

- ليس لدينا وقت لذلك. نحن بحاجة إلى المغادرة في أقرب وقت ممكن.. ساعديني وحسب.

قادها "جون" إلى غرفة المعيشة.

- دعينا نضعه تحت ألواح الأرضية. ستنبعث منه رائحة كريهة في المكان، لكننا سنكون قد رحلنا في ذلك الوقت.

نظر "جون" إلى "فرانكا" وعرف أنه ما كان يجب أن يقول ذلك.

- إنه المكان الوحيد الذي يمكننا إخفاءه فيه بسهولة. إذا بحثوا سريعًا في أرجاء الكوخ، فقد لا يجدونه. نحتاج فقط بضعة أيام، وإخفاء جثته يمكن أن يمنحنا بعض الوقت.

تحاشت "فرانكا" عيني "بيركل" المفتوحتين، لكنها شعرت أنها تلاحقها في كل حركة وتتبعها في جميع أنحاء الغرفة.

كانت جثة "بيركل" لا تزال دافئة عندما رفعت قدميه. ورفعه "جون" من ذراعيه. كان بإمكانها أن ترى "جون" يعاني الألم وهو يحمل ثقل "بيركل". تدفق الدم على الأرض، تاركا أثرًا في غرفة النوم. كانت الحفرة جاهزة. ألقيا بالجثة فيها. وأخذت معطف "بيركل" وألقته في الحفرة فوق الجثة. لم تشعر بأي حزن، ولا حتى لأجل زوجته وأطفاله. سيكونون أفضل حالًا في عالم بدونه. ومنعت نفسها من البصق على جثته. شعرت بالارتياح لأنه مات، ولأنه لن يؤذي أي شخص مرة أخرى.

أشار إليها "جون" كي تساعده، وبعد أن أعادا ألواح الأرضية، دفعا السرير فوقها مرة أخرى. وذهبت "فرانكا" إلى المطبخ لإحضار دلو من الماء والصابون، وأمضيا العشرين دقيقة التالية في تنظيف الأرض حتى ذهب كل أثر للدم، وتطهر المكان من رائحة القتل. لا أحد يهتم بأنها تصرفت دفاعًا عن النفس. سرعان ما سوف تصبح "فرانكا جربر" عدوة الشعب الأولى، وسيطلقون كلاب "الجيستابو" في أعقابها. كانت الحدود السويسرية خلاصهما الوحيد.

تحدثا قليلًا في أثناء التنظيف، ولكن "جون" أخذها إلى المطبخ وأجلسها إلى الطاولة حتى تهدأ أعصابها.

- نحن بحاجة إلى التخلص من سيارته بطريقة ما.. هل هناك أي مكان يمكننا إخفاءها فيه؟ أي ممر أو غابة صغيرة قريبة حيث يمكننا تركها فلا يعثرون عليها قبل أن نبتعد عن المنطقة؟

- هناك أماكن مناسبة لذلك.

ألقى "جون" مفاتيح "بيركل" على الطاولة.

- سأتبعك في سيارته.

ارتديا معطفين وخرجا. رفعت "فرانكا" وشاحها على وجهها. حتى لو توقفا في منزل عمها، فسيتعين عليهما النوم في الخارج لليلة واحدة على الأقل. لم يتساقط الثلج لمدة أسبوع أو أكثر، وصار النهار دافئًا، لكن برد الليل لا يزال قاسيًا. تصاعدت أنفاس "فرانكا" بيضاء أمامها وهي تنظر إلى النجوم المتلألئة فوقهما.

بحث "جون" في سيارة "بيركل".

- شكرًا لك، هير "بيركل".

- ماذا وجدت؟

- خيمة، إنها صغيرة، لكنها ستحمينا من المطر. ومجموعة إسعافات طبية. نستطيع فعلها.. سنفعلها.

بعد أن قامت بوضع الخيمة وصندوق الإسعافات الطبية في سيارتها، ابتعدت "فرانكا" عن الكوخ. انبعث الضوء الأبيض من المصابيح الأمامية، ليضيء شيئًا من معالم الطريق والأشجار المحيطة به. اقترح "جون" إطفاء الأنوار في أثناء القيادة لكنه وجده اقتراحًا عديم الجدوى؛ لا بد أنه أدرك أن ذلك سيكون بمنزلة انتحار. كان من المستحيل تقريبًا التمييز بين مكان وآخر في ظلام الليل. وكانت الطرق خالية، ولكنها أنسب للزلاجات منها للسيارات. لم تجرؤ على التحرك بسرعة تتجاوز عشرين ميلًا في الساعة وهي تبحث في ذهنها عن أماكن مناسبة للاختباء، تعرفها منذ أن كانت طفلة.

استغرقا خمس دقائق للوصول إلى المكان الذي تتذكره، وهو طريق لا يؤدي إلى أي مكان، ربما إلى منزل لم يُبنَ من الأساس. توقفت في النهاية وطلبت من "جون" القيادة لمسافة بضع مئات من الأمتار، ثم سارت وراءه للمساعدة في وضع الأغصان وأوراق الشجر فوق السيارة. كان من الصعب تحديد مدى نجاحهما في إخفاء سيارة "بيركل" "المرسيدس"؛ فالليل يخفي كل شيء تقريبًا، لكن لم يكن لديهما سوى القليل من الوقت. يجب أن يتحركا. كانا على بعد ميل من الكوخ، وأقرب إلى القرية، لكن لم يأتِ أحد إلى هنا. ليس في الشتاء على أي حال. عادا إلى السيارة في صمت، وكانا قادرين فقط على تحديد مكان وقوفها. حدقت "فرانكا" في الظلمة وراء صف الأشجار. وفجأة، أطلق "جون" سبابًا ساخطًا وهو يضرب جبهته بيده:

- اللعنة.. كان يجب أن نخفي جثته في السيارة. لم أكن أفكر بذهن صافٍ وسط كل هذا التوتر.

- هل يمكننا العودة وإحضار الجثة؟

- فات الأوان، سنضيع الكثير من الوقت.

- هل أنت متأكد من أن وجود الجثة بالتأكيد تحت ألواح الأرضية في الكوخ أفضل من وضعها في حقيبة سيارته؟ ثم إن الكوخ بعيد جدًّا.

- علينا أن نأمل ذلك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة تقريبًا عند عودتهما. حملت مصباح الزيت فوق الأرض بحثًا عن آثار للدم. كان "جون" في المطبخ. جلست إلى جواره، بينما الخريطة على الطاولة.

- ما مدى معرفتك بالمنطقة الواقعة جنوب المكان؟

- لا أعرف سوى القليل. اعتدنا على المشي لمسافات طويلة هناك عندما كنت مراهقة، ولكن ليس في الليل أبدًا، ولم يحدث أبدًا ذلك خلال فصل الشتاء.. إنها

منطقة منحدرة بها غابة كثيفة.

قال "جون" بينما كان يمر بإصبعه نحو الحدود السويسرية:

- من الأفضل الاختباء هنا.

كانت البقعة على الورق تبعد نحو خمسة وأربعين ميلًا عبر الغابة إلى أقرب نقطة.

- تمتد المنطقة الحدودية من الحدود لمسافة خمسين ميلًا في كل الاتجاهات. الغابة هي فرصتنا الواقعية الوحيدة. هناك الكثير من الدوريات على الطرق والسكك الحديدية حول المنطقة الحدودية. لن نتمكن من التوجه نحوها أبدًا.

- ماذا عن الحدود نفسها؟

- الوصول إلى الحدود سيكون إنجازًا حقيقيًّا، لكنه لن يكون سوى بداية مشكلاتنا؛ أقام النازيون صفًّا من عشرات مراكز التنصت على بعد خمسة أميال من الحدود. يقوم حراس مع كلاب بدوريات بينها. وتمتلئ الطرق والقرى هناك بالجنود، وعلى الحدود السويسرية نفسها يتمركز الحراس كل مائتي ياردة مع أوامر توقيف كل مَن يرونه في النهار وإطلاق النار دون سابق إنذار عليه في الليل.

- لهذا السبب كنت ستأخذ "هان" عبر الجبال جنوب "ميونيخ".

- نعم، لم يكن الوصول إلى هناك بالمهمة السهلة، لكن الممرات الجبلية توفر فرصة ليست لدينا هنا.

- ولا يمكننا الوصول إليها من هنا لأنني سأكون مطلوبة بتهمة القتل عما قريب.

- بالضبط، يمكننا أن نحاول القيام بذلك قبل أن يعثروا على جثته، لكن يجب أن نفترض أنه أخبر شخصًا ما عن مكان وجوده.. وعندئذ ستكونين مطلوبة للاستجواب في وقت ما غدًا. وهكذا فلن نتمكن من الوصول إلى هناك. الغابة هي فرصتنا الوحيدة.

- وما إن نصل إلى الحدود؟

- يكون قد حالفنا الحظ. نتسلل، ونصبح أحرارًا.

- الحظ؟ أهذه هي خطتنا؟

- هذه ليست خطتنا، لكننا سنحتاج إلى قدر كبير من الحظ حتى ننجح.

- ولكن هل لدينا نقطة بعينها نتوجه صوبها؟

- أجل، بالقرب من "إنزلنجن"، ولكن دعينا نقلق بشأن البقاء على قيد الحياة لفترة كافية للوصول إلى هناك.

- لا يا "جون". سيكون أسهل بكثير بالنسبة لك إذا غادر كل منا وحده. يمكنك أن تشق طريقك إلى الحدود في القطار. فمعك أوراقك.

- حسنًا إذا، اجمعي قدر ما نستطيع حمله من الطعام، الأشياء الخفيفة؛ الخبز والجبن، قومي بتعبئة أكبر قدر ممكن منها، وبعد ذلك، نأخذ بعض المعلبات. أحضري الماء، وفتاحة العلب أيضًا. لديَّ أعواد ثقاب، وأحجار صوان، وسآخذ من سكاكين المطبخ. لديَّ حقيبة نوم، لكنني أريدك أن تحضري بطانيتين على الأقل. ارتدي معطفك الثقيل وقبعة. أحضري أي ذخيرة احتياطية لديكِ للمسدس، وبقدر ما يمكنك وضع يديك عليه؛ قد نكون قادرين على رشوة أحد الحراس للسماح لنا بعبور الحدود إذا حالفنا الحظ.. ما كمية البنزين الموجودة في السيارة؟

- نصف الخزان.. ربما؟

- كافية، نحن بحاجة إلى الاقتراب من الحدود قدر الإمكان دون استخدام أي طرق رئيسة. ستكون الطرق العادية مليئة بالحراس، حتى في الليل. علينا أن نتجنب التوقيف بأي ثمن، خاصة عندما يدركون أن "بيركل" مفقود. لا تحضري مستلزمات نظافة شخصية أو أكثر من طاقم ملابس واحد. لا نريد أي حمل زائد. خذي فقط ما يمكنك حمله، بدءًا من الطعام والماء.

طوى "جون" الخريطة ونهض.

- نستطيع فعلها.

مد يده لها، فتناولتها.

- ليس لدينا وقت نضيعه. هل يمكننا الخروج من هنا في غضون خمس عشرة دقيقة؟

- يمكن هذا.

شعر "جون" بضعف في ساقيه. هذا شعور لم يختبره من قبل. تساءل عما إذا كان سيتمكن من الركض إذا احتاج إلى ذلك، ناهيك عن القيام برحلة عبر الغابات المليئة بالثلوج. كان دائمًا قادرًا على الاعتماد على جسده، سواء كان ذلك لرمي كرة سلة للفوز بمباراة أو لتسلق جدار في التدريبات الأساسية. كان يأمل ألا يخذله الآن، وهو في أمس الحاجة إليه، خاصة وأن هناك شخصًا آخر يعتمد عليه وأن المهمة نفسها تعتمد عليه. راح إلى غرفة النوم، مستمتعًا بشعور الجلوس على السرير، مدركًا أنها ستكون آخر مرة يشعر فيها بالراحة لفترة من الوقت. ألقى الميكروفيلم في الجيب السري في حقيبة الظهر وأغلقه مرة أخرى. مسدساه نظيفان، دس أحدهما في جيب معطفه، والآخر في حقيبته. نهض "جون" جاهزًا. نظر في أرجاء الغرفة للمرة الأخيرة، ثم رمق أسفل ألواح الأرضية، مفكرًا في جثة ضابط "الجيستابو" القابعة تحتها. بدت الغرفة نظيفة؛ لا شيء يدل على ما جرى هنا في حال كان التفتيش سريعًا. أخذ مصباح الزيت معه، تاركًا وراءه الظلام.

قامت "فرانكا" بتعبئة الطعام الخفيف في حقيبتها، وتركت المعلبات وزجاجات المياه على طاولة المطبخ. وضعها "جون" في حقيبته، وشعر بأن وزنها تضاعف. ولكنها لن تصل أبدًا إلى ثقلها في "جوادالكانال"، أو حتى ثقل حقيبة المهام العسكرية الأساسية. يمكنه أن يحملها.

كانت السماء صافية وهو يخطو إلى الخارج. لا توجد غيوم وهو ما يعني عدم تساقط ثلوج، ولكن هذا يعني كذلك أنهما مكشوفان. هو في ألمانيا منذ قرابة ستة أسابيع، ولم يتحدث إلا إلى شخص واحد فقط، وبالكاد غادر هذا الكوخ. لقد حان الوقت لإكمال مهمته.

طوت "فرانكا" ملابسها ووضعتها في حقيبة ظهر قديمة لم تمسها منذ عشر سنوات أو أكثر. يداها لا تزالان ترتعشان، ربما مما حدث، أو ربما عند التفكير فيما سيحدث. من الصعب معرفة أين انتهى شعور وبدأ آخر. اجتازت الطريق مرة أخرى في عقلها. كانت تتزلج على تلك الطرق الخلفية عندما كانت مراهقة خلال الشتاء وتتسلقها في أيام الصيف الحارة. ولكنها لم تقد سيارة عبرها قط. لم تكن طرقًا بقدر ما كانت مجرد ممرات عبر الغابة. لم يكن لديها أدنى فكرة عن المدى الذي يمكن أن يصلا إليه، لكنها عرفت أنه ليس لديهما خيار آخر. لن يظهر "الجيستابو" أي رحمة ولن يتوانى عن قتلهما.

الحقيبة جاهزة، ثبتتها على كتفيها. ثقيلة، لكنها حملت ما هو أثقل. وبنظرة أخيرة حول الغرفة، أدركت أنها لن تراها مرة أخرى على الأرجح. أصبحت الأشياء في هذه الدنيا ثمينة فجأة. أصبح ورق الحائط الباهت الآن رائعًا، وكل قطعة أثاث حارسة لذكرى غالية، وفرشاة شعرها القديمة على خزانة الملابس تحولت إلى إرث عائلي يجب الاعتزاز به ونقله إلى الجيل التالي. هذا هو المكان الذي أمضوا فيه ذلك الصيف الأخير مع والدتها.

كثفت غرفة المعيشة من قسوة المشاعر التي تعتريها الآن. رأت والدها جالسًا على الكرسي بالقرب من المدفأة، ووالدتها تضحك على إحدى نكاته المبتذلة. و"فريدي".. كان "فريدي" يلعب بقطاره على الأرض، وساقاه ما زالتا قويتين بما يكفي لأن يمشي، وقلبه قوي، كما كان حتى النهاية. خطت "فرانكا" خطوة نحو الباب، وشعرت بالنسيم البارد على وجهها. "جون" يقف بجانب السيارة. تعلم أن لديها ثوانٍ فقط. ظلت البقع الداكنة على الحائط باقية، ودقت الساعة لمرة أخيرة. الحادية عشرة. عادت إلى خزانة الكتب. كانت الصور في صندوق على الرف السفلي. فكرت في أخذها لكنها صرفت النظر عن ذلك، مدت يدها لتلتقط عشرات الصور بالأبيض والأسود لعائلتها التي كانت قد رفعتها عن الجدران. ألقت "فرانكا" نظرة أخيرة حولها ثم خرجت.

جلس "جون" في المقعد إلى جوار "فرانكا" التي جلست خلف عجلة القيادة. تعثرت السيارة عدة مرات قبل أن تنطلق. شقت "فرانكا" طريقها إلى أسفل التل، وقدمها على المكابح في أثناء ذلك. كان ضوء السيارة يتدفق عبر الظلام، ليضيء الطريق ربما لعشرين ياردة أمامهما. وهبطت السيارة أسفل التل.

- هل تعرفين أي طريق يجب أن نسلكه؟

- بالنسبة للأميال الأولى.. لكن عليك مساعدتي بعد ذلك.

أخرج "جون" الخريطة ومصباحًا صغيرًا من جيبه. أضاء الورقة في دوائر من ضوء أبيض ممتزج بالأخضر يمررها عبرها. كان الإرهاق يتصاعد بداخلها، لكن "فرانكا" تجاهلته. النوم رفاهية لا يستطيعان تحمل ثمنها.

استمرا في صمت لساعات، والسيارة تسير بسرعة أقل من عشرين ميلًا في الساعة. حدق "جون" عبر النوافذ في كل اتجاه، وبيده مسدسه. تمتد المسارات التي سلكاها في اتجاهات عامة، وأحيانًا تتعرج إلى نقطة توقف حيث تظهر الأشجار مرة أخرى، وكان عليهما أن يتراجعا، غير قادرين على الاستدارة في أكثر من مناسبة. بدت الغابة مصممة على استعادة الطرق التي تتعدى عليها. كانت الطرق التي تذكرتها عندما كانت طفلة مسدودة الآن. بدا العالم البشري وكأنه ينحسر بعيدًا بينما يغوصان في الغابة. كان شعورًا رائعًا.. شعور الهرب.

حطمت "فرانكا" جدار الصمت عندما وصلا إلى ما بدا وكأنه طريق مسدود آخر. بدا أن سواد الأشجار يلفهما. والساعة تقترب من الخامسة صباحًا.

- هل يمكننا الذهاب أبعد من ذلك؟

- ربما، إذا عدنا. الخريطة غير واضحة.

- أين نحن الآن؟

- أعتقد أن "بورخاو" أمامنا، أسفل التل.

مرت عدة سنوات منذ أن زارت عمها الأكبر هنا. في السنوات الماضية، كانت تصيح بتحياتها للمزارعين الذين يعيشون هناك في أثناء مرورها على دراجتها، لكن النازيين قضوا على أي شعور بالثقة بين الناس الذين زعموا أنهم يحمونهم. الثقة تخلق حرية التعبير، وهذا أكثر ما يخشاه النازيون.

- إنها صغيرة. ليست سوى عدد قليل من المنازل المتناثرة. هل تعتقدين أن هناك أي حراس هناك؟ أي وجود عسكري؟

- من الصعب أن أحدد ذلك. نحن في عمق المنطقة الحدودية.. هذه المنطقة بأكملها تزخر بالجنود.

كان "جون" قادرًا بالكاد على فتح الباب. الأشجار على بعد بوصات من السيارة في كلا الجانبين. من المحتمل أن المسار الذي كانا يسلكانه لم يشهد سيارة منذ سنوات، هذا إن حدث ذلك من الأصل. كانا يتنقلان عبر صف الأشجار حتى صارا يطلان على المنازل في الأسفل، على التلال. أضاء القمر والنجوم الأسطح المائلة. لم يكن هناك شيء يتحرك، ولا أضواء من البيوت تخترق الظلام. استدار وشق طريقه عبر الثلج الذي وصل سمكه إلى ست بوصات.

أوقفت "فرانكا" السيارة وجلست في المقعد المجاور لمقعد القائد.

عاد "جون" مرة أخرى.

- لا شيء يتحرك هناك. لا أضواء ولا حراس. يبدو أن الأجواء آمنة.

بدت ملامح وجهها غائمة في الظلام.

- هل يمكننا الوثوق في عمك؟ لا يمكننا التهاون في ذلك.

- "هيرمان" لا يغادر المنزل أبدًا، وأنا أعلم أين يترك مفتاحه الاحتياطي.

- متى كانت آخر مرة تحققتِ فيها من ذلك؟

- عام 1938، وأنا أضمن لك أنه لا يزال موجودًا في مكانه. سأتحدث معه في الصباح. وأنت تبقى مختبئًا. لا نريد أن يعرف أحد أنك معي، حتى العم "هيرمان".

ترجلا من السيارة. أمضيا بضع دقائق في تغطيتها بأغصان وأوراق الشجر، حتى كان من الصعب تمييزها في الظلام. ولكنهما يعرفان أنه إذا تصادف مرور شخص ما في الطريق فسوف يراها. حملا الحقائب وتحركا في صمت متجاوزين صف الأشجار، وفي الثلج.

تقدمته "فرانكا" وتوقفت عند قمة التل المطل على القرية الصغيرة. جلس "جون" بجانبها. الليل لا يزال كثيفًا من حولهما، ولا حركة في القرية. كانت "بورخاو" كما تتذكرها، بعيدة عن براثن النازية. شجعها أن تلحظ عدم وجود أعلامهم وملصقاتهم. الأمر كما لو أنهم لا يعرفون شيئًا عن هذا المكان. عاش هنا خمسون شخصًا وقت أن زارتها آخر مرة، وتشك في أن كثيرين قد غادروها. طلبت من "جون" أن يتبعها عندما بدأت في النزول من التل. وصل الثلج إلى ركبتيهما. استغرق الأمر منهما عدة دقائق لقطع مسافة مائتي ياردة أو نحو ذلك.

نبح كلب على البعد عندما وصلا إلى أسفل التل. انحنى جسد "جون" وهو يتقدم إلى الأمام. وقلدته "فرانكا" نحو أسفل التل إلى منزل العم "هيرمان". توفيت العمة "لوت" في العشرينيات. أخبرها والدها أنها ماتت كسيرة القلب، من الحزن على مقتل أبنائها في الحرب العظمى.

وضعت "فرانكا" إصبعها على فمها في إشارة له أن يصمت، وهي تمد يدها تحت إناء زهور إلى يمين الباب الأمامي الخشبي. أومأ "جون" إليها، وأدخلت المفتاح في القفل. فُتح الباب بصريرٍ خفيف. توقفت "فرانكا" لبضع ثوانٍ لتستمع. كان المنزل تمامًا كما تتذكره، متهالكًا وقديمًا. قادته "فرانكا" صعودًا في الدرج. حدقت فيهما صورة العمة "لوت". السجادة على الدرج رثة، وقد بلي قلبها من أثر ألف قدم مرت عليها. ظلا على جانب الدرج، ولكنه ما زال يصدر صريرًا. كان باب غرفة نوم "هيرمان" أعلى الدرج. بإمكانهما سماع صوت شخير العجوز بوضوح. قادت "جون" إلى ما بعد غرفة النوم ونزلا إلى باب في نهاية الرواق. وضعت يدها على مقبض الباب وكأنه قد يتحطم تحت لمسها وفتحته بالحرص نفسه. كانت الغرفة متربة ولكنها نظيفة، وما زال السرير مهندمًا. همست "فرانكا":

- كانت هذه غرفة نوم عمي "أوتو". يمكننا أن نرتاح هنا بضع ساعات.

- ماذا عن عمك الأكبر؟

- أشك في دخوله هذه الغرفة منذ خمسة عشر عامًا. سأتعامل معه. نحن بأمان هنا.

خلع "جون" الحقيبة عن ظهره ووضعها على كرسي في الركن. كانت الستائر منسدلة، ولم يكن نور الصباح قد بزغ بعد. دفع الستائر إلى الوراء وحدق في المنازل في الأسفل. لم يكن هذا ما يريده، لكن عليهما أن يرتاحا. لن يكون هناك مكان أكثر أمانًا من هذا. أمامها رحلة طويلة إلى الحدود. ضعف جسده بتأثير الرقاد لأسابيع في الفراش، واعتاد الإرهاق. طلب من "فرانكا" أن تنام على السرير ورقد هو على الأرض.

- لا تكن سخيفًا.

- لن يكون ذلك مناسبًا. أنا مرتاح على الأرض.

- نحن بحاجة إلى النوم. السرير هو أفضل مكان لنوم مريح.

خلعت حذاءها واستلقت على السرير.

- تعالَ.

قالتها وهي تبتعد إلى طرف السرير. شعرت بوزنه فوق الفراش، وظلت مستلقية وعيناها مفتوحتان لعدة ثوانٍ قبل أن يهدئها صوت أنفاسه الصامت ويشجعها على النوم.

جاءها "بيركل" في أحلامها، وأصابعه تلتف حول حلقها، وجسده ثقيل على جسدها، والغضب في عينيه، فأجبرت نفسها على الاستيقاظ. لا يزال "جون" نائمًا بجانبها. طلع النهار والسماء بالخارج رمادية اللون. سمعت "فرانكا" صوت عمها وهو يتجول في أرجاء المنزل في الطابق السفلي. أخبرتها الساعة المعلقة على الحائط أن الوقت بعد الظهر بقليل. ناما سبع ساعات، فترة أطول مما أرادا. سوف يتلاشى ضوء النهار في غضون ساعات قليلة، وسيكون السفر عبر الغابة ليلًا أكثر تحفظًا وأشد خطورة. لا بد لها في البداية من لقاء "هيرمان"؛ ليس من باب الأدب فحسب، ولكن لأنه لا يزال لديه بلا شك تلك البندقية التي كان يلوح بها عند أول علامة على وجود مشكلة. وسوف يكون وجود دخلاء في منزله مبررًا منطقيًّا ليستخدمها.

سوف يحتاج "جون" إلى كل دقيقة نوم يمكنه أن ينعم بها. لن يفيده العناد ولن يصل به إلى حد بعيد. تركته نائمًا وهي تخرج من باب غرفة النوم. كان "هيرمان" جالسًا إلى طاولة المطبخ، يتناول غداءً من الحساء والخبز. وجهه متغضن مثل ورقة تكورت. شاربه أبيض، ورأسه كثيف الشعر كما هو. سقطت ملعقته من يده جزعًا لما رآها.

- "فرانكا"؟ ما الذي تفعلينه هنا؟

- أنا آسفة يا عمي، كنت أتنزه وضللت الطريق. كنت بحاجة إلى مكان ما لأرتاح فيه لبضع ساعات، وأعلم أنك لن تمانع إذا دخلت إلى هناك لأنام.

قال وهو يجد صعوبة في النهوض من مقعده:

- بالطبع لا.

- من فضلك، لا تنهض من أجلي.

جلست "فرانكا" بجانبه. قدم لها الطعام وتجاهل أي محاولة قامت بها لرفض ذلك. وبعد دقيقتين، كانت جالسة إلى الطاولة، تأكل حساء اللفت الرقيق الذي أخبرها أنه يأكله معظم أيام الأسبوع.

- آمل ألا تمانع في راحتي هنا لبضع ساعات.

- بالطبع لا، لقد مرَّ وقت طويل منذ آخر مرة رأيتك فيها.

تحرك العجوز إلى القدر، وملأ طبق الحساء، ثم جلس إلى الطاولة مرة أخرى.

- أسفت جدًّا لوفاة والدك. هذه الحرب تزداد فظاعة كل يوم. لقد سمم هذا الجنون النازي أمتنا وأدى إلى مقتل عدد لا يحصى من الأبرياء. سمعنا أن الجنون الذي دار قبل ثلاثين عامًا كان حربًا تنهي كل الحروب، لكن ها نحن ذا في وطيسها مرة أخرى، والفارق أنها أسوأ بكثير هذه المرة.

- لا يبدو أنكم تأثرتم بشدة بالحرب هنا.

- ربما لا.

- هل موقف جيرانك مماثل لموقفك؟ أقصد تجاه النازيين؟

هز "هيرمان" كتفيه.

- مَن يعرف؟ لم نناقش ذلك. لكن لديَّ جيران لطفاء؛ جارتي "كارولين" تتصل بي كل يوم لتتفقد شئوني. لقد فقدت ابنيها في الجبهة. ما من مهرب حقيقي من هذه الحرب.. ولا حتى هنا.

تناول الحساء، قبل أن يتكلم مرة أخرى.

- في أي سنة ولدتِ؟ ذكريني.

- 1917.

- أتذكر أنني احتضنتك عندما كنتِ طفلة. كان لديك الشعر الأشقر المجعد الجميل نفسه في ذلك الوقت.

وضع ملعقته جانبًا وحدق في الخواء أمامه.

- كان ذلك في العام الذي ساد فيه الجوع الشديد؛ المجاعة التي تسبب فيها حصار الحلفاء لألمانيا.

- سمعت بها.

- حاصرنا البريطانيون في بحر الشمال وحاولوا تجويعنا. ومات الناس. كان لدينا ما يكفي من الطعام للبقاء على قيد الحياة، لكننا كنا جميعًا نحاف مثل الكلاب السلوقية.

مات جدك من الزحار، وخالتك الكبرى من السل، بعد أن أرهقها سوء التغذية. كل عائلة تأثرت بالجوع الشديد، بجنون القيصر، بالفرنسيين والبريطانيين، وبالشوفينية السخيفة التي دمرت جيلًا، والآن هم مصممون على تكرار ذلك.

جلسا في صمت لبضع ثوانٍ.

- سأغادر بعد الغداء يا عمي.

- لن تبقى لفترة أطول؟ كانت غيبتك طويلة جدًّا.

- لا أستطيع، كان من دواعي سروري أن أراك.

- وكان من الرائع رؤيتك. أنا سعيد جدًّا لأنك زرتني.

- وأنا أيضًا.

أصدر الكرسي صريرًا على الأرضية الحجرية عندما نهضت. عرفت "فرانكا" أنها لن ترى العجوز مرة أخرى. وقفت تحتضنه في منتصف المطبخ، ولم تتركه إلا عندما تذكرت "جون" في الغرفة بالطابق العلوي.

كان مستعدًا للذهاب، واقفًا بجانب الباب عندما عادت إلى غرفة النوم.

صرفت "فرانكا" انتباه عمها بأن طلبت رؤية المنظر من الفناء الخلفي، بينما تسلل "جون" إلى الطابق السفلي وخرج من الباب الأمامي. قادها "هيرمان" إلى المنزل مجددًا بعد بضع دقائق. احتضنته، مدركة أنها آخر مرة تحتضن فيها فردًا من عائلتها. ستصبح ذكريات العائلة العزيزة عما قريب حكرًا عليها وحدها. وستكون الوحيدة القادرة على وصف روح الدعابة لدى والدتها، أو صوت والدها الحلو، أو الحب الذي أبداه "فريدي" لكل شخص قابله. سوف تتلاشى بقايا ذكريات ماضيها في غياهب النسيان. ودعها "هيرمان" ملوحًا بيده عاليًا وهي تغلق الباب خلفها.

تبعت "جون" وتواريا خلف منزل مجاور. ظهر صف أشجار. لا يوجد طريق آخر. تحركا في صمت أعلى التل والغابة. تحفهم الأشجار من كل جانب. تلاشت شمس الشتاء القاتمة خلف الفروع المغطاة بالثلوج، وتحركا في عتمة منتصف النهار. غطاء الثلج على الأرض بعمق قدم. تمنت "فرانكا" لو أنها أحضرت حذاءها الثلجي، بينما كان حذاء المشي السميك الخاص بها يتعثر عبر الثلج. وجد "جون" أغصانًا تصلح لربطها في الأحذية والمشي بها لمسافات طويلة، واستمرا بينما البرد ينهشهما، والعرق يتصبب على ظهريهما. أصر "جون" على أن يلزما الصمت المطلق في أثناء حركتهما، لذلك لم يتحدثا.

استحضر "جون" كل سيناريو محتمل تدرب عليه، محاولًا تذكر كل كلمة نطق بها مدربوه. بحث عن التعامل المناسب مع هذا الوضع؛ مهمة الوصول إلى سويسرا على قيد الحياة. يجب أن يصل إلى هناك. تذكر التعليمات الخاصة بالتسلل عبر الحدود. هذا ممكن. لم تكن هناك أسلاك شائكة، ولا جدار.. مجرد صف من أعمدة التنصت. والحراس بشر. ينامون. يقرؤون الرسائل التي تصلهم من أهلهم على ضوء الشموع في وقت يفترض فيه أن يقفوا للمراقبة. يدردشون ويمزحون ويأكلون

في أثناء أدائهم لواجبهم. ستكون هناك ثغرات. سيعرف من الخريطة بمكان وجودها. هناك عدد كبير من الرجال الذين تمكنوا من الهرب، ومع هذا الضغط على آلة الحرب الألمانية، ربما قرروا تخفيض أعداد حرس الحدود؛ فهم بحاجة إلى كل الرجال الذين يمكنهم الحصول عليهم لمحاربة السوفيت على الجبهة الشرقية ولصد تقدم قوات الحلفاء من الغرب.

راقبت "فرانكا" ظهر "جون" بينما يتقدم، تحركاته مدروسة، من الصعب القول بما إذا كانت ساقاه تؤثران عليه أم أنه كان يسير على قدميه من دون مشكلات. يستند على عصي المشي التي صنعها في أثناء تحركه. حاولت أن تتخيل ما يكمن عبر الحدود، لكن ذلك أبعد ما يكون الآن. الشيء الوحيد المهم هو الوصول إلى هناك. لم يكن هناك مجال للتردد الآن. فرصتهما الوحيدة هي عبور الحدود قبل أن يعثر "الجيستابو" على جثة "دانيال" المتحللة تحت ألواح الأرضية في كوخ والدها. بمجرد العثور عليها، سينتشرون في كل مكان، وستكون محاولة العبور إلى سويسرا شبه مستحيلة.

كل خطوة مهمة. كل خطوة في درب طوله عشرين ميلًا.

فحص "جون" بوصلته. السماء غير مرئية تقريبًا. الغابة هي كل ما يمكنهما رؤيته. ساقاه تؤلمانه، لكن من الصعب معرفة ما إذا كان ذلك بسبب مجهود اليوم أو لأنهما لم يتعافيا بالكامل بعد.. ربما كلاهما.

توقف "جون" عند جذع شجرة ميتة منذ زمن طويل في انتظارها. رفعت وشاحها، ووجد نفسه يحدق في وجهها كما لو كان جوهرة ثمينة. يجب أن تظل المهمة على رأس أولوياته، لكن أفكار إعادتها إلى وطنه مستمرة في ذهنه. همس لها:

- إنها الخامسة تقريبًا.

رغم أن كل علامات الحياة البشرية قد تبددت من حولهما.

- سيحل الظلام قريبًا. أقدر أننا قطعنا حوالي ستة أميال منذ أن بدأنا. كيف تشعرين؟

- ما زلت قوية.

- أعتقد أننا يجب أن نستمر لساعتين أخريين على الأقل، التحرك ليلًا خطير، لكن ليس لدينا خيار؛ فلربما اكتشفوا جثة "بيركل" ويقومون بنشر القوات للبحث عنا الآن.

- معك حق.

- احذري، كوني حذرة حيث تخطين، وسنحاول العثور على كهف خمس نجوم للمبيت فيه.

- فكرة رائعة.

- لا تقولي إنني لا آخذك إلى أفضل الأماكن.

- أنت تجيد بالتأكيد بث البهجة في أي فتاة ترافقك.

- وإذا لم نعثر على مكان مناسب، فلدينا خيمة "بيركل". هل أنت جاهزة؟

- أجل.

وواصلا المسير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

انتقل "أرمين فوجل" - الذي كان شرطيًّا لمدة سبع سنوات قبل وصول النازي إلى السلطة - بسهولة إلى "الجيستابو". الأمر يتعلق باتباع القانون، وقد منحه القانون سلطات لم يكن يحلم بها عندما انضم إلى السلطة لأول مرة في العشرينيات. هذه القوة مقنعة، وتبددت المفاهيم التي كان يتبناها عندما كان شابًّا في الهيمنة النازية، لا يمكن المساس به الآن، وهو غير مسؤول إلا أمام الرؤساء المباشرين، الذين لم يشككوا أبدًا في أساليبه. وما دام تدفق المعلومات مستمرًّا، كان مكانه كعنصر حيوي في حكم القانون مضمونًا.. لم يكن هناك مجال للشفقة أو الندم. ليس في مثل هذا الدور الحاسم مثل دوره الذي يجيد القيام به. الشفقة للضعيف، والندم للمهزوم. وهو لا هذا ولا ذاك.

كانت الساعة الثانية بعد الظهر عندما رن جرس التليفون. نحى "فوجل" الأوراق جانبًا وهو يتناول السماعة. شعر ببرودته على أذنه. استغرق الأمر بعض الوقت حتى يعتاد على التحية التي يستخدمها طوال الوقت الآن.

- هايل هتلر.

- هير "فوجل"، معك فراو "بيركل".

لم يكن من الصعب تبين الألم في صوتها.

- هل تعرف أين زوجي؟ لم يعد إلى المنزل من العمل الليلة الماضية، أو هذا الصباح. لقد اعتدت منه أن يبيت بالخارج، لكن ليس إلى هذا الحد. لقد اتصلت مرارًا بمكتبه، لكن لم أجد إجابة.

وعدها "فوجل" بالعثور على "بيركل" وأغلق الخط. لم يكن يرغب في التحدث إلى زوجة "بيركل"، خاصة وهي في مزاج كهذا. زوجته مزعجة بما فيه الكفاية. نهض للمرة الأولى منذ عدة ساعات، فأنَّتْ مفاصل جسده بشدة. مكتب "بيركل" بجوار مكتبه. والباب مغلق. سمح لنفسه بالدخول ووجده فارغًا. كان مكتب "بيركل" في حالة مماثلة لحالة مكتبه، ولكنه يحرص على تدوين مواعيده. وجد المفكرة في ثوانٍ، وتصفحها حتى اليوم السابق. كان "بيركل" دقيقًا في كل ما يتعلق بوظيفته، ومن المؤكد أنه كتب عنوان الكوخ في المكان المخصص لذلك وكان الموعد في المساء السابق.

- ذهبت لرؤية "فرانكا جربر"، أليس كذلك؟ "بيركل"، أيها الكلب العجوز.

أعاد المفكرة إلى مكانها بين الفوضى على سطح المكتب، وقرر الانتظار لساعة قبل أن يشرع في التحقيق في الأمر.

اتصلت زوجة "بيركل" مرة أخرى بعد خمس عشرة دقيقة. لم يجد "فوجل" السهولة نفسها عندما حاول إنهاء المكالمة هذه المرة، وكان عليه أن يعدها بأنه سينظر في اختفاء زوجها على الفور. لم يخبرها أن "بيركل" قد ذهب للبحث عن صديقته السابقة منذ سنوات المراهقة. ونظرًا لأن ملف "فرانكا" لا يشتمل إلا على عنوان فقط من دون رقم تليفون، فلم يكن لدى "فوجل" من خيار آخر. اتخذ طريقه إلى السيارة متسائلًا عما إذا كان "بيركل" قد قرر أن ينفصل عن زوجته. كانت هناك طرق ووسائل لفعل مثل هذه الأمور، ولم يكن من بينها توريط زميله في العمل في تفاصيل حياته العاطفية. وعلى الرغم من الفكرة المزعجة التي استمرت تطن في عقله حول سبب حصول "فرانكا" على العكازين، أمضى "فوجل" أغلب وقته وهو يقود السيارة نحو الجبال وهو يسب زميله العاجز عن كبح جماح شهواته.

كانت الساعة الرابعة بعد الظهر عندما وصل "فوجل" إلى الكوخ. أطلق السباب بصوت عالٍ وهو يترجل من السيارة، بعدما أدرك أنه سيضطر إلى العودة في الظلام. بدا الكوخ مهجورًا، لكن آثار الأقدام وآثار الإطارات في الثلج تقول بعكس ذلك.. شخص ما كان هنا. أبقى عينيه المدربتين على الأرض ولاحظ مسارين مختلفين على الأقل. كان هناك العديد من الأشخاص، وربما سيارتان أو أكثر. لم تكن هناك أضواء في الكوخ، والصمت وحده في الأجواء. لا مكالمات تليفونية، لا زوجة مزعجة، لا مشتبه بهم يبكون تحت التعذيب. أعجبته هذه السكينة. لم يشعر بهذا وحده منذ سنوات. قرع الباب مرة تلو الأخرى، لا إجابة، الباب موصد. انتقل إلى نافذة صغيرة وألقى نظرة على غرفة نوم فوجدها مهندمة وكأن أحدًا لم ينم بها منذ أيام طوال، ولكنه لاحظ أثر جلوس أحدهم على أغطية الفراش، وبقع الشمع على منضدة الفراش جديدة. عاد إلى الباب الأمامي وركله. انفتح في المحاولة الثالثة. شعر بالفخر فهو في الخمسين من عمره.

استقبلته ساعة الجدار بدقات متواصلة، ونادى وهو يعلم أنه لن يحصل على أي جواب. مشى في الردهة إلى غرفة المعيشة ورأى بقعة نظيفة على الأرض، يمكن تمييزها بوضوح عن بقية الألواح الخشبية. مد يده ليلمسها بأطراف أصابعه وشعر بالسطح الأملس.

نهض، وأشعل مصباح زيت في الزاوية. ألقى نظرة على المطبخ. كان نظيفًا، لكن الرماد الموجود في الموقد جديد، لم يتجاوز عمره يوم أو يومين. خرج "فوجل" من المطبخ إلى غرفة المعيشة وتأمل الجدران العارية من أي صورة. استغرق الأمر منه حوالي خمس دقائق قبل أن يجد الفتحة الصغيرة في الجدار الخلفي. وضع إصبعًا فوقها وشعر بالثقب الذي اخترقته الرصاصة. كان ثقب الرصاصة هذا كافيًا بالفعل لأن يطلب مساعدة "الجيستابو"، لكنه حدس أن هناك المزيد، وواصل بحثه. كل مَن كان هنا قد غادر على عجل. لقد أجادوا تغطية آثارهم، ولكن هناك دائمًا ثغرة، مهما كانت درجة دقتهم.

دلف "فوجل" إلى غرفة النوم الرئيسة، وتفقد خزائن الملابس، ونظر أسفل السرير، ولم يجد شيئًا سوى بعض الملابس القديمة المعلقة في خزانة الملابس وبعض مستلزمات السيدات. ذهب إلى غرفة النوم الأخرى، فتح الخزانة بضجة كبيرة، وفتش الملابس القديمة، ولم يخرج إلا بالقليل من الأفكار. أمضى خمس دقائق أخرى يتنقل بين الخزانة ومنضدة السرير، قبل أن يجلس على السرير لتجميع أفكاره. صرَّ الفراش تحت ثقله الكبير، لحظة أن شعر بنسيم هواء، يمر على جلد ساقيه فوق جواربه. أطل على الأرض ولاحظ وجود فجوة بين ألواح الأرضية. وقف ودفع السرير إلى الخلف، وكشف عن كامل ألواح الأرضية. ذهب إلى المطبخ بحثًا عن سكين لخلعها، وبعد فترة وجيزة، وجد نفسه يحدق في عينيَّ "دانيال بيركل" الجاحظتين في موات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تعد "كارولين بيدرمان" نفسها مواطنة صالحة وجارة تهتم لجيرانها. في البداية، كان إحساسها بالواجب هو الذي أوصلها إلى منزل الرجل العجوز، ولكن مع مرور الوقت، صارت لديها مودة حقيقية تجاه "هيرمان" وحرصت على رؤيته في زيارات منتظمة. يفضل زوجها الجلوس في المنزل وقراءة الجريدة أو الاستماع إلى الراديو بين رشفات الشراب الذي صنعه بنفسه. ضحى ابناها بحياتهما من أجل "الرايخ"، وغابت ابنتاها منذ فترة طويلة؛ إحداهما متزوجة من موظف حكومي في "بريمن"، والأخرى مخطوبة لقبطان في الجيش في "فرايبورج"، لذلك كان من الجيد أن يكون لديها شخص تهتم له. تزور "هيرمان" معظم أيام الأسبوع وتعد عشاءه وهو جالس يروي قصصًا من زمان أجمل. آراؤه السياسية تقترب من الليبرالية، وهي كلمة صارت سيئة السمعة في مجتمع اليوم، لكنها لم تهتم كثيرًا؛ يحق لكبار السن بعض الهذيان، ما داموا وصلوا إلى هذا العمر.

مدت يدها إلى أسفل إناء الزهور بحثًا عن مفتاح باب "هيرمان" الأمامي ولاحظت أنه كان في الاتجاه المعاكس عما كانت تتركه دائمًا. صدمها ذلك.. ولكنها تناولته. كان "هيرمان" نائمًا في كرسيه، فذهبت مباشرة إلى المطبخ لتحضر له طبق يخني الخضروات. استيقظ على صوت تقطيع الخضار المقطعة ونادى عليها من كرسيه.

- لا حاجة بك للنهوض، هير "جربر". إنها أنا.

بعد خمس دقائق، كان القد جاهزًا للطهي، ودسته في الفرن قبل أن تذهب إليه.

- "كارولين"، أنتِ لطيفة للغاية.

- أحاول أن أكون كذلك، هير "جربر". سيكون هذا الطبق جاهزًا في غضون عشرين دقيقة.. هل تريدني أن أعود؟

- كلا، هذا جيد تمامًا.

- هل كان لديك زائر اليوم؟

- بالفعل، ابنة أخي "فرانكا"، كانت تائهة. وصلت باكرًا هذا الصباح وأخذت قسطا من الراحة هنا. تناولنا الغداء معًا، وغادرت. كان من الرائع رؤيتها. لقد مرت سنوات.. لا أعرف كم عام.

- "فرانكا"، أليست هي التي واجهت مشكلة بسبب هؤلاء المعارضين في "ميونيخ" الذين تحدوا "الفوهرر"؟

- أجل، هي. لكنها قضت وقتها في السجن وتم تأهيلها تمامًا الآن.

- بالطبع، الجميع يستحق فرصة ثانية. حسنًا، ليس كل الجميع. يجب أن أذهب الآن. عرفني إذا كنت بحاجة إلى أي شيء آخر.. وإلا، فسوف أراك غدًا.

غادرت، تلاحقها كلمات امتنان العجوز، لكن أفكارها راحت في مسار آخر. من المحتمل أنه لا شيء هنا مريب، ولكن مع كل ما يحدث هذه الأيام، من الأفضل أن تكون في أمان. كانت متأكدة من أنها على صواب وأن "فرانكا" ضلت الطريق. ومع ذلك، فقد كانت عدوة معروفة للدولة، في وقت ما على أي حال، والحدود قريبة من هنا. ما الذي يدفعها إلى التنزه في منتصف الليل، ولماذا لم تطلب من أحد جيران عمها إعادتها إلى المنزل؟ كان الليل يحل، لتتسدل ستارة سوداء على أشجار الغابة. بالفعل، من الأفضل لها أن تبادر بالاتصال بالشرطة المحلية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

شعر "فوجل" بالأسى وهو يترك جثة زميله تحت ألواح الأرضية في الكوخ وسط الجبال، لكنه كان يعرف أن هذه ضرورة لأن المكان تحول إلى مسرح جريمة قتل. لم يفكر أبدًا في "بيركل" كصديق عندما كان على قيد الحياة، لكنه كان رجلًا صالحًا ورب عائلة وخادمًا مخلصًا لـ"الرايخ". سلط مقتله الضوء على الصفات التي لم يتعرف عليها "فوجل" أبدًا فيه عندما كان على قيد الحياة. تصاعدت بداخله الكراهية تجاه قاتل "بيركل" وهو في طريق عودته إلى "فرايبورج"، وتوترت أصابعه على عجلة القيادة، وعض بأسنانه في غيظ. لم يكلف نفسه عناء إيقاف سيارته في مكانه المعتاد خارج مقر "الجيستابو"، وبدلًا من ذلك، تركها بزاوية صعبة على الرصيف. جمع الوكلاء المناوبين في اجتماع طارئ. صُدم الرجال عندما ذكر لهم ما رآه، وأقسم كل منهم على الانتقام من العاهرة القاتلة التي تجرأت على ارتكاب مثل هذا العمل الوحشي والشنيع. ولعدم وجود صورة لـ"فرانكا" في الملف، استدعوا رسامة لترسم وجهها من أوصاف العديد من العملاء الذين عرفوها. قال "فوجل":

- سيارتها غير موجودة. أغلقوا جميع الطرق لمسافة خمسين ميلًا في كل اتجاه، وصولًا إلى الحدود. استعينوا بحامية "فيرماخت" المحلية للمساعدة في البحث. إنها تتجه نحو سويسرا. لا أشك كثيرًا في ذلك. ليس لديها مكان آخر تلجأ إليه. لا أحد يستطيع أن يختبئ منا في هذا البلد. اتصلوا بكل مركز شرطة محلي وكل شخص قد يمتلك معلومة عنها. نعلم أنها حصلت على عكازين منذ أسبوعين؛ ادعت أنها كانت لصديقها الذي أصيب في حادث تزلج. قد يكون معها شخص آخر.. لا يمكن السماح

لهذه العاهرة الغادرة بالفرار. لا أحد يفعل هذا بـ"الجيستابو". نحن القانون، والعقاب سيكون قاسيًا.. أحضروها على قيد الحياة. أريد أن تكون الساعات الأخيرة التي تقضيها على هذا الكوكب بائسة مروعة.

جاءت المكالمة من مخبري "بورخاو" بعد نصف ساعة، فدعا "فوجل" إلى اجتماع آخر حضره ثلاثة أضعاف عدد العملاء. كانوا متحمسين متلهفين مثل قطيع من الكلاب المفترسة. سيتم نشرهم جميعًا ما بين "بورخاو" والحدود. تلك العاهرة الخائنة لن ترى سويسرا وهي على قيد الحياة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تجمدت الدماء في ساقي "فرانكا" من شدة البرد. إذا كان هناك من درب هنا، فقد غطته الثلوج، وكان عليهما مكابدة الثلوج الكثيفة. تجاوزت الساعة العاشرة، وساقيها تتألمان مع كل خطوة. يتقدمها "جون" بقدمين، وبين برهة وأخرى تمد يدها لتلمس ظهره لتخبره أنها لا تزال هناك، ولتشجيعه. كان عقلها فارغًا تقريبًا، مشغولًا بالدرب أمامها وصعوبته وحسب، وبهذا البرد القاتل. اعتادت عيناها على الظلام. لا يظهر القمر إلا عندما تسمح أوراق الشجر لضوئه الفضي بالوميض. كان انتشار الأشجار متفاوتًا، وفي بعض الأحيان، كانا يصادفان حقلًا مفتوحًا، أو مساحة من الأشجار المتساقطة العارية من أوراق الشجر، جذوعها مثل مسامير هائلة انتصبت نحو سماء الليل. مرا بالمزارع التي يضيء الدفء بيوتها من الداخل وشاهدا الدخان يتصاعد من مداخنها، برغم أنها صامتة مثل قبور الموتى.. لكنهما لم يتوقفا.

حل منتصف الليل تقريبًا، عندما رفع "جون" إصبعه في الهواء فتوقفت من خلفه. وضعت يديها على فخذيها وانحنت تلتقط أنفاسها. أشار إليها حتى تثبت وتقدم إلى الأمام. اتكأت "فرانكا" على شجرة وهي تتألم من تعب أطراف جسدها. أنفاسها ثقيلة، وكانت تلهث بينما تراقبه يعود.

- هنالك كهف بين تلك الصخور. هل ترينه؟

لم ترَ ولكنها قالت إنها بالفعل تراه.

- نحن بحاجة إلى الراحة لبضع ساعات، اتبعيني.

تقدم "جون" إلى الأمام بخمس أو ست خطوات قبل أن ينظر إلى الوراء. كانت متخلفة عنه بمسافة، نفدت الطاقة التي بداخلها منذ أن توقفا. مد يده وتناول يدها. ذهبا معًا في صمت حتى ظهر الكهف كرقعة داكنة على وجه الصخر الرمادي أمامهما. أخرج "جون" مصباحًا كشافًا من حقيبته، لم تكن "فرانكا" تعرف أنه يحمله. اندفع قنفذ فزعًا من داخل الكهف هربًا من الضوء.

- أردت فقط التأكد من أننا لن نزعج دبًا أو ذئبًا.

أرادت "فرانكا" أن تتجاوب معه، لكن الإنهاك أعجزها عن الكلام. خلع "جون" الحقيبة عن ظهرها. شعرت بخفة رأسها عندما أخذ الحقيبة، وساعدها على دخول

الكهف، وأجلسها على الأوراق الجافة التي غطت الأرض. مد يده إلى حقيبته وأخرج زجاجة ماء نصف ممتلئة قدمها لها. أعاد السائل البارد بعض النشاط لها.

جمع "جون" قطع حطب. وفي غضون بضع دقائق، أدفأت النار مؤخرة الكهف. همست "فرانكا" في قلق:

- ألن يرونا؟

- ربما.. إذا كانوا خلفنا مباشرة. لكننا بحاجة إلى هذا. يمكننا أن نرتاح هنا لثلاث ساعات أو نحو ذلك. ثم نتجه إلى الحدود.

أخذ يتأمل الخريطة وهو جالس بجانبها، وقد تلامس جسداهما. أمسكت "فرانكا" بطرف الخريطة، وأخذ هو الطرف الآخر.

- أعتقد أننا هنا، على بعد عشرة أميال من الحدود. إذا مشينا طوال الليل، يمكننا أن نصل إلى هناك بحلول الصباح.

- أنعبر في وضح النهار؟

- كلا، نحن بحاجة إلى إلقاء نظرة أولًا. أعتقد أنه يمكننا العبور هنا.

أشار إلى منطقة قريبة من قرية "إنزلنجن".

- هناك درب عند سفوح الغابة، يؤدي إلى مكتب الجمارك السويسري عبر الحدود. يمكننا متابعة جدول مياه من شأنه أن يقودنا إلى ذلك الطريق. وفقًا لهذه الخريطة، لا يوجد حراس ولا نقاط تنصت. إنها بقعة عمياء، ثغرة فاتهم تغطيتها. هل سبق لكِ أن ذهبت إلى هناك؟

- كلا، لقد ذهبت إلى سويسرا عندما كنت طفلة، لكننا لم نكن نرى ضرورة لعبور الحدود خلسة في جوف الليل في أثناء رحلتنا المدرسية.

- كان من شأن ذلك أن يضفي إثارةً على رحلتكم المدرسية.

- لا يمتلك مدرسونا حس المغامرة هذا.

- سنجد جدول المياه هذا ثم نعبر الحدود بعد حلول الظلام. يجب أن نكون بأمان في سويسرا في الغد.

- أنت تجعلها مهمة بسيطة للغاية.

- لا شيء معقد في ذلك.

- وستكون قد أنجزت مهمتك.

ألقى بقطعة خشب في النار.

- بالفعل، أعتقد ذلك.. إلى حد ما.

نهض وهو غير قادر على الوقوف بشكل كامل في الكهف.

- حان وقت تناول الطعام.

أخرجا الخبز والجبن الذي أحضراه وفي غضون ثوانٍ، التهما الكمية التي كانا قد حدداها للعشاء. فتح إحدى علب اللحم. وجدت صعوبة في إكمالها بينما راقبته وهو يأتي على علبته. ألقى بالعلبة الفارغة نحو مؤخرة الكهف. جلس بجانبها وهما يحدقان في النار.

- ماذا بعد عبورنا للحدود؟

- أتوقع أنني سأقضي بقية الحرب في مركز احتجاز سويسري، ممتلئ باللاجئين الآخرين وأسرى الحرب الذين فروا عبر الحدود.. ماذا عنك؟

- سأذهب إلى برن. لدينا مكتب هناك. سأبلغ عن نتائج المهمة ومن المحتمل أن أُرسَل إلى الوطن في انتظار مهمتي التالية.

- عودة البطل، أليس كذلك؟

- ليس تمامًا، لكن الحرب لن تدوم إلى الأبد، ماذا ستفعلين بعد ذلك؟

- لا أعرف. مع كل ما يجري، سأحاول التركيز على البقاء على قيد الحياة. لن أفكر كثيرًا في الماضي. وأفترض أنني سأعود إلى "ميونيخ" وأبدأ مهمة إعادة بناء حياتي.. وبلادي أيضًا. ستكون هناك حاجة إلى خبراتي.

- ألمانيا كانت موجودة قبل النازيين، وستستمر بعدهم.

- ربما، لكنهم تركوا وصمة سوف تستغرق الكثير لمحوها.

سعل "جون"، وتردد صدى سعاله في فضاء الكهف.

- آمل أن نتمكن من البقاء على تواصل عندما ينتهي كل هذا، إذا كنا قادرين على ذلك. فأنا مدين لك بالكثير.

- وأنا مدينة لك بالقدر نفسه لما فعلته من أجلي في الكوخ، وعندما وجدتك.

- وجدتني؟ أنتِ أنقذت حياتي.

- لقد جعلت لحياتي هدفًا عندما كنت على وشك الانتحار. كنت ما أحتاجه وقت أن كنت في حاجة إليه.

- كما كنتِ أنتِ من أجلي.

ألقى "جون" بمزيد من الحطب في النار.

- هل تفكرين في المجيء إلى أمريكا معي؟ الأمر مختلف عما هو هنا، كما أدرك أنها بعيدة تمامًا، لكن الحياة فيها قد تعجبك.

- إلى "فيلادلفيا"؟

- لمَ لا؟ "فيلادلفيا" مدينة رائعة، لكن يمكنك الذهاب إلى أي مكان آخر ترغبين فيه.

التقطت عصا وتشاغلت بتحريك النار بها، قبل أن ترد:

- دعنا نركز فقط على البقاء على قيد الحياة خلال الغد أو نحو ذلك، أليس كذلك؟ ثم يمكننا بعدها التفكير في المستقبل.

- بالفعل، ربما تماديت بأفكاري قليلًا.

أحاط ذراعه بكتفيها، وهو يطمئنها.

- خذي قسطًا من النوم، سوف نواصل المسير مرة أخرى في غضون ثلاث ساعات.

تناولت "فرانكا" حقيبة النوم من حقيبتها وفردتها على أرضية الكهف، والتي وجدتها أكثر نعومة وراحة مما كانت تتخيل. ظل "جون" جالسًا، يحدق في فوهة الكهف وفي ظلام الليل بعدها. كانت آخر فكرة خطرت له قبل أن تروح هي في سبات عميق هي متى سيتسنى له أن ينام هو أيضًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظهر لها "بيركل" في أحلامها مرة أخرى، ولكن هذه المرة وسط مئات الجنود الذين رفعوا الحراب والسيوف والمشاعل وهم ينشدون الأغاني، التي كانت تغنيها أيام كانت عضوة في رابطة الفتيات الألمانيات. كان جسد "بيركل" ممزقًا ومخضبًا بالدماء، وعليه آثار الرصاص الذي أطلقته عليه. توتر أحد الكلاب المفترسة وهو يحاول التملص من الطوق الحديدي حول عنقه. طاردها حشد من الكلاب المسعورة الهائجة إلى الغابة، ومن ورائها حملة المشاعل التي تضيء الليل بينما تركض في ظلها.

خفق قلبها بشدة لحظة أن استيقظت فاستقرت عيناها على لمعان النار. يبدو أن "جون" لم يتحرك منذ أن نامت. بادرها قائلًا:

- إنها الثالثة صباحًا.. حان وقت الرحيل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

طرد "فوجل" التعب عن عينيه بينما توقفت السيارة. مرت سنوات منذ أن ظل مستيقظًا على هذا النحو. المسؤوليات التي تتطلب أن يعمل العميل طوال الليل كانت مقصورة بشكل عام على الشباب، وليس لرجل في سنه وخبرته. ولكن هذه المهمة مختلفة.. التعطش للانتقام هو ما يدفعه ويحركه. استقبل الفجر وفرصة استجواب الرجل العجوز ببهجة. ليأتي النوم في وقت لاحق. أمضوا الليلة في تمشيط الطرق بحثًا عن أي أثر لها، وكانت الساعة قد تجاوزت السادسة بقليل عندما عثروا على سيارتها على ممر بالقرب من قرية "بورخاو"؛ القرية الصغيرة نفسها التي يدخلها الآن مع مرافقه المسلح. وفر "الفيرماخت" المحلي خمسة وسبعين رجلًا. جاءت عليه أوقات كان يجد أمامه فيها المئات. ولكن مع توتر العلاقة بين ضباط "الفيرماخت" المحليين و"الجيستابو"، كان عليه أن يرضى بالخمسة والسبعين رجلًا الذين ادعوا أنهم ما يمكنهم توفيره في اللحظة الأخيرة. جنبًا إلى جنب مع مائة أو نحو ذلك من رجال الشرطة و"الجيستابو"، سيكون هذا أكثر من كافٍ للعثور على فتاة تتجول في غابة.

طرق "فوجل" الباب بنفسه، متلهفًا لرؤية نظرات العجوز عندما يفتح الباب. قدم ضابط "الجيستابو" نفسه بتحية، متجاهلًا حيرة العجوز وهو يدلف إلى الداخل مع الجنود الخمسة المرافقين له. جلس "فوجل" إلى طاولة المطبخ، قبالة المكان الذي كان يجلس فيه العجوز يشرب قهوته، وما زال بخارها يتصاعد من الفنجان. قدم العجوز فنجانًا إلى "فوجل"، الذي رفضه وأشار إليه أن يجلس. لم يكن الوقت ترفًا.

- ما الذي يمكنني مساعدتك به، هير "فوجل"؟

- وصلني خبر بأنك استقبلت زائرة بالأمس.

- إنها جارتي، "كارولين"، تأتي لرؤيتي في معظم الأيام. تساعدني في..

- لا أريد كلامًا زائفًا أيها الرجل العجوز.

كانت كل كلمة تخرج من فمه تمثل تهديدًا ضمنيًّا.

- أنا أبحث عن "فرانكا جربر". سمعت أنها كانت هنا بالأمس. لقد قتلت أحد زملائي، وهو رجل طيب ولديه أطفال. قامت ابنة أخيك بإطلاق النار عليه بدم بارد.

- أنا لا أعرف ما الذي تتحدث عنه. لم أرَ "فرانكا" منذ سنوات.

- لا تُضِع وقتي، "جربر"، نحن نعلم أنها كانت هنا. سلوكك المراوغ لا يخدعني. ماذا قالت؟ هل أخبرتك إلى أين كانت ذاهبة؟ هل كانت وحدها؟

أطاح "فوجل" بفنجان القهوة، الذي طار من على الطاولة ليتحطم على بلاط الأرضية.

- هل تعتقد أنني خائف منك؟

- أعتقد أنك يجب أن تخاف. ليس لديك مَن تلجأ إليه هنا.

نظر حول المنضدة إلى خمسة جنود يرتدون زيًّا عسكريًّا كاملًا وبنادقهم على صدورهم.

- يمكنني أن أخرجك وأطلق النار عليك في منتصف الشارع، ولن تدينني أي محكمة في "الرايخ". يمكنني حبسك في زنزانة وتجويعك حتى الموت، أو ربما فقط أعذبك من أجل أن أتسلى. والآن، ها أنا أسألك مرة أخرى.. إلى أين أخبرتك تلك العاهرة بأنها ذاهبة؟

- انتبه لكلامك! أتذكر عندما كان هذا البلد رائعًا، عندما كنا معقلًا للصناعة والفنون، عندما كان المتنمرون مثلك ما زالوا في جحورهم. لكنك الآن ترتدي هذه الشارة وتعتقد أنها تمنحك القوة؟

أخرج "فوجل" مسدسه وصوبه إلى "هيرمان". ولكن العجوز لم يجفل.

- لم أقتل رجلًا منذ سنوات عديدة. لا تجعلني أفعلها اليوم. قل لي أين "فرانكا". لقد أخبرتك بالفعل أنها قتلت زميلي. هل كانت بمفردها أم مع شخص آخر؟

- وقد أخبرتك بالفعل أنني لم أرها منذ سنوات.

ألصق "فوجل" مسدسه بجبين "هيرمان".

- أنا رجل عجوز "فوجل"، سوف يزورني الموت عاجلًا أم آجلًا، لست بخائف منه ولست بخائف منك. لذا، هيا أطلق النار، لأنني أفضل الموت على أن أخون عائلتي لصالح دمية نازية مثلك.

- أنت مَن اخترت.

وضغط "فوجل" الزناد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

خدَّر البرد القارس الألم. تخشى "فرانكا" الآن من عضة الصقيع. بعد ساعات من الخوض في الثلج، تشعر أن قدميها كتلتان خرسانيتان ثقيلتان. لذلك كانت سعيدة بالتوقف لتناول الإفطار. ولكن لا يمكنهما إشعال أي نار الآن. تحدثا همسًا.

- ماذا سنفعل إذا وجدونا يا "جون"؟

- سوف نحرص على ألا يحدث هذا.

بسط بطانية ليجلسا عليها وأعطاها زجاجة ماء. اشتاق جسدها إلى النوم.

- يجب أن نكون حريصين على شرب الماء. ولا يبدو أن نقصه مصدر قلق وسط كل هذه المياه المتجمدة.

تناولت "فرانكا" منه الخبز والجبن. تمضغه ثلاث مرات قبل أن تبتلعه من فرط قساوته. أخرج "جون" الخريطة التفصيلية للحدود السويسرية. تساءلت "فرانكا"

عن مدى دقتها، خاصة أن حياتهما تعتمد عليها.

- ربما نكون على بعد خمسة أميال فقط أو نحو ذلك من الحدود.. كيف تشعرين؟

- أشعر أنني بحالة جيدة، أشعر أننا سنكون في سويسرا قريبًا.. ماذا عنك؟

- الشعور نفسه.

استندت "فرانكا" إلى شجرة ونظرت إلى أعلى الجذع الممتد نحو السماء لمسافة ثلاثين قدمًا أو أكثر. كانت رائحة الصباح منتشرة في الغابة؛ رائحة الصنوبر الممزوج بالتربة والثلج. طمأنتها ألفة الرائحة. هذا مكانها الذي تحبه. وعملاء "الجيستابو" هم الذين يتعدون عليه. بدت الغيوم المنخفضة وكأنها مفارش قطنية متسخة، والرياح خفيفة تهب من الجنوب لتهز أغصان الأشجار. أخرج "جون" سكينًا من حزامه، وقطع آخر قطعة من الجبن، وناولها لـ"فرانكا".

- ماذا كنت ستفعل لو لم نكن في حالة حرب؟

- لا أعرف. لا أعتقد أنني كنت سأقود أعمال الشركة، حتى بدون الحرب. يجب أن أجد سببًا آخر لأناضل من أجله. ربما أكون ما زلت متزوجًا.. مَن يدري؟ ماذا عنكِ؟

- الأمر ليس بهذه البساطة بالنسبة لي. إذا لم تكن هذه الحرب قائمة، لكنا ما زلنا نعيش مع النازيين وستظل الحرب داخل بلدي مستعرة.

- ماذا لو لم يكن النازيون في السلطة؟

- لا أعرف، إنهم كل ما أعرفه عن الحكام منذ أن كنت مراهقة.

- لن تكوني قادرة على العيش هنا مرة أخرى، ليس في أثناء وجودهم في السلطة.

- أنا مستعدة لذلك. ماتت حياتي القديمة منذ زمن طويل.

ألقت قطعة الجبن في فمها.

- أنا مستعدة.

لم يتحدث أي منهما لبضع ثوانٍ.

- لم يتبقَ لي شيء هنا. ليس لديَّ دولة الآن. ولا عائلة.. أنا وحسب.

سيكون القرار قرارها إذا نجحا في عبور الحدود على قيد الحياة.. إذا. ساقاه تؤلمانه منذ الليل، حاول بيديه تدليك أسوأ مناطق الألم. اشتاق جسده إلى النوم. كان يعلم أنه إذا استلقى على هذه البطانية الآن، فسرعان ما سينام وسيجدونه، وهو ما يعني الموت لكليهما. لذا، حان وقت الرحيل. نهض على قدميه.

- لماذا أنقذتِني من وسط الثلوج؟

- ماذا؟

- كنت أرتدي زي طيار حربي نازي. أي أنني كنت بالنسبة لكِ جزءًا من النظام الذي دمر حياتك وبلدك. فلماذا أنقذتِني؟

- لأنك إنسان، وأنا ممرضة. هذا واجبي.

- لكنكِ خاطرت بحياتك من أجل شخص غريب.

- كنت بحاجة لهدف لحياتي.

- كلنا نحتاج ذلك.

ساعدها على الوقوف على قدميها.

- الآن، دعينا نواصل. يمكننا أن نصل إلى الحدود في غضون ساعة أو ساعتين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

بسط "فوجل" الخريطة على طاولة المطبخ، وهو يحرص على تجنب تلطيخها بالدم المتناثر. لن يسبحا في نهر "الراين". ليس في يناير. كانا سيقصدان "إنزلنجن"، حيث تبتعد الحدود بين سويسرا وألمانيا عن مياه النهر المتجمدة. كان قد أرسل بالفعل خمسين رجلًا إلى هناك عبر الغابة، وكان مائة رجل يجتاحون المنطقة من على بعد عشرة أميال إلى الداخل. وسرعان ما سيتم القبض على تلك العاهرة مثل جرذ وقع في الفخ، وسيكون انتقامه منها على مهل. سوف يجعل منها عبرة. هل من الممكن تعليق جسدها في قلب المدينة كما فعل "الجيستابو" في الأراضي المحتلة؟ هذا نقاش يتطلع إلى خوضه مع رؤسائه. لملم الخريطة واتجه نحو السيارة مع مرافقيه. استغرقت الرحلة 45 دقيقة بالسيارة إلى الحدود، لأنه يريد أن يكون هناك عندما يجدونها، ليرى تلك النظرة المستسلمة على وجهها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أصبحت كل خطوة انتصارًا صغيرًا الآن. بدأت قسوة مسيرة اليوم السابق تؤثر في جسديهما المحطمين. يجر "جون" ساقيه جرًّا عبر الثلج، مستندًا إلى الأشجار، وأسند كل ثقله على عصا المشي التي صنعها لنفسه.

- لقد أوشكت هذه المعاناة على الانتهاء. سأكون متفرغًا عما قريب، لأول مرة منذ أن كنت مراهقًا.

من المفارقات أنها ستضطر إلى قضاء أيام حريتها في مركز احتجاز في سويسرا، غير قادرة على الحصول على عمل، لكن هذه الحرب ستنتهي قريبًا. يتوق إلى أن يكون الشخص الذي يحررها. اكتسبت مهمته طبيعة مختلفة. تخيل نفسه وهو يسلم الميكروفيلم إلى "وايلد بيل دونوفان" بنفسه، وهو يصافحه، بينما يرفرف العلم. ولكنه رآها في كل لمحة عن مستقبله، ومن تلك الصورة استمد الراحة ووجد المنطق.

مشيا في تثاقل عبر الثلج. هو على يقين من أنهم عثروا على "بيركل" الآن، وأن "الجيستابو" قريب. لم يكونا على بعد أكثر من ميل واحد من المجرى المائي الذي

يقودهما نحو الحدود؛ هذا إذا كانت الخريطة دقيقة بالفعل.

وصلا إلى منطقة مفتوحة. هناك طريق يقطع مسارهما. طلب "جون" من "فرانكا" أن تتوقف واستمر بمفرده حتى وصل إلى صف الأشجار. أطل على كلا اتجاهي الطريق. كان هادئًا، فارغًا بقدر ما يستطيع أن يراه قبل أن يتوارى على البعد. كان الطريق على بعد بضعة أقدام فقط من صف الأشجار الذي كانا يخرجان منه. تبعد الأشجار على الجانب الآخر مائتي ياردة أو أكثر من جانب الطريق. ظلا في العراء لعدة دقائق في أثناء عبورهما، لكن لم يكن هناك من وسيلة أخرى. كان مجرى الماء الذي سيقودهما إلى الحرية على بعد نصف ميل. لا بد أن هناك نقاط تنصت قريبة من هنا، وهذا الطريق لن يكون هادئًا هكذا لفترة طويلة.

كانت بجانبه الآن.

- الغابة إلى جانبنا. ولها الفضل في أننا ما زلنا على قيد الحياة. والخروج منها يعني الموت.

أشار عبر الطريق إلى المنطقة المفتوحة والأشجار وراءها.

- مجرى الماء الذي نتجه إليه في تلك الكتلة من الغابة. لذا نحن بحاجة إلى عبور هذه المنطقة. أنا متأكد من أنهم عثروا على جثة "بيركل" ويبحثون عنا الآن. لا يوجد مكان آخر نذهب إليه إلا هذا المكان. وهم يعلمون أننا لن نسبح في النهر في الشتاء. إذا لم يكونوا هنا بالفعل، فسيكونون هنا عما قريب، لكننا قريبان من هدفنا. ونستطيع أن نفعلها.

- مَن برأيك ترك تلك الآثار في الثلج؟

انتبه إلى وجود آثار أقدام في الثلج، تتجه إلى الأشجار على الجانب الآخر من الطريق.

- من الصعب التحديد. لا يبدو أن الثلوج تساقطت هنا منذ عدة أيام. تبدو آثارًا قديمة.

- ربما لمزارع وأبقاره؟

- ربما، أنا متأكد من أنه لا يوجد أحد يتربص بنا، إذا كان هذا ما تعنيه.

- يبدو الجو هادئًا.

- دعينا لا نضيع الوقت.

خرج "جون" من وسط الأشجار، وقد أحنى جسده بينما يعبر الطريق. تبعته "فرانكا" على بعد أقدام قليلة، وهي تحاكي حركته. انتظرها "جون" على حافة الطريق قبل أن يدخلا المرج المغطى بالثلج الذي أدى إلى صف الأشجار البعيد. ركض إلى الأمام وتعثرت هي خلفه، وحقيبة ظهرها تعيقها. عدلت من وضع الحقيبة، بينما أسرع هو في تقدمه لدرجة أنها تخلفت وراءه بثلاثين ياردة. كان يدخل في صف الأشجار عندما سمعت هدير شاحنة عند منعطف الطريق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

كان "فوجل" يركب في المقدمة، وعيناه تفحصان جانبي الطريق في لهفة، لحظة أن رأى شخصًا يكافح عبر الثلج للوصول إلى صف الأشجار.

- توقف!

صرخ بأعلى صوته، بينما ضغط السائق بقدمه على المكابح بقوة.

- ها هي ذي، اذهبوا وأحضروها!

ضرب بيده بقوة على غطاء القماش المشمع لينبه الجنود الذين يركبون في ظهر الشاحنة.

استدارت "فرانكا" عندما توقفت الشاحنة، ودب الرعب فيها. نهضت على قدميها، وهي تبذل قصارى جهدها للركض عبر الثلج. انبطح "جون" خلف شجرة، وسحب مسدسه متشبثًا بالأمل الكاذب الذي يقنعه بأنه قادر على إطلاق النار على جنود "الفيرماخت" الأربعة المدججين بالسلاح والذين هبطوا سريعًا من الشاحنة. رفع أحد الجنود بندقيته إلى كتفه وبدأ في إطلاق النار. تناثر الرصاص حول "فرانكا" وهي تركض، وراقبها "جون" في يأس ويده ممدودة نحوها.

تبع "فوجل" رجاله في الثلج، وصارت الشاحنة خاوية بينما ركض الرجال الستة خلفها وهي لا تبعد عنهم سوى مائة ياردة. سحب مسدسه ليطلق النار صوبها، لحظة أن اختفت في أعماق الغابة.

أمسك "جون" بيدها وجذبها نحوه.

- هيا، علينا أن نتفوق عليهم بطريقة ما. الحدود قريبة. تخلصي من حقيبتك.

ألقتها أرضًا وهي تشعر بالأسى على صور عائلتها التي كانت تضعها في جيوبها. ألقت نظرة إلى الوراء على الجنود والضابط السمين وراءهم وهم يكافحون لتجاوز الثلج. يبدو أنهم يقتربون منهما بوتيرة أسرع. جرها "جون" من يدها وهما يركضان، وصعدا في تل ثم ركضا نحو الأسفل، والأشجار من حولهما في كل مكان. كان الجنود خلفهم، ولكن التل والأشجار تحجب الرؤية.

- لسنا بعيدين الآن.

وجدت ضوء نهار على مد بصرها. على بعد مائتي ياردة. ضوء أبيض هائل، أدركت "فرانكا" على الفور ما لم تظهره الخريطة. هنا تنتهي الأشجار، ويمتد منحدر لمسافة أربعين قدمًا ثم صخور خشنة لمسافة ميل في كلا الاتجاهين. صاح "جون":

- تبًّا، كلا، يمكننا أن ننزل إلى أسفل.

- إنهم خلفنا تمامًا. كانوا يقودونا إلى الطريق نحو الأسفل. لا مفر من هذا، ولن أقدر على فعل ذلك.

- ماذا؟

- إنهم لا يعرفون أنك معي. لن يلاحظوا آثار أقدامك من بين الآثار الأخرى في الثلج. كنت مختبئًا بين الأشجار عندما خرجوا من الشاحنة. لم أستطع رؤيتك، لذلك أعلم أنهم لم يتمكنوا من رؤيتك أيضًا. لا بد أن تمضي من دوني. يمكنك التسلق والعبور عبر الحدود قبل حلول الظلام.

- لن أتركك.

- هذا غير مُجْدٍ، "جون". لا يمكننا أن ننجو معًا. فكر في مهمتك. عليك الذهاب الآن.

- يجب أن تكون هناك وسيلة أخرى.

- لا توجد وسيلة أخرى. سأعود نحوهم وأصرف انتباههم.

- كلا، لا أستطيع تركك.. لن أفعل هذا.

- تذكر مهمتك. إنها مهمة أكبر مني ومنك. تذكر سبب وجودك هنا.. من فضلك، ليس لدينا سوى ثوانٍ.

تسمع صوت الجنود يقتربون من بين الأشجار، ربما وراءها بمسافة مائة ياردة.

- افعل هذا من أجلي.

جذبها إليه واحتضنها بقوة، ولثم شفتيها بقبلة. أسندت جبهتها إلى رأسه في أسى.

- لا يمكن أن أتخلى عنكِ.

- لا بد أن تذهب الآن.

- أنا آسف جدًّا "فرانكا".

أنزل جسده على حافة الجرف. نظرت إليه للمرة الأخيرة عندما نظر إليها. تراجعت نحو مطاردوها وذراعاها في الهواء، تستسلم لهم. سمعت "فرانكا" الجنود يصيحون فيها لتسقط على الأرض، وتضع يديها خلف رأسها. كانت على بعد أميال.. على بعد سنوات.. من جلستها مع والديها في الكوخ، ذات أمسية صيفية دافئة بينما تغرب الشمس وراء الأشجار.

صاح الضابط السمين بصوت متحشرج وهو يقبض عليها.

- "فرانكا جربر"؟ أنا المفتش الجنائي "فوجل" من "الجيستابو". أنتِ رهن الاعتقال بتهمة قتل "دانيال بيركل". أنتِ ملكي الآن. ستدفعين ثمن ما فعلتِه بصديقي. أنا أستمتع للغاية بتلك الدموع على وجهك. سيكون هناك المزيد منها.

دس مسدسه في جرابه، وهو يسألها:

- أين صديقك؟

- ماذا؟

قال وهو يصفعها على وجهها:

- لا تلعبي معي بهذه الطريقة. كان معكِ عكاز اه. أين هو؟

- لقد غادر الأسبوع الماضي. شق طريقه عبر الحدود. أخبرني بالطريق وأن أتبعه.

- فتشوا المنطقة.

انتشر رجاله، واستغرقوا بضع دقائق لتفتيش المنطقة.

أخذ "فوجل" وقته في تقييدها، وأخذ منها محفظتها ومسدس والدها.

قال أحد الرجال عند عودتهم:

- لا شيء. لا يوجد أحد آخر. هناك آثار أقدام في كل مكان. من المستحيل معرفة ما إذا كان هناك أي شخص آخر معها.

أفكارها منشغلة بـ"جون" الآن، وهروبه عبر الحدود. في هروبه نصر لها. تخيلت "جون" يعبر الحدود، ويسلم الميكروفيلم، ويتلقى الإشادة التي يستحقها، فكان ذلك المشهد كافيًا لها. سوف تمر عذابات الساعات المقبلة. ولكن إنجازهما حي إلى الأبد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ظل "جون" جالسًا وسط الأشجار، مدركًا أن عليه أن يبتعد فقط، وأن الطريق إلى الحدود سيكون مفتوحًا الآن. تلوح في الأفق الحرية ومجد إنجاز مهمته. تسليم الميكروفيلم مسألة حياة أو موت. ربما يكون في ذلك قلبًا لمسار هذه الحرب. تخيل رؤية عائلته مرة أخرى، ونظرة الفخر على وجه والده. حاول إبعاد "فرانكا" عن تفكيره. تتلخص حياته الآن في رحلة سهلة عبر الحدود.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تحرك الجنود عبر الثلج بينما كانوا في طريقهم عائدين إلى الشاحنة، مستمتعين بلحظة الانتصار. أبقى "فوجل" مسدسه مصوبًا إلى رأس "فرانكا". ومَن سيوقفه؟ هذا هو عالمه وحده، وسرعان ما سوف تدرك هذه العاهرة ذلك. استغرق وصولهم إلى الشاحنة خمس عشرة دقيقة. احتفل الرجال بتدخين السجائر عندما وصلوا. أجبرها "فوجل" على الركوع في الثلج على جانب الطريق ويداها على رأسها بينما كان يخرج اللاسلكي للإبلاغ عن نجاحه. مرَّ بالعديد من اللحظات الرائعة في مسيرته، ولكن ربما كانت هذه هي أفضل اللحظات. فكر في "بيركل" وهو يرفع الجهاز نحو فمه. كانت العدالة التي طالب بها قادمة. أذاع "فوجل" الخبر السار، عدة مرات.

- سأعيدك إلى مقر "الجيستابو" المحلي الآن. سيكون آخر مكان ترينه على الإطلاق.

دفعها "فوجل" في مؤخرة الشاحنة وقيد يديها بالحبال، لأنه نسي الأصفاد بينما كان في عجلة من أمره.. لا يهم. معها أربعة جنود. لن تتمكن من الهرب. جلس الجنود بجانبها. وجلس "فوجل" والسائق وجندي آخر في المقدمة.

- مبارك يا شباب!

صاح "فوجل" عندما كانوا يستعدون للذهاب.

- لكم يوم إجازة عندما نعود.

هلل الجنود جذلًا، بينما بدأ السائق تشغيل المحرك والتحرك. لم يقطعوا أكثر من بضع مئات من الأمتار عندما رؤوا شخصًا أمامهم، يصرخ طلبًا للمساعدة. انحنى "فوجل" بجسده إلى الأمام فرأى ضابطًا في سلاح الجو الألماني يتعثر في طريقه نحوهم، ويلوح بأوراق هوية في يده. كان زيه ممزقًا وقذرًا، ومغطى بالثلج والأوساخ. بدا منهكًا، يكاد يموت. أبطأ السائق الشاحنة حتى توقفت.

- ساعدني من فضلك!

- ماذا الآن؟

كان ضابط سلاح الجو يقف مباشرة أمام الشاحنة ويلوح بذراعيه. كان قريبًا جدًّا لدرجة أن "فوجل" كان يرى لون عينيه.

- كنت هنا طوال الليل. نزلت طائرتي في مهمة تدريبية على بعد أميال قليلة من الغابة. اعتقدت أنني سأموت هنا. سمعت دوي الطلقات فاتجهت نحو الصوت.

- لدينا سجينة ننقلها. نحن في عمل مهم. هناك بلدة تبعد حوالي ميلين إلى الغرب.

- لا أعتقد أنني أستطيع أن أصل إلى هناك وحدي. ساقاي مصابة. من فضلك، لا تتركني هنا.

فكر "فوجل" في الأمر لبضع ثوانٍ. قد يحصل على مزيد من الثناء لإنقاذه طيار فُقد في الغابة، وربما ينال وسامًا؛ سوف يحظى باحترام قادة سلاح الجو إذا قام بتسليم أحد ضباطهم إليهم. أشار له أن يصعد في مؤخرة الشاحنة.

- يمكننا أن نأخذك إلى البلدة.

أسرع الرجل نحو مؤخرة الشاحنة. ونادى "فوجل" على الحراس أن يساعدوه على الصعود.

في البداية، لم ترفع "فرانكا" رأسها، لكنها انتبهت مع رفع القماش المشمع في مؤخرة الشاحنة. شحب وجهها بشدة عندما وجدت "جون" يجلس بجانبها بزيه العسكري، وهي على يساره مع جندي آخر بجانبها. جلس الرجال الثلاثة الآخرون أمامهما وبنادقهم إلى جانبهم. بدأ المحرك بالعمل مرة أخرى، وانطلقت الشاحنة. كان "جون" يلهث، وانحنى إلى الأمام، وساعديه على فخذيه. وضع حقيبته بين قدميه.

- شكرًا لكم على توصيلي بالسيارة. أنا مدين لكم بحياتي. مَن هذه الفتاة؟

قال أحد الجنود:

- معتقلة، لقد قتلت ضابط "جيستابو".

- وأنتم تعتقلونها بسبب ذلك؟

ضحك "جون".

- لماذا تقوم فتاة جميلة مثلك بقتل أحد ضباطنا المحبوبين في "الجيستابو"؟ ألم يعجبك معطفه الأسود؟ أنتم تعرفون ماذا يقولون عن رجال "الجيستابو"، أليس كذلك؟

- كلا، ماذا يقولون؟

سأله أقرب جندي منه، وعلى وجهه ابتسامة.

- إن رجال "الجيستابو" جميعهم صادقون وأذكياء، لكنني لا أوافقهم الرأي.

- لماذا؟

- إن قال رجل "جيستابو" عن نفسه إنه ذكي، فهو ليس بصادق، فإذا كان صادقًا، فهو ليس ذكيًّا، وإذا كان صادقًا وذكيًّا، فهو ليس من "الجيستابو" إذًا.

ضحك الجنود الأربعة على دعابته.

- أعلم أنني يمكن أن أوقعكم في مشكلات، لكنها مجرد نكات.

أجاب الجندي:

- بالطبع.

تجمدت أعصاب "فرانكا". اعتراها الشك، فلم يمنحها "جون" أي إشارة أو أي تلميح.

- لديَّ نكتة أخرى، إذا وعدتم بألا تقصوها على أي شخص آخر.

صاح الجندي الجالس بجانبه يطمئنه:

- بالطبع!

- حسنًا، هذا جيد. ما الفرق بين المسيحية والنازية؟

صاح أحد الجنود:

- لا أعرف!

تمهل "جون" لبضع ثوانٍ.

- في المسيحية مات رجل واحد من أجل الجميع، لكن في النازية، يموت الجميع من أجل رجل واحد.

انفجر الرجال ضاحكين.

وقف "جون" بغتة، وسحب مسدسيه من جيوبه، وهو يصيح:

- "فرانكا"! لأسفل!

أطلق النار في جزء من الثانية على الرجال الجالسين قبالته. ونهض آخر جندي بعد أن استفاق من المفاجأة ومد يده إلى مسدسه، ولكن "جون" عاجله بطلقتين في رأسه. توقفت الشاحنة، وكاد "جون" أن يفقد توازنه من التوقف المفاجئ. وفي الثانية التالية، أمطر القماش المشمع الذي يفصله عن مقصورة القيادة بالرصاص. انحنى عليها في لهفة. كانت دماء الجنود تغطي وجهها.

- هل أصبتِ؟ هل تأذيتِ؟

- كلا، أنا بخير.

أخذ "جون" مسدس أحد الجنود القتلى وقفز من الشاحنة. تبعته "فرانكا". كان باب مقصورة الشاحنة مفتوحًا، و"فوجل" يبتعد بخطوات متعثرة على الطريق، والدم يسيل من صدره. لاحقه "جون" برصاصتين فخر صريعًا. تأكد "جون" من أنه قد مات وأن الرجلين الآخرين قد فارقا الحياة. استند "جون" إلى جانب الشاحنة في تعب. واقتربت "فرانكا" منه.

- لقد عدت من أجلي. كان يمكن أن تكون عبرت الحدود الآن.

- أخبرتك أنني لن أتخلى عنكِ.

عانقته، لكنها عندما تراجعت، رأت بقعة دامية حمراء حيث ضغطت على جسده.

- أوه.. لا، أرني هذه الإصابة.

رفع ذراعه ليكشف عن جرح ناتج عن طلق ناري على الجانب الأيمن من صدره، في مستوى مرفقه. كذبت عليه وهي تطمئنه:

- إنها ليست بهذا السوء.

- يمكنني تحملها، لكننا بحاجة للذهاب الآن. المزيد من الجنود قادمون.

- انتظر. أحتاج إلى الحصول على شيء أولًا.

ركضت "فرانكا" إلى مقصورة الشاحنة وفتحت الباب. سقط جنديا "الفيرماخت" إلى الأمام مثل دمى من القماش، وتناثرت دماؤهما على الزجاج الأمامي المحطم. وانهار جسد السائق على الطريق. وجدت صندوق الإسعاف الطبي على أرضية الشاحنة. كان "جون" جالسًا على الثلج عندما عادت إليه. قطعت بعض الشاش ولفته حول صدره في محاولة لوقف تدفق الدم. كان الجزء العلوي من سرواله مخضبًا باللون الأحمر. خلع سترته وألقى بها على الثلج.

- اضغط عليها.

ناولته ضمادة سميكة.

- استمر في الضغط قدر المستطاع.

أومأ "جون" برأسه، لكن وجهه كان شديد الشحوب. مد يده إلى حقيبة ظهره بحثًا عن معطف مدني وتمكن من وضع ذراعيه فيه. تخضب بالدماء في ثوانٍ.

- علينا الخروج من هنا الآن.

أخذت "فرانكا" الخريطة من جيبه. لقد ابتعدا عدة أميال عن حيث كانا يخططان للتوجه إلى الحدود. بمجرد العودة إلى تلك النقطة، سيكونان أمام الجرف.

- يمكنني أن أصمد. أخرجي الجثة من الشاحنة، ودعينا نعود إلى حيث كنا.

تحركت "فرانكا" إلى جانب الركاب في الشاحنة، حيث أخرجت جثة الجندي الآخر. وساعدت "جون" على الوقوف على قدميه، ووضعت ذراعه على كتفها، وقادته إلى الشاحنة، حيث كان قادرًا على سحب جسده إلى الأعلى ودخل. كان المحرك لا يزال يهدر، والمفاتيح في مكانها. عدلت مسار الشاحنة وانطلقت بسرعة على الطريق، والرياح الباردة تهب على وجهيهما، وابتعدا عن المذبحة التي خلفاها على الطريق.

- ستحتاج إلى طبيب، وبسرعة.

- انقليني عبر الحدود، وسنهتم بالباقي لاحقًا. لقد أنقذتِ حياتي مرة. ويبدو أنك ستعتادين فعل ذلك.

قادا السيارة لبضع دقائق قبل أن يصلا إلى نقطة بدا فيها وجه الجرف منخفضًا، وصف الأشجار أقرب. أسند ذراعه على كتفها عندما ترجلا من الشاحنة، ولم يهتما لتغطية آثارهما. إنها الحدود.. الحرية. أخذت حقيبته وأخرجت منها ما تجده ليس مفيدًا قبل أن تحملها على ظهرها. تحركا معًا، متكئًا عليها، ومخلفًا أثر الدم على الثلج. أخذ يقول لنفسه:

- يمكنني أن أفعلها.. يمكنني أن أفعلها.

كانت الأشجار تتعرج على كلا الجانبين في الثلج الذي بلغ عمق قدمين. وصلا إلى حافة الجرف مرة أخرى. ارتفاعه عشرين قدمًا.

- اخرجي الحبل، اربطيه حول شجرة، وأنزليني إلى الأسفل.

أخرجت "فرانكا" الحبل من حقيبته وأحكمت وثاقه حول شجرة قوية. لف الحبل حول ذراعيه وقبض عليه بكلتا يديه وهي تخفضه شبرًا شبرًا. أبقى "جون" قدميه على الصخور وهو يهبط. كانت تعرف مدى إجهاده الآن، ولكنها كانت تعرف أيضًا حتمية المثابرة في هذه اللحظات. هبطت "فرانكا" من بعده. كان جالسًا على صخرة، بالكاد قادرًا على إبقاء جسده منتصبًا، عندما وصلت إلى سفح الجرف.

- هيا بنا، يا رجل البحرية.

قالتها بالإنجليزية، تمامًا كما علمها.

سمعت صوت اندفاع الماء خفيفًا في الجدول وانطلقت معه عبر الأشجار للعثور عليه. كانت المياه متجمدة عند حوافه، ولكن الماء يتدفق بحرية خلال وسطه. صاحت:

- هذا هو، نستطيع أن نفعلها!

- يمكنني اختراقه.

لكن صوته كان ضعيفًا، وكأن أي خطوة أخرى قد تكون الأخيرة. تعثر مرة أخرى، فبادرت بمساندته.

- هيا، "جون". نحن على وشك إتمام المهمة. بضع خطوات فحسب الآن.

استمرا في التحرك على طول ضفة الجدول، خطوة خطوة. بدأ يفقد القدرة على التحكم في قدميه، وتعثر مرة أخرى، وسقط فوقها. تألم وهي تحاول حمله، لكنها تجاهلت ألمه، وأجبرته على النهوض. كانت قبضته تتراخى، لكنهما استمرا في المشي.. ولو بصعوبة بالغة.

- نحن قريبان للغاية. لا تتخلَ عني هنا.

مرت عدة دقائق وهما يتقدمان، حتى تراخت قبضته وسقط أرضًا. ظهر لهما مبنى الجمارك من خلال الأشجار. كان على بعد ثلاثين ياردة فحسب.

- لقد فعلناها!

كانت تبكي.

- نحن في سويسرا.. نحن أحرار.

همس لها:

- أنتِ حرة، شكرًا لكِ "فرانكا".. على كل شيء. خذي الميكروفيلم.

صاحت بكل لهفة الدنيا:

- كلا! لن أدعك تموت، ليس بعد أن أصبحنا على حافة الحرية. انهض.. الآن. هل تسمعني؟ استيقظ. أنا لن أتركك هنا!

احتضنته بكل قوة، وكابدت حتى تمكنت من حمله على كتفيها.

- نستطيع فعلها. نحن على أبواب الحرية!

أخذت تكرر العبارة.. مرارًا.. وهي تتجه نحو مبنى الجمارك الحجري الصغير، الذي حمل لها برغم قتامة لونه الرمادي كل آمال العالم. وأشجار الغابة السوداء كثيفة من فوقها.. حتى أنها لم تعد ترى السماء.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

الفصل الخامس عشر

الريف، خارج مدينة "بازل" السويسرية – أكتوبر ١٩٥٤

صبغت شمس الغروب الأفق بلوحة لونية امتزج فيها الأحمر والبرتقالي والأرجواني، بينما كانت "فرانكا" تحاول تنشيط عضلات ظهرها وهي تتكئ على المجرفة في الحديقة. ومن بعيد، بدت تلال وأشجار الغابة السوداء مثل خيالات معتمة تخاطب السماء. صارت الأمسيات أشد برودة الآن، وحرارة الصيف تفسح المجال لهواء الخريف. من حولها خطوط زراعة البطاطس لعدة مئات من الأمتار في كل اتجاه، لا يكسر اتساقها إلا شخوص المزارعين الآخرين العائدين من عملهم اليومي. تناولت "فرانكا" الدلو الممتلئ بالأعشاب واتجهت نحو الحظيرة. كانت "روزا جولدشتاين" تنتظرها بالقرب من الشجرة التي يتناولان الغداء أسفلها.. بابتسامة.

- لم أكن أعتقد أنك ستمكثين هنا، "فرانكا"، اعتقدت أنكِ عائدة إلى بلادك.

- ما زلت هنا. لا أعرف لماذا، لكنِ رحلتي إلى المنزل تأخرت. اليوم هو آخر يوم لي في المزرعة. يبدو الأمر سخيفًا، لكنني سأفتقد هذا المكان، وجميع الأشخاص الرائعين الذين قابلتهم هنا.

- انتهت الحرب. وسقط النازي. حان وقت الاستمرار في حياتنا، أو ما تبقى منها.

سارت الشابتان معًا. انضم إليهما آخرون في أثناء ذهابهم، وفي الوقت الذي وصلتا فيه إلى الحظيرة، كان عدد المجموعة قد تجاوز العشرين فتاة، كل منهن يتمنى لها التوفيق وهي تودعهن.

واتتها ذكرياتها مع "هانز"، وهي تغتسل قبل العشاء، في الحمام الذي تشاركها فيه عشر فتيات أخريات تسميهن الشقيقات. عاشت كلماته بعد أن انتهت حياته. عما قريب، يحتفون ببطولة "هانز" و"صوفي" و"فيلي" والآخرين الذين ضحوا بحياتهم في سبيل الحرية. عادت إلى غرفتها وجلست على سريرها المكون من طابقين. المسكن فارغ، وجميع الأخريات بالخارج يستمتعن بمشروب في شمس المساء. أخرجت من تحت فراشها الحقيبة التي بها متعلقاتها. كانت الورقة مطوية في الجيب الجانبي. أخرجتها، كما فعلت كثيرًا هذه الأيام، وقرأت العنوان:

بيان طلاب "ميونيخ"

كان هذا هو المنشور السادس من حركة "الوردة البيضاء"، هربه من ألمانيا محام، ونسخه ووزعه بمئات الآلاف على ألمانيا بمساعدة قاذفات الحلفاء. حملته "سيلفيًا شتيرن"، اللاجئة اليهودية من "أولم"، معها عبر الحدود وأعطته لـ"فرانكا" ليلهمها وقت أن وصلت "فرانكا" إلى المخيم لأول مرة في شتاء عام 1944. لم تخبرها "فرانكا" أو تخبر أي شخص آخر أبدًا أنها كانت موجودة في الليلة التي كتب فيها "هانز" وأخته "صوفي" وصديقه المقرب "فيلي" ذلك المنشور. لم تخبرها بأنها

ساعدت في توزيعه، أو أنها قضت وقتًا في السجن بسبب الكلمات الموجودة على تلك القطعة من الورق. كانت تلك ذكراهم الآن. لقد استحقوا هذا الشرف.. وحدهم.

طوت المنشور، ودسته مرة أخرى في حقيبتها، وذهبت إلى النافذة في نهاية صف الأسرة المكونة من طابقين. أطلت على الغابة السوداء، على بعد أميال.. من بعيد. ما الذي هناك لتعود لأجله؟ لقد دمروا النازيين، وسقط "الرايخ"، الذي أسسوه ليحكم ألف عام. لكن ماذا بقي لها هناك الآن؟ كل مَن أحببتهم ماتوا.. بقيت ذكرياتهم فقط، لتغمرها بشعور بالراحة والحزن في آن واحد، ولتغرقها في الحب. كانت لا تزال تتحدث إلى والدتها، ولا تزال تشعر بحضن والدها، ولا تزال ترى ابتسامة "فريدي" في أحلامها.. سيبقون دائمًا معها، ما دامت على قيد الحياة.

ما زالت تفكر في "جون". لا تزال تشعر بثقل حمله على كتفيها، ودفء دمائه وهي تسيل فوقها، وتلك النظرة على وجه رجل الجمارك.. بين الشفقة والريبة، بينما تندفع عبر الباب وهو على ظهرها. حاول رجل الجمارك إقناعها بالاستسلام، وأن "جون" مات، لكنها رفضت تصديق ذلك. أجبرته تحت تهديد السلاح على نقلهما إلى المستشفى على بعد ثلاثة أميال. وهي متأكدة من أن هذا سبب كافٍ لزجها في السجن. لكنهم لم يفعلوا. تدخلت القنصلية الأمريكية. وجرى تهريب الميكروفيلم إلى الولايات المتحدة، وكانت مسألة وقت قبل أن تسقط القنبلتان على "هيروشيما" و"ناجازاكي". لم تكن تعرف أبدًا أنها سبب رئيس في تلك الصدمة وذلك الرعب.. لكن الحرب انتهت الآن. يقول الأمريكان إن القنبلتين أنقذتا أرواح مئات الآلاف. من الأفضل التفكير في الأمر بهذه الطريقة، لأن البديل مؤلم.. جدًّا. ربما كان الدور الذي لعبته في إنهاء الحرب هو الإرث الذي يمكن أن تتصالح معه ذات يوم. يكفيها أن تعرف أن كان لها دور.

وضعوها في أمان المخيم بعد دخوله المستشفى، ولم تره منذ ذلك اليوم، ولم تعرف إلا عن طريق الرسائل بمعجزة بقائه على قيد الحياة. راسلها ليشكرها على إنقاذ حياته بفضل إرادتها القوية، مؤكدًا مرارًا وتكرارًا على وعده بالعودة إليها، لكنها لا تزال تشعر بالوحدة.. لم تصدقه، وتلاشى الأمل بداخلها مع ندرة رسائله.

يسدل الليل أستاره، ولم يبقَ من ضوء النهار إلا وهج خجول فوق الغابة السوداء على البعد. لم تكن قد أضاءت المصباح في ركن المكان، فأظلمت الغرفة من حولها. لا فائدة من إضاءة غرفة كانت على وشك أن تغادرها. حان الوقت. لم يكن هناك من مهرب. وضعت حقيبتها بجانب سريرها. فيها آخر ما تملك. وهي بالكاد نصف ممتلئة. حملتها وهي تشعر بأنها تحمل ثقل ما تبقى من حياتها.

سمعت الصوت الناعم لغلق باب غرفة النوم من خلفها.

- قلت لكِ إنني سأعود من أجلك.

إنه هذا الصوت.. الصوت من خلفها.. صوت لم تسمعه إلا في أحلامها طيلة الأشهر الماضية. أضاءت المصباح في لهفة، وغمر النور الذهبي الغرفة. وعند الباب،

رأته؛ "جون".. في زيه العسكري كاملًا، مع صف مبهر من النياشين على صدره.
خلع قبعته ووضعها تحت ذراعه، وهو يقترب منها:

- لن أتركك مرة أخرى.

احتضنها في لهفة وقوة.. وذابت الدنيا بين أحضانهما.. وكل الكلمات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

إهداء..

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر